أصول التراث المسيحي
في شمال أفريقيا

دراسة تاريخية عن القرنين الأولين

تأليف: روبين دانيال

أصول التراث المسيحي في شمال أفريقيا

دراسة تاريخية عن القرنين الأولين

تأليف: روبين دانيال

أعده للنشر: تامغناست

المحتويات

المقدمة

إن المسيحية جزء أساسي من تراثنا الديني والثقافي في شمال إفريقيا. فقد عرف الناس، في هذه القارة، طريق المسيح وأحبُّوها زمناً طويلاً قبل أن تصل تعاليمُه إلى أوروبا الغربية وأمريكا والشرق الأقصى.

ففي مدة لا تتجاوز الخمسين سنة منذ أن ألقى المسيح الموعظة على الجبل، ترسَّخ الإنجيلُ في شمال إفريقيا كإيمان غير محصَّن لأقليَّة مضطهدة. وخلال قرنين ونصف، سمع سكان هذه البلاد إنجيل المسيح واستجابوا له لا بتأييد من السلطة الرومانية، بل على الرغم منها. والواقع أنَّ الحكَّام والقضاة الرومانيين عملوا كلَّ ما بوسعهم للضغط على الإيمان، وتدمير قادته، وجر أتباعه إلى المعابد الوثنية. كما سُنَّت على أعلى المستويات سلسلة جازمة من القوانين القاسية على يد مجموعة متتالية من الأباطرة الطغاة الذين كانوا يهدفون إلى محو المسيحية من على البسيطة.

وإنه لمن المثير أن كنائس شمال إفريقيا، في سنوات الاضطهاد، لم تزدد إلاّ ازدهاراً ونمَّواً. لقد كان إيمانها صلباً وشهادتها السلمية للناس والمحيطين بها فعالة بدرجة جعلت الجزء الأكبر من تونس وكثيراً من الجزائر وأجزاء كبيرة من ليبيا والمغرب تُعرف في القرن الثالث بأنها مسيحية.

لقد كان المسيحيون الأوائل في شمال إفريقيا متميِّزين عن الطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية المعاصرة كليهما. فهم، بكل بساطة، كانوا متشبثين بالتعاليم الأصلية للمسيح نفسه وكتابات أتباعه الأوائل التي تواترت من الأجيال الأولى وجُمعت في الكتاب المعروف «بالعهد الجديد». وكان سرُّ نجاحهم هو أسلوب حياتهم الجديد المبنيُّ على المبادئ النبيلة للمحبة والأمانة واللطف مع جميع الناس. كما أنه كان لديهم رجاء قوي في وعود الله لهم بأن هناك حياةً وفرحاً وراء ظلمة القبر.

وسـنرى في هذه الصفحات ما كان أسلافنا يؤمنون به بكل قوَّة. والآثار الرائعة لذلك الإيمان في المجتمع الأول لشمال إفريقيا.

الجزء الأول

الثمار الأولى

(القرنان الأول والثاني)

الفصل الأول

البذار قد بُذِر

لم تكن بِرْبيتُوَا تدري كيف تجيب أباها. أخيراً استدارت نحوه وهي تقول: «أبي ... أترى هذا الإبريق القائم هناك؟ هل تعتقد أنه إناء صغير للماء أم هو شيء آخر؟» ألقى الرجل العجوز نظرة عاجلة على الشيء القائم في زاوية زنزانة السجن القذرة، ثم أجاب: «إنه إبريق، بحسب ما يبدو لي». عندئذ قالت بيربيتوا: «هل نستطيع أن ندعوه اسماً آخر؟» «كلا، لا نستطيع، على ما أظن». ثمَّ تابعت بيربيتوا كلامها بلطافة وهي تقول: «وأنا لا أستطيع أن أدعو نفسي بخلاف ما أنا؛ إني مسيحية يا أبي».

نشأت فيفيا بربيتوا (Vivia Perpétua) في عائلة فاضلة. قضت معظم طفولتها السعيدة على شواطئ مدينة قرطاجة الجميلة، الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بإفريقيا الشمالية. لم تفتقر بربيتوا إلى الراحة واليسر، لأن التعليم الذي كان متوافراً لها لم يكن متوافراً لمعظم بنات عصرها. ودَّعت بربيتوا حقبة الطفولة، لتصبح الآن فتاة شابة في الثانية والعشرين، ومتزوجة. كما ودعت الفترة الآمنة المطمئنة من حياتها المبكّرة لتواجه الآن ضغوطات زعزعت حياة العائلة بأسرها. لقد ألقي القبض عليها وأودعت السجن بتهمة خطرة، ألا وهي اعترافها بأنها اعتنقت الديانة المسيحية.

هاهي الآن في سجن المدينة منذ عدة أسابيع. وقد أمل أبوها في أثناء ذلك أن يقنعها لترجع عن إيمانها، فيضمن إذ ذاك إطلاق سراحها. لكنّ الوقت كان يمر بسرعة من دون أن تظهر بربيتوا أية علامة تشير إلى الاستسلام أو التخلي عن إيمانها بالمسيح. في هذه اللحظات، سمعها العجوز وهي تقول له بأكثر صلابة وعناد، أنها مازالت عازمة على أتباع الطريق الذي رسمه المسيح، وعلى السير في إيمانها. وهكذا اندفع الأب إلى الخارج ساخطاً غاضباً.

ماذا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك؟ فهو رجل شريف محترم ومواطن

قرطاجي مستقيم الأخلاق، معروف في مجتمعه ومشهور في الأوساط المحترمة. لم يتورط قط في أي مشكلة أو أي إحراج، وهو بالطبع يتعبد للآلهة نفسها التي يعبدها جيرانه. لم يتسبب قط بأي إساءة أو إهانة لأحد. ولكن، ها هو الآن يواجه الذل والخزي والعار، كل هذا بسبب ابنته العنيدة المتمردة.

حبه لابنته دفعه للذهاب إلى السجن العام باذلاً قصارى جهده لدخول تلك المسالك المظلمة والممرات الحقيرة والوسخة. لم يكن أبو بربيتوا قاسي القلب، لذلك فقد حزن على ابنته واكتأب وكان تواقاً ليمد لها يد العون، ويبعدها عن هذا المكان البغيض المفزع. عادت به الذاكرة إلى تلك الأوقات السعيدة التي كانا يقضيانها، هو وابنته خلال الأيام الحلوة الهانئة. كان مستعداً لبذل أقصى الجهود لإقناع هذه الابنة العنيدة لتكف عن حماقتها الرعناء، تلك الحماقة التي سيطرت عليها بشكل لم يستطع أن يهضمه. كتبت بربيتوا في مذكراتها تقول: «الآن،وبعد أن دنا موعد المسابقات ومباريات المصارعة بالساحة العامة، جاءني أبي ممزقاً بالمشاكل والصعاب، تارة ينتف لحيته ويرمي بنفسه أرضاً على وجهه، وتارة أخرى يلعن أيامه. أما أنا فقد حزنت حقاً على بؤس أبي وتعاسة شيخوخته».

لم تكن بربيتوا وحيدة في زنزانتها، كان معها طفلها الصبي، البالغ من العمر بضعة أسابيع. كانت بربيتوا سعيدة لوجود ابنها معها. أخذ منها في السابق، لكنها كانت تعلم علم اليقين أنه بكى كثيراً طلباً لحضانتها، فأعيد إليها. أما هذا الطفل فهو مصدر آخر لأسى الرجل العجوز. قال أبو بربيتوا: «فكري في طفلك الصغير الذي لا يقدر على أن يعيش من دون أمه؛ اتركي كبريائك جانباً ولا تدمرينا جميعاً». حزنت بربيتوا على ابنها لأنها كانت تعرف أنه لا بد أن يعيش من دونها.

تحدث بعض الأصحاب الطيبين إلى سلطات السجن فحصلوا على إذن خاص لبربيتوا لتقضي أوقات معينة من النهار في مكان منير من مبنى السجن. وهنا، وفي هذا السجن بالذات حضر أخو بربيتوا وبصحبة والدتها لزيارتها، وجلبا معهما ابنها الغالي العزيز. فكتبت بربيتوا في مذكراتها

تقول: «لقد بدا لي السجن عند حضور طفلي وكأنه قصر جميل، وأحببت أن أبقى فيه مفضلة إيَّاه على أي مكان آخر». ومنذ ذلك الحين لم تدع بربيتوا طفلها يبعد عنها، فأبقته معها طوال الوقت. وكانت ترضعه من ثدييها وهي في زنزانتها الحارة المظلمة المزدحمة. وكانت تصلي لأجله حتى حين يكبر يتعرف هو أيضاً بطريق الحق ويسير فيه قدماً من غير خوف أو وجل.

ولا ننسى فيليستاس (Félicité) التي كانت معها في الزنزانة عينها، إنها الخادمة المخلصة، بل أكثر من خادمة إذ هي أختها بالمسيح وصديقة حميمة وعزيزة. كانت فيليستاس قلقة، لكن ليس بسبب الموت، بل كانت تخشى أن يتركه أصحابها. ولم تكن الإمبراطورية الرومانية تعدم النساء الحبالى، وفيليستاس كانت حبلى في شهرها الثامن. لقد سألت فيليستاس بربيتوا وأصحابها الآخرين ليرفعوا إلى الله صلاة لتلد قبل موعد المحاكمة. واستجاب الله حالاً وبدأت آلام المخاض. صرخت فيليستاس من الألم، فسخر منها أحد الحراس وقال: «إن كنت تبكين من آلام الولادة، فماذا ستفعلين حين تلقين لقمة للوحوش الكاسرة؟» أجابت: «أنا أعاني الآن ما أعاني، ولكن في ذلك اليوم، سيكون معي الله الذي سيحمل آلامي لأن معاناتي حينئذ ستكون من أجله هو». فولدت فيليستاس مولودة أنثى؛ ولكن المولودة المسكينة، أمست يتيمة بعد ثلاثة أيام فقط من ولادتها.

كان السجان يسمح لأصدقاء بربيتوا وفيليستاس بأن يزورهما في الزنزانة بين الحين والآخر. كان الظلام دامساً والمكان ضيّقاً مرعباً، وقد عانت المرأتان وحشية الحرس وقسوتهم، ومع ذلك، ففي هذا المكان المقرف، تعمدت المرأتان بالماء، كشهادة على إيمانهما، وتعمد معهما أيضاً ثلاثة أو أربعة من زملائهما. لقد صلت بربيتوا ليمنحها الله الصبر والسلوان لتحتمل كل ما هو آت عليها من عذاب وهوان.

أفرزت بربيتوا مع أصدقائها الآخرين عن بقية مسيحيي قرطاجة. كانت رغبة السلطات الحاكمة، أن تجعل من هؤلاء عبرة علنية لمن يعتبر من جمهور قرطاجة. وينتظر الآن جميع أهالي المدينة ليروا إذا كانت بربيتوا وزملاؤها

سـيـنكرون الرب المسـيـح ويذبحون للوثن. كان الحاكم يأمل ذلك. فهذا الأمر قد يثبط عزائم الآخرين. فيحذون حذو هؤلاء في إنكار سـيدهم. وإتباع عبادة الأوثان. ولكن الحاكم أساء تقدير تصميم بربيتوا. واستخف بعزائم أصحابها القوية الصلبة. ولم يكن يعلم شيئاً عن نعمة الرب وقوته المعطاة للمؤمنين. والتي ستؤازرهم وتساندهم في ساعة محنتهم. إذا كان المطلوب أن يكونوا عبرة للآخرين. فقد قرروا أن يكونوا عبرة شريفة وأن ينجزوا ذلك الامتياز الذي منحهم إياه الله إذ يشرقون ببهاء محبة الله على المسرح الذي أعد لهم.

كان قلب بربيتوا متعلقاً بأبيها؛ وكانت ترغب في إسعاده. لكن الفارق هو أن أباها لا يعرف المسـيح. أما هي فتعرفه. وقد كانت تدرك أن إنكارها للحق لا يمكن أن يسـاعد أباها. بل سـتكون بذلك قد خدعته. عليها أن تريه طريق المسـيح مهما حدث. وفي كل الظروف. وأن تصلي لكي يتعرف بهذا الطريق ويتبعه.

كان أخوهـا يعرف شـعورها ودواخلها. وكانت ترتاح إليـه. لأنه هو أيضاً اعتنق المسيحية كأمه. لقد جاء ليشاركها الصلاة في الزنزانة واقترح عليها أن تطلب إلى الله أن يكشـف لهما ما الذي سيحدث. فجاء جواب الله على هيئة رؤيا. حلمت بسـلم ذهبي ضيق طوله من الأرض إلى السـماء. يحرسه حيوان ضار في أسـفله. ومحـاط من جوانبه بمختلف أنواع أسـلحة القتال والحـرب. كذلك رأت في هـذا الحلم سـاتوروس (Saturus). وهو أحد الرجال المسـيحيين الأربعة المسـجونين معها. ثم شرع سـاتوروس بتسلق السلم وتبعته هي أيضاً. وعندما اعتلت الدرجة الأولى من السـلم داست على رأس الوحش. وعندما وصل ساتوروس إلى أعلى السلم. دعاها باسمها وهو يقول: «إنني بانتظارك يا بربيتوا». وبانضمامه إليه وجدت نفسها في مرج خصيب. حيث يجلس راع يحلب غنمه. محاطاً بأناس يلبسون الثياب البيض. دنا منها الراعـي وقدم لها قطعة من الجبن. أخـذت بربيتوا قطعة الجبنة بكلتا يديها. وإذا بالناس المتسـربلين بالثياب البيض يصرخون «آمين». وفي هذه اللحظة اسـتيقظت مـن حلمها. لكن مـذاق الجبن بقي فـي فمها. لقـد جلب هذا الحلم الجميل وغيره من الأحلام. شـعوراً كبيراً من الراحة لبربيتوا وأصحابها:

ومنحهـم الجرأة والقوة والشـجاعة لمجابهة مشـقاتهم وانزعاجاتهم بفرح وغبطة. وهكذا اسـتطاعوا أن يواجهوا المستقبل من دون خوف أو وجل. لقد عرفـوا يقيناً أن هذه الـرؤى كانت من الله. وأن الله تعالى سـيحقق لهم ما جـاء فيها. كذلك عرفوا أن الراعي لم يكن في الواقع إلا مخلصهم. وأن هذا الراعي الصالح سيسـتقبلهم قريباً في المرج الجميل الذي أراهم إياه. هناك سيتذوقون حلاوة محبة الله.

كانـت تصرفـات بربيتوا كانـت تصرفات بربيتـوا وزملائهـا تختلف عن تصرفات السـجناء الآخرين. كان هؤلاء السجناء يسـببون اضطرابات. الأمر الذي جعل حياة الحراس معهم صعبة وشـاقة. أما أولئك فقد كانوا صبورين ومراعين شـعور الآخريـن. مملوئين اطمئناناً وإيماناً. ورد فـي مذكرات بربيتوا أن أحـد الحراس المشـرفين على السـجن بدأ ينظـر إليها وإلـى أصحابها بعين التقدير والاحترام مدركاً أن قوة الله في داخلهم. كان اسم هذا الحارس بودنز (Pudens).

عنـد إعلان يوم المحاكمة. عـاد والد بربيتوا مرة ثانيـة. فحاولت بربيتوا أن تقـدم لأبيها التعزية والمواسـاة وهي تقول: «لتكن مشـيئة الله الصالحة يا أبتـاه. إذ ليس قدرنـا بأيدينا وإنما بيديـه الكريمتين». فأجاب أبوهـا قائلاً: «يا بنيتي العزيزة. ارحمي أباك وأشـفقي على شـيبته. فإذا كنت تكنين لوالدك الاحتـرام والاعتبـار الكافيين. فلا تدعي الناس يسـخرون بي. ولا تسـببي لنا الدمـار والخراب. بحيث لن يجرؤ أي منا أن يطل بوجهه أمام الناس. ولاسـيما إذا حكموا عليك». ألقى أبوها بنفسـه عند قدمـي ابنته وبكى بمرارة ويأس متوسـلاً إليها أن تعود عن هذا الطريق الحقير الرهيـب الذي اختارته. وقفت بربيتـوا أمام والدها بهدوء وسـكينة وهي تنتظر أن يكمـل حديثه. وبعد أن أكمل ما يريد قوله. تركها بقلب كسير وخرج حاملاً طفلها.

وقد كتبت بربيتوا في مذكراتها تقول: «الوقت يمر سريعاً وموعد المحاكمة بـات قريباً. وفيما كنـا نتناول الغداء. اسـتعجلونا إلى السـوق العام. حيث الاسـتجواب. بسرعة كبيرة انتشرت الأخبار في السوق وبدأ الناس يتهافتون

للتجمع حولنا. اعتلينا المنصة جميعنا. واعترف زملائي بكل جرأة أنهم من المؤمنين بيسوع. ثم جاء دوري». عندئذ انسل أبوها ليكون على مقربة منها قدر المستطاع. وكان يلوح لها بطفلها فكان على مرأى من ناظريها. وصرخ قائلاً: «ارحمي طفلك يا بربيتوا». ولم يستطع القاضي أن يحتمل هذا المشهد. فألح على بربيتوا أن تنبذ إيمانها وتنسحب قبل فوات الأوان. وقال لها: «احفظي شيبة أبيك. وارحمي طفلك. وكل ما هو مطلوب منك أن تقربي تقدمة وأن تعبري عن ولائك لإمبراطورنا العظيم. وهكذا يفرج عنك فوراً». فأجابت بربيتوا: « لا أستطيع أن أفعل هذا». فسألها القاضي: «هل أنت مسيحية؟» فأجابت بعزم وثبات: «نعم إنني مسيحية».

بعد هذه الكلمات صرخ أبوها صراخاً مراً. واستمر هكذا محدثاً جلبة كبيرة حتى نفذ صبر القاضي فأمر بإبعاده. وفي أثناء إبعاده عن المشهد. انهالت عليه ضربات الحراس بهراواتهم الثقيلة. سمعت بربيتوا أصوات الهراوات وهي تنهال على أبيها. فكتبت في مذكراتها تقول: «لقد عانيت آلام الضربات التي تعرض لها أبي كما لو كانت تنهال علي. لقد عانيت بسبب شيخوخته البائسة الكئيبة». ولكن لم تستطع بربيتوا أن تتراجع عن إيمانها؛ لم تستطع أن تنكر الحقيقة؛ لم تستطع أن تخدع عائلتها؛ لم تستطع أن تنكث عهد سيدها ومخلصها. لقد صدر الحكم بإدانتها مع الآخرين وبات عليه أن تواجه الوحوش في الساحة العامة.

كان هناك محام شاب يدعى ترتوليانوس (Tertullien). وكان يعيش في قرطاجة في ذلك الزمان. ويحتمل أن هذا الشاب كان واقفاً في الزحمة الكبيرة. وقد كان هذا الشخص هو الذي كتب إلى الحكومة الرومانية يقول: «إن دماء المسيحيين هي بذار». فإذا زرعت هذه البذار المقدسة. لا بد من أن تعطي ثمارها. وستكون هذه الثمار حصاداً مذهلاً مدهشاً.

على كل حال. نقل السجناء إلى زنزاناتهم. وبقوا هناك ينتظرون الاحتفال الكبير الذي سيقام بمناسبة عيد ميلاد أحد أبناء الإمبراطور. كان مقرراً في تلك الأثناء تنفيذ حكم الإعدام بالسجناء لتسلية أهل المدينة.

وقبل موعد تنفيذ حكم الإعدام. توفي واحد من الشبان يدعى سكوندولوس (Sécundulus). ولكن بمرور الأيام شهد السجن مشاهد استثنائية ملفتة للنظر حقاً. ذلك أن الشبان المسيحيين الخمسة. بدل أن يندبوا حظهم العاثر. كانوا يستمتعون بشعور البهجة والسرور. كما أن دماثة أخلاقهم. وإيمانهم المخلص الثابت. ترك عند المشاهدين انطباعاً عميقاً. والذين كانوا يزورونهم ليرثوا لهم. كانوا يجدونهم ممتلئين ثقة وثباتاً. والذين كانوا يأتون ليطمئنوهم ويعزوهم. كانوا يجدونهم متمتعين بأقصى الطمأنينة والسلام والثقة التي منحهم إياها الله في حينه. لقد تأثر زوارهم لدرجة أنهم صمموا بدورهم على السير وراء المخلص يسوع المسيح. كتبت بربيتوا تقول: «غادر جميع الزوار وهم مندهشون. ونتيجة لذلك آمن معظمهم. ويبدو بوضوح أن الحارس المدعو بودنز قرر أن يكون مسيحياً هو أيضاً». شاهدت بربيتوا أباها مرة أخرى قبل يومها الأخير . ولكنها لم تر ابنها لأن جده رفض أن يحضره.

كانت العادة تقتضي أن يقام احتفال عام ليلة الإعدام لتسلية السجناء المحكوم عليهم بالموت؛ فانتهز هؤلاء الفرصة ليتناولوا وجبة طعام مشتركة. بعضهم مع بعض. وذلك تذكاراً لمخلصهم يسوع المسيح الذي عانى وتألم ومات من أجلهم. تجمهر سكان المدينة ليشاهدوهم. وقد كان بعض هؤلاء السكان متحدين معهم في الإيمان. أما بعضهم الآخر فلم يكونوا كذلك. لكن الجميع تركوهم مستغربين إيمانهم الثابت وعزيمتهم التي لا تلين.

وفي اليوم التالي. وهو الموافق اليوم السابع من شهر مارس سنة 302 م. اقتيد كل من بربيتوا وفيليستاس والشبان الثلاثة. ساتوروس وساتورنينوس (Saturninus) وريفوكاتوس (Révocatus) إلى ميدان الوحوش – وهو المدرج الشعبي العام حيث كانت تجرى المباريات والألعاب وسباق المركبات. شعرت بربيتوا وزملاؤها بالارتياح والاسترخاء. لأن الفرج قد اقترب. ولأن العذابات التي يقاسونها ستنتهي. كذلك انتابهم شعور من الفرح العظيم عندما تأملوا في ذلك الترحيب الذي سيلقونه في بيتهم السماوي. وفي أثناء مرورهم بين صفي الجند كانوا يتلقون ضربات مبرحة. وقد حاول الحرس أن يضعوا عليهم أردية وثنية احتفالية – حيث الزي لباس

قرمزي وأصفر. وكأن الرجال كهنة للإله زحل (Saturne). والنساء كأنهن مكرسات للإلهة كيريس (Cérès). فاعترضوا على ذلك بشدة مصرحين جهاراً بأنهم مسيحيون لا عبدة أوثان. وهكذا، سمح لهم في النهاية بأن يخرجوا بثيابهم الاعتيادية. شرع المحتشدون المتحمسون، مجتمعين وجالسين فوق مصاطبهم، يصخبون ويصرخون بأعلى أصواتهم، بينما كان المحكومون يسيرون بشجاعة نحو الفسحة المفتوحة في منتصف المدرج. وأخيراً غضبت الوحوش الكاسرة وصرخت من شدة الجوع، واستثارة الحراس لها. ففتحت الأبواب بسحب المهماز الذي كان يفصل الوحوش بعيداً عن المدرج. فهرعت النمور والدببة الوحشية باتجاه هؤلاء المؤمنين الخمسة، وشرعت تمزق أجساد الرجال الثلاثة بوحشية قاسية. أما بربيتوا وفيليستاس فربطتا بشبكتين وكانتا تترنمان بمزامير الفرح والإيمان بالرب. وهنا وعلى حين غرة ألقيت الشبكتان اللتان كانت مأسورتين بداخلهما أمام بقرة وحشية غاضبة. وسرعان ما أغمدت البقرة قرنيها في الأسيرتين بوحشية وحملتهما في حال تشنج وهياج، ورفعتهما برأسها إلى الوراء وقذفتهما بعيداً بعنف كبير.

سقطت بربيتوا أرضاً وقد تمزق رداؤها من جانبه. فأعادت سحبه، ولفته حولها لأنها «اهتمت ببقاء جسدها محتشماً أكثر من اهتمامها بالأذى والهوان الذين لحقا بها». ربطت بربيتوا شعرها السائب ودارت بنظرها حول المكان بحثاً عن رفيقتها فيليستاس، فوجدتها مطروحة أرضاً. فاقتربت منها وأعانتها على النهوض والوقوف على قدميها. ثم التفت إلى زملائها الذين كانوا لا يزالون يصارعون الوحوش في الساحة، وصرخت إليهم تحثهم وتشجعهم وتقوي معنوياتهم.

اقتيدت بربيتوا وفيليستاس إلى غرفة خارج الميدان وجراحهما ثخينة دامية. وعلى الرغم من جراحات بربيتوا البليغة، فقد كانت في نشوة ما بعدها نشوة ، ولم تكن لتشعر بآلامها المبرحة. سألت بربيتوا عن موعد عودة الوحوش إلى الميدان من جديد. وفي هذه الفترة القصيرة من الراحة، وبعد أن استطاعت بربيتوا أن تلتقط بعض أنفاسها، جاءها أخوها وواحد من

الأصدقاء يدعى روستيكوس (Rusticus) ليفتقداها. فشجعتهما بربيتوا قائلة لهما: «أثبتوا في إيمانكم، أحبوا بعضكم بعضاً، لعل استشهادنا لا يكون سبباً للخجل لكم جميعاً». ثم نهضت بربيتوا وتوجهت إلى الميدان من جديد. وفي الوقت عينه وفي الجانب الثاني من الميدان، كان ساتوروس يتحدث إلى الحارس بودنز وهو يحثه قائلاً: «الآن يا أخي، آمن منكل قلبك ... الوداع، تذكر إيماني، ولا تجعل أموراً كهذه تقلقك، بل لتكن حافزاً لتزيد إيمانك وتقويه».

عندما شبع المحتشدون من مشاهدة ما قامت به الوحوش الكاسرة في الميدان، وأدركوا أنه مازال هناك بعض الضحايا الأحياء المجروحين، صرخوا مطالبين التعجيل بقتلهم والتخلص منهم. أما بربيتوا وزملاؤها المؤمنون، فهرعوا يعانقون بعضهم بعضاً، لأنه العناق الأخير قبل انتقالهم إلى أحضان المسيح. مشوا متعبين إلى منتصف الميدان مسيرة الشرف والكرامة وهم هادئون فرحون. وفيما هم سائرون، انهالت عليهم طعنات السيوف من رجال عينوا لهذا الغرض. أما الجلاد الذي أوكل عليه قتل بربيتوا فقد كان فتىً يافعاً، غير ذي خبرة في أعمال الإعدام. كان ينفذ مهمته من دون إتقان، إذ طعن بربيتوا طعنة غير فعّالة. عندئذ أمسكت بربيتوا بسيفه وغرزته في صدرها بكلتا يديها. وبهذا تحررت بربيتوا من الوضع الذي كانت تعانيه وانطلقت إلى أحضان المخلص.

كانت قرطاجة تحمل صفات غريبة تلفت الأنظار. فهي عاصمة إفريقيا، أو على الأقل، تلك المقاطعة الرومانية التي كانت تحمل ذلك الاسم؛ وفي الواقع كانت إفريقيا أرضاً ضيقة تحاذي الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط. وتذكرنا قرطاجة وإبّان القرن الثالث للميلاد، من بعض وجوهها، بمدينة كورنثوس. فكلتا المدينتين كانتا ميناءين يقطنهما شعب بلا جذور، يمتهنون التجارة. ولم يكن هناك فوارق اجتماعية تذكر في كلتا المدينتين، ماعدا ما يتعلق بالغنى. كانت كل منهما تعاني ظاهرة الانحلال الخلقي التي تبرز في المدن الواقعة عند شبكة طرقات رئيسة تربط الدول بعضها ببعض. هذا لأن روادها هم من المغامرين اللذين يشعرون بأنهم بعيدون عن

قيود الأصدقاء والأهل، ينغمسون في الملذات الدنيوية التي تتيحها أمامهم الديانة الوثنية. ونحن نجد في كلتا المقاطعتين أعراقاً وأجناساً خليطة من جميع أنحاء العالم – الأفارقة، والإيطاليين، فاليهود، والمصريين والغاليين. كذلك نجد طاقات عقلية أو عاطفية تظهر من خلال المشاحنات المستمرة التي تطالعنا سواء في الشارع أو الأسواق، أو على المدرجات. ومما زاد الوضع تفاقماً حرارة المناخ والذباب والحشرات والقذارة والأمراض المستشرية في الأزقة النتنة المزدحمة. تعتز مدينة قرطاجة بنفسها وتزهو بكيانها وتفتخر، مع أنها فقدت عظمتها السابقة، فهي تحت حكم روما قسراً؛ ومن جهة أخرى، قد يبدو أنها تسيطر على المناطق المحيطة بها بالإضافة إلى القبائل الداخلية، لكنها في الواقع تفقد تلك السيطرة. وقد يبدو أيضاً أن مواطنيها متحدون في تعبدهم للآلهة القديمة، ولكنهم كانوا ممزقين داخلياً يشككون في مصداقية تلك الآلهة.

إن شعب قرطاجة، وجدوا في وسطهم رجالاً ونساءً يتميزون بطابع الغرابة: تخالهم عائلة، لكنهم لا يرتبطون بروابط الدم. وتظن أنهم دين، إنما في الواقع بلا آلهة منظورة. كذلك يبدو أنهم من عرق واحد، ولكن بالحقيقة متحدرون من دول متعددة. الغني والفقير، الكهل والشاب، المتعلم والأميّ، وهم من الأفارقة أو الإيطاليين أو اليهود، من دون تمييز. لهم جميعاً دماثة خلق مؤثرة، ولهم أيضاً جاذبية أخاذة عجيبة. لا تجدهم يتشاحنون، أو يغشون، ولا يسكرون، ولا يشاركون في طقوس العربدة، أو الاحتفالات الفاسدة التي كان جيرانهم يحتفلون بها. ولم يرهم أحد يشاركون في المسرحيات العامة، ولم يعرف عنهم قط أنهم دخلوا إلى معابد المدينة التي كان يرودها كل السكان. ففي الواقع، كانت هذه الجماعة الغامضة لغزاً من الألغاز وسراً من الأسرار. كانوا يعيشون في قرطاجة، ولكنهم لم يشاؤوا يوماً، أن يكونوا جزءاً من هذه المدينة أو من شعبها، بل على العكس، كانوا يجتمعون سراً، وفي الخفاء – جماعات صغيرة هنا وهناك – لا يعرف أحد ماذا يجري وراء أبوابهم المقفلة، من أمور وأمور.

ومع ذلك، فقد كان أولئك القوم من أفضل الناس وأحسنهم. فإذا اتفق أن

تعرفت بواحد من هذه الجماعة ترى أنك تنساق انسياقاً لتثق به وتطمئن إليه. وإذا طلبت إليهم أن يحدثوك عما يؤمنون به، يجيبونك بلطف، أنهم يؤمنون بشخص أتى إلى هذه الدنيا، ليس منذ وقت طويل، وذلك ليعين البشرية. فرفضه هؤلاء الذين جاء لكي يعينهم؛ وأخيراً، نفذ فيه حكم الموت. لكن موته لم يكن نهاية المطاف. لأنك لو صدقت روايتهم وما يقولونه لك، فهذا الرجل الذي مات قام من القبر في اليوم الثالث، قام بطريقة عجيبة وهو لا يزال حياً بصحبة أتباعه، ومعهم حيثما ذهبوا أينما وطئت أقدامهم.

وبالتأكيد، فأن هذه الرواية هي رواية جميلة، والإيمان بها لا يؤذي أحداً، وقد تكون صحيحة. ولكن لم تكن الإمبراطورية الرومانية تعنى كثيراً بالجمال أو بالحق. لقد كان الدين عند أولئك الرومان مفيداً، لكنه مفيد إذا ما استعمل كأداة للتسلط على الناس واستغلالهم. فحتى ذلك الوقت، كان استغلال الدين قد أعطى نتائج حسنة، وكان مفعوله جيداً، شريطة أن يخلص الناس لدين واحد، ويقدموا له الولاء المطلوب فيشارك جميع الناس بعبادة واحدة عامة موحدة. أزعج السلطات الرومانية أن تجد في قلب العاصمة الإفريقية أناساً يزدادون باطّراد، ويرفضون قبول العبادة الشعبية العامة، ويمتنعون عن تقريب التقدمات التي تكرم الإمبراطور. كما شعرت السلطات أن من شأن هذه الظاهرة أن تهدد بنية المجتمع والحضارة التي يسهر عليها الإمبراطور. لذا ارتأوا أن تخمد هذه الحركة وتقمع وهي بعد في مهدها قبل أن يستفحل أمرها وتنتشر. وفي هذا الوقت أصبحت الحكومة الرومانية قلقة ومتوترة بسبب الأزمة الاقتصادية والاجتماعية المتفاقمة والتي جعلت الناس يتذمرون في جميع أنحاء الإمبراطورية. بدأ التململ يتنامى بين سكان قرطاجة، وبدأ صبرهم ينفذ بسبب حكامهم الرومان. لقد أصبح الشعب بحاجة إلى مزيد من مهرجانات اللهو والتسلية. وصلت السلطات الرومانية إلى الحل المنشود، حين طلب مروضو الوحوش الكاسرة مزيداً من الضحايا لإطعام وحوشهم الجائعة، على المدرجات. فإن هؤلاء المسيحيين سيفون بالغرض.

بعد مصرع بربيتوا وأصحابها بقي جمهور المؤمنين بمشاعر متضاربة – يسرهم أن معاناة أحبائهم قد انتهت، لكنهم يحزنون لفراقهم؛ اطمئنان إلى

أنهم من الشهداء الذين رحبت بهم السماء، وهم الآن في مكان أفضل حيث استقبلهم الراعي الصالح الذي تراءى لبربيتوا، وقلق على مصير المؤمنين الباقين. رفع الأخوة الجثث الخمس المطروحة على أرض الملعب، ودفنوها بكل محبة. كذلك نصبوا لوحة تذكارية لإحياء ذكرى هؤلاء الشهداء الشجعان، الذين وقفوا وقفة مشرفة. وكان المؤمنون يحتفلون سنوياً بذكرى استشهاد هؤلاء الأبطال، فيستمدون من ذلك القوة؛ لاسيما أن هؤلاء كانوا نماذج حية للشجاعة والاستشهاد. قامت إحدى النسوة المؤمنات من الجماعة المسيحية بتبني طفلة فيليستاس وتربيتها مع أطفالها. وعندما شبت هذه الطفلة تعرفت بحقيقة والدتها وبإيمانها بالمسيح الذي لم تنكره حتى الاستشهاد. كذلك عرفت هذه الابنة الشابة أنها تستطيع أن ترى والدتها يوماً ما وستتعرف بها، مع أنها لم تعرفها في الحياة الدنيا. هناك في السماء ستبقى معها، حيث لن يكون دموع أو أحزان، أو فراق بين الأحبة. أما ابن بربيتوا، فلا نعلم ماذا حصل له، لكن ربما عاش مع جده كوثني، وربما بقي مع خاله واعتنق المسيحية.

كذلك لا نعرف شيئاً مؤكداً عن زوج بربيتوا. فمن الممكن ألا يكون له مكان في هذه القصة، لأنه قد تكون بربيتوا قد تزوجته رغماً عن إرادتها وهو لا يأبه إلا قليلاً لزوجته ولإيمانها. وهكذا قد يكون تخلى عنها في ساعة محنتها وحاجتها إليه. ثمة احتمال آخر، وهو أن يكون هذا الزوج من الذين سجنوا أيضاً معها. فعند سماع ساتوروس بإلقاء القبض على بربيتوا، نرى أنه قد أسلم نفسه طوعاً إلى السلطات الحاكمة. وفي الرؤيا، رأت بربيتوا ساتوروس ينتظرها في رأس السلم ليدخلا معاً إلى الجنة وهي بصحبته وإلى جانبه. ولم يكن هذان المؤمنان ليفترقا أبداً. لذلك، فالاحتمال هو أن يكون ساتوروس زوجها. فالمسيحي الذي يمكنه أن يحظى بحب امرأة عظيمة كبربيتوا، لا يمكن أن يكون من الذين يخافون الخطر ويهربون منه. فلا بد لمثل هذا الإنسان أن يعلن إيمانه ويعيش هذا الإيمان، وأن يموت في سبيله شهيداً إذا ما اقتضت الحاجة إلى ذلك. فمثل هذا البطل لا بد أن يقف بجانب زوجته، في المدرج الروماني، أو في الجبال، أو في الصحاري، أو بعيداً داخل الوطن، وفي

كل الظروف والأحوال. كان هناك الكثير من مثل هؤلاء الرجال الأشداء في إفريقيا الشمالية إبان تلك الحقبة من الزمن.

أما فيما يتعلق بالإمبراطورية الرومانية فقد أدت سياستها العقيمة المشهورة إلى نتائج عكسية ظهرت واضحة أمام الملإ جميعاً: قبل المسيحي المؤمن هذا التحدي الكبير، وهكذا ربح المعركة. والآن عرف أهل قرطاجة أن المسيحيين لا يهابون الموت وأن استعمال القوة معهم لا يجدي نفعاً. لقد ثبت ستة أبطال من الرجال والنساء بإيمان راسخ بقوة مسيحهم ومخلصهم، ولم يرضخوا في يوم من الأيام للتهديد والقسوة ولا خضعوا للطغيان الروماني. وهكذا نجد الناس يتحدثون في كل مكان عما رأوه وسمعوه متسائلين: ماذا تعني هذه الظاهرة؟ ما هو هذا التعليم الذي يستحق أن يموت الناس لأجله؟ لقد ظهر بوضوح لأولئك المتسائلين، أن هذا التعليم الجديد يمنح قوة غير مألوفة تستطيع أن تنزع من قلب المؤمن كل خوف من الموت. كما أنه يملأ معتنقيه فرحاً – فرحاً يصعب التعبير عنه ويقيناً غير محدود يصعب تفسيره. لكن ماذا يلي ذلك؟ كانت المدينة الإفريقية العظيمة تنتظر بترقب، متسائلة ما هو جوهر هذا الإيمان المسيحي الذي لا نظير له.

ملاحظة: هذه قصة واقعية أخذت تفاصيلها من وثائق كتبت في زمن وقوع الأحداث. من الممكن الحصول على ترجمة إنكليزية للقصة المعاصرة في:

ed. Roberts & Donaldson The Ante_Nicene Fathers Series Vol. III pp. 697_706.

الفصل الثاني

الانفتاح على العالم المتحضر

كانت قرطاجة موجودة قبل واقعة بريتوا بألف سـنة، واستمرت ناشـطة خلال هذه الحقبة من الزمن. ويشكل أولئك الناس الذين أقاموا في المدينـة العظيمة، مجموعة أقوام مختلفـة متنوعة، وجدوا طريقهم إليها من الشـمال والجنوب، ومن الشرق والغرب. بعضهم جاء من البحر وتزوج من فتيـات القوم الذين كانوا يقطنون في تلك الديار منذ آلاف السـنين، ويرعون قطعانهم ومواشيهم في السهول الساحلية. ونزل بعضهم الآخر تدريجياً من جبال الأطلـس والريف، مدفوعين بنزاعاتهـم أو طموحهم إلى الأفضل. آخرون منهم سافروا شـمالاً على طول طريق القوافل الصحراوية التجارية. وحينما بلغوا مدينة قرطاجة لم يستطيعوا أن يذهبوا أكثر من ذلك، لأن هذه المدينة هي الحد الأقصى والتخوم الأبعد على امتداد البحر الأبيض المتوسـط، حيث لا يمكن تعديه، أو السفر لأبعد منه. لقد تزامل البحار مع المزارع، وترافق أحد أعيـان المدينة مع العبد، والإفريقي مع الأوروبـي، فاختلط هؤلاء الأقوام، بعضهـم ببعض إلى حد كبير، في الشـوارع الضيقة، مـن المدينة القديمة، ومزجـوا لهجاتهم المحلية وبضائعهم في أسـواقها. وقد ارتفع سـكان هذه المدينة في القرن الثالث الميلادي إلى 100000 نسمة.

وعندما أسـس الفينيقيون الأشداء قرطاجة، استخدموها كمركز تجاري صغير لهم، وقد وصلوا إلى هذه البقعة من شـرقي البحر الأبيض المتوسط نحو سـنة ألف قبل الميلاد. ولكن الفينيقيين لم يكونوا أول من سـكن في محاذاة هذه المنطقة السـاحلية، فقد وصف الكتـاب الأوائل الأفارقة بأنهم من الأمازيغيين (Imazighen) أو البرابرة، الذين قابلهم الفينيقيون عندما اندفعوا بمراكبهم الغريبة إلى السـواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسـط. وكان معظمهـم مـن البـدو الرحل الذيـن امتهنـوا تربية المواشـي والأغنام والماعز، وهم يعيشـون في خيم ينتقلون من مكان إلى آخر حسـب المواسم، ويقيـم بعضهم الآخر إقامة ثابتة دائمة في الوديان النجدية وهم يعيشـون

فـــي أكواخ عبارة عن جدران أو أســـوار من الطين أو الحجارة. ويعتنون بشـــجر الزيتون ويســـتغلونه. ويربـــون الدواجن. ويبذرون حبوب الحنطة والشـــعير في حقول صغيرة. أما نساؤهن. فكن يحكن الثياب. ويصنعن الخزف. بينما يعمل الرجـــال بأعمال الحجارة والأخشـــاب. صانعين منها أنواعـــاً عديدة من الأدوات التـــي قد يحتاجون إليها في حياتهم اليومية. كانت المعادن نادرة الوجود ولم يكونوا يعرفون النقد بعد.

كان الغـــذاء الرئيـــس المتوفر لديهـــم. وهو عبارة عن ســـميد مصنوع من الحنطة والشـــعير المجروش. يعرف باســـم كسكســـو (Couscous). وكانوا يلبســـون رداءاً طويلاً مزيناً بشريط أحمر. وفي الصقيع. كانوا يلبسون برانس مقلنســـة من الصوف. وكانوا يحبون الجوهرات ويهندمون لحاهم وشعورهم ببراعة وإتقان. وكانوا يشتهرون ببنيتهم الجسدية القوية. وبطول أعمارهم.

تعيش المجموعات العشـــائرية مع بعضها تحت مراقبة الجد الأكبر أو العم الأرشـــد وعنايته. وتشـــترك في امتلاك الأراضي. وكانـــوا يبنون قراهم بجانب الوديان. حتى يتمكنوا من حماية أنفسهم بسهولة من الأعداء وقت الحاجة. وقد شـــكلوا اتحاداً من العشـــائر والقبائل للحماية المشـــتركة المتبادلة. وفي بعض الأحيان للمشاركة في العدوان. وتقود مثل هذه الاتحادات الكونفدرالية عادة. جمعية تتألف من رؤســـاء العشـــائر. ويمكن لرجل مشـــهور بشجاعته العسكرية أن يوحد العشائر. ويكون شيخاً لها أو حتى ملكاً لبعض الوقت. وذلك في وقت الاضطرابات أو القلاقل.

لم يتهجم الفينيقيون على أراضي هؤلاء الأفارقة الأصليين. وإنما اقتنعوا ببساطة. بأن ينشئوا مستعمراتهم أو مستوطناتهم الصغيرة بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المتوســـط وكان الفينيقيون قد أنشئوا لهم قاعدة رئيسة في قرطاجة بين الأعوام 700-800 قبل الميلاد. واســـتمروا في بناء المستوطنات باتجاه الغرب. وأقاموا لهم مستودعات ومخازن ومراكز تجارية بمحاذاة الساحل عبر جبل طارق مروراً بالســـاحل الأطلسي المغربي. وامتدوا إلى ما ندعوه الآن العرائش والصويرة. كان الفينيقيون رحالة ومسافرين عظماء. وقد احتفظوا

لهم بخطوط اتصال بحرية من وإلى كل مكان معروف في العالم آنذاك. من الأطلسـي وحتى البحر الأسود امتداداً إلى القنال الإنكليزي.

إلا أن هذه الشـــبكة التجارية الواسعة المديدة لم يكتب لها البقاء. فقد كان الفينيقيون يلحظون. ســـنة بعـــد أخرى. كيف أن بلادهـــم الأصلية. في الطرف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. تتعرض لقوى عسكرية ساحقة معاديـــة تهددهـــم. وبخاصة من الإمبراطورية الآشـــورية. ولقـــد أجهز أخيراً. القائـــد اليوناني العظيم «الاسكندر» على العاصمـــة الفينيقية «صور» التي ســـقطت في القرن الرابع قبل الميلاد. وقد وجدوا أن جذورهم الشـــرقية قـــد انتزعت بالقوة. اختار المغامرون المســـتوطنون بمحاذاة الســـاحل الإفريقي البقاء هناك. وبناء مســـتقبل جديد لهم فـــي وطنهم المتبنى. وعرفوا عندها باسم «القرطاجيين».

والفينيقيـــون. أو القرطاجيـــون. كما دعـــوا فيما بعد .يبـــدو أن قطعهم لعلاقاتهـــم بوطنهم. أعطاهم زخماً جديداً. وذلـــك على مدى الثمانية قرون اللاحقة. وهكذا تطور القرطاجيون الدؤوبون على العمل وأنشئوا إمبراطورية كبيـــرة هيمنت على جـــزء كبير من البحر الأبيض المتوســـط. وســـببت قلقاً شـــديداً لا يســـتهان به لمنافســـيها عبر البحار المتمثلين بروما. كان القائد القرطاجـــي الموهـــوب هنيبعـــل علـــى أهبـــة احتلال مدينـــة رومـــا. عاصمة الإمبراطورية الرومانية. ففي العام 219 قبل الميلاد. بدأ هنيبعل بعبوره جبال الألب بإسبانيا. في حملة عسكرية نقل خلالها 73 فيلاً قتالياً. ولكن الفيلة ماتت. وكذلك مـــات الكثير من رجاله. وبقي هنيبعل ينتظر وصول الإمدادات العسكرية التي لم تصله. لذا فقد باءت حملته هذه بالفشل. وكان سقوط هذا القائد. كسقوط قرطاجة نفسها التي احتلها الرومان بعدئذ.

والحقيقـــة أن القرطاجيين لم يحاولوا قط مهاجمة إفريقيا الشـــمالية. أو حكمها بالقوة. وببســـاطة. فقد نظروا إلى القارة الجنوبية الكبيرة وكأنها مصدر من مصادر المواد الخام. وحيثما وجدوا رجالاً. يستخدمونهم للقتال في حملاتهم العسكرية في أماكن أخرى. وقد أنشأوا مراكز خارجية. إلا أنها لم

تكن أكثر من أسواق تجارية محاطة بضياع واسعة لإنتاج زيت الزيتون والحنطة والعنب. ولكن هذا الاستيطان الذي أسسه القرطاجيون، لم يكن كافياً لحمايتهم من أي هجوم عسكري حقيقي قد يتعرضون له. لذا اعتمدوا على بناء علاقات أخوية وثيقة بالأمازيغيين، وأوجدوا لهم علاقات تجارية تربطهم وجيرانهم. كانت هذه العلاقات، لمصلحة كل من القرطاجيين والأمازيغيين على حد سواء. ولتقوية هذه الروابط، فقد تزاوج سكان الجاران بعضهم مع بعض، وقام القرطاجيون بتعليم الأمازيغيين لغة فينيقية خاصة بهم تدعى البونية (Punique). وقدموا لهم شعارهم الديني الوثني. وجرت مقايضة بين الفينيقيين من جهة، والرعاة والمزارعين المحليين من جهة أخرى: جلبوا لهؤلاء الأفارقة البضاعة المعدنية المشغولة يدوياً، والزجاجيات، والثياب الملونة المصبوغة، من أطراف العالم المحيط بأطراف البحر الأبيض المتوسط. وقايضوا بضائعهم هذه بالصوف والأحصنة وزيوت الزيتون والعاج الإفريقي، فضلاً عن العبيد. وريش النعام الذي مصدره تجار الصحراء. قدم القرطاجيون للأمازيغيين أشجاراً جديدة لم يكن هؤلاء يعرفونها من قبل، كالتين والكروم والرمان، وعلموهم كيفية غرسها والاعتناء بها. إن الزراعة الواسعة النطاق التي أدخلها القرطاجيون إلى إفريقيا، كانت ابتكاراً جديداً بالنسبة إلى الأفارقة الذين كان عملهم حتى ذلك الحين، محصوراً في تربية الأغنام والأبقار، وتوفير حاجيات عائلاتهم من البساتين والحقول الصغيرة. وافق الأمازيغيون فرحين مسرورين على أن تستعمل أراضيهم بتلك الطرائق. وبالطبع فقد استفادوا كثيراً من الأسواق الجديدة التي فتحت أمام إنتاجاتهم الغذائية والحيوانية. وليس من شك في أن التغيير الكبير الذي طرأ على غذائهم وأطعمتهم والعدد المعدنية والبضائع المشغولة يدوياً التي زودهم بها القرطاجيون، زادت من سرورهم وبهجتهم أيضاً، حيث كانت هذه جميعها تدل على ذوق رفيع وثقافة عالية. لقد شرع الأمازيغيون يلبسون الأزياء الأرجوانية، والمجوهرات الثقيلة التي يستعملها القرطاجيون عادة، كما تعلموا استخدام لغتهم أيضاً.

ولكن هذا لم يدم إلى الأبد، لأنه، على الرغم من أنه كان للقرطاجيين

أصدقاء في إفريقيا، فقد كان لهم أعداء أقوياء أيضاً في مناطق أخرى من العالم. فالرومان صعقوا بالنجاحات السريعة المؤقتة التي حققها هنيبعل، جنرال قرطاجة. لذلك ففي القرن الثاني قبل الميلاد، زحفت الجيوش الرومانية، وشارفت أبواب قرطاجة، ولم تمض فترة قصيرة حتى سقطت مدينة قرطاجة، واستسلمت لمهاجميها في العام 146 قبل الميلاد.

كان الهدف الأهم من دخول الرومان إلى إفريقيا الشمالية هو تدمير قوة منافسهم الأول في البحر الأبيض المتوسط، والعودة إلى ديارهم بعد تحقيق هذا الحدث الهام. ولكن لسبب لم يتمكنوا من تجنبه، وجدوا أنفسهم وقد تورطوا في نوع من الاتحاد الجديد مع القادة الأمازيغيين، الذين أسرعوا بدورهم إلى تشكيل صلات وروابط مع الوافدين الجدد، كتلك الروابط التي كانت تربطهم بأسلافهم من القرطاجيين. وهكذا بدأ الرومان يعون أهمية الطاقات الكامنة في إفريقيا، فراحوا يطوعون مرتزقتها لدى القوى العسكرية المرابطة آنذاك على الحدود الأخرى للإمبراطورية، والتي كانت في حاجة إلى إمدادات. فمنذ فترة، استعيض عن الجنود الرومانيين بالإداريين، لوضع المخططات المطلوبة لاستعمار إفريقيا الشمالية، فبدأ المستعمرون يأتون من الأجزاء الأخرى للإمبراطورية، ولم يكن معظم الوافدين من إيطاليا نفسها، بل كانوا من الغاليين والإسبانيين والدلماطيين والسوريين واليهود الذين أضافوا دماءهم وعاداتهم إلى الخليط الموجود قبلاً في مدينة قرطاجة. وتكلم هذا الخليط من الناس اللغة اللاتينية واليونانية من دون أن يتكلموا البونية.

كان الرومان من أعظم الإداريين في عصرهم وأبرعهم. فإذا قرروا يوماً أن يقيموا في بلد ما، كانوا يشرعون بنشر تنظيمات إدارية مناسبة. وعليه، فقد بدأوا بتنظيم مقاطعة إفريقيا الشمالية، بكل نشاط. وقد نظروا إلى إفريقيا أولاً على أنها مصدر جيد للطعام والغذاء، وساورهم القلق، كما هي عادتهم دائماً، على كيفية تغطية احتياجاتهم للخبز، وذلك طبعاً بسبب اتساع الإمبراطورية وازدياد احتياجاتها. لذلك، قامت السلطات الرومانية باقتلاع أعداد كبيرة من أشجار الزيتون، وزرعت مكانها الحنطة والشعير.

وكذلك قطعت من أشجار الغابات الموجودة بمحاذاة الأنهار أو البحار التي تمكنهم من شحنها. وخلال فترة وجيزة، نظم الرومان أعمال ري واسعة، وبنوا القنوات لمدن متعددة كقرطاجة وقيصرية (شرشال)، وشرعوا بتعبيد الطرقات بأسلوبهم المميز وهو استعمال البلاطات الضخمة التي كانوا قد استخرجوها من المقالع حديثاً.

في البادية، سمح الرومان للقادة والشيوخ المحليين الأمازيغيين أن يحكموا على ما كان تحت سيطرتهم من البلاد والناس. والقادة الأمازيغيين والقرطاجيين الذين قدموا الطاعة والولاء للإمبراطور الروماني، فقد منحوا وبسرعة، منزلة خاصة، باعتبارهم مواطنين رومانيين: فاستفاد هؤلاء من وضعهم الجديد هذا. وهكذا، وبسرور لا يوصف، وجد هؤلاء القادة والرؤساء الأمازيغيون والقرطاجيون أنهم قادرون على أن يتبوأوا مناصب عليا رفيعة في السياسة وفي الهيئات أو السلطات الاجتماعية الأخرى في المدن التي جرى تطويرها وإنماؤها حديثاً. وقد أصبح العديد من الأفارقة قادة في الجيش الإمبراطوري. وفي سنة 190 ق.م صار ما يقارب ثلث المجلس الذي يحكم الإمبراطورية من روما، مشكلاً من أعضاء إفريقي الأصل. وهكذا انتخب أحد الأمازيغيين المدعو سبتيميوس سفيروس (Septime Sévère.) إمبراطوراً لروما في وقت مبكر من عام 193 قبل الميلاد. هذا لأن التعيينات الإدارية في روما كانت تبنى على أساس الاستحقاق والكفاءة. كان بإمكان أحد الأمازيغيين الذي أصبح حاكماً في روما أن يكتب باعتزاز واضح: «في رأيي، إن عصرنا البشري مميز، وكأنما قدر له أن يكون كذلك، لأنه أنتج أناساً كثيرين ذوي قدرات عالية، وهو يرى أن الأطفال الذين أنجبهم ورباهم يتبوأون أعلى المراكز وأرفعها:

أما أولئك الذين لم ينجحوا في مواكبة الركب الإمبراطوري، فقد كانوا غير متحمسين للإمبراطورية. وبما أن المسئولين الإمبراطوريين، كان همهم الأساسي السعي وراء تنسيق ما يختص بتنظيمات الأراضي الزراعية، وفرض الضرائب عليها، الأمر الذي لم يفلح القرطاجيون في إنجازه. فقد اعترض عليهم عموم الشعب الذين كانوا يأملون، ربما، بالحصول على أرباح أكبر بعد

أن تغير شركاؤهم التجاريون. لكن ذلك لم يحصل، بل اكتشف الشعب أن الرومان كانوا أكثر رغبة في السيطرة على الأراضي مما كان عليه أسلافهم القرطاجيون. فالقرطاجيون مثلاً، كانوا يدفعون الإيجارات المستحقة عموماً على الأراضي التي يستغلونها. أما الآن، ومع استمرار تقدم زراعة الحنطة وتقلص المراعي، فقد خسرت بعض القبائل أراضي الكلأ التقليدية التي كانوا يستغلونها لرعي قطعانهم. واستولى عليها الرومان لتحويلها إلى مزارع الحنطة والشعير وغيرها. وهنا، فضل الكثير من الرجال الأمازيغيين اختيار العمل كأجراء؛ أما بعضهم الآخر، فقد انتقل مع قطعانه إلى أراضٍ داخلية بعيدة ومرتفعة، وهي بالطبع أقل خصوبة وكلأ. وبذلك فقد أصبح مستقبل الشعب مشكوك في أمره وغامض النتائج، لا اعتماد عليه.

وما إن حل القرن الأول للميلاد، حتى شرع الرومان بتقسيم الحزام الساحلي إلى خمس مقاطعات، وبطريقة سائبة وعشوائية. وكان هذا التقسيم العشوائي السائب يتلاءم، في الواقع، كثيراً مع تنظيمات إدارتهم الحكومية. فمثلاً، امتدت مقاطعة كورينيكيا باتجاه الغرب وبمحاذاة الساحل من مصر إلى ليبيا الحديثة. وإذا توغلنا إلى أبعد من ذلك لجهة الغرب، نجد أن مقاطعة إفريقيا البروقنصلية التي دعيت فيما بعد تريبوليتانيا، تطوق الساحل الذي يدعى الآن خليج سرت. كان هذا مقر الإدارة الرومانية في شمالي إفريقيا والمتمركزة في عاصمتها، قرطاجة، بالقرب من مدينة تونس حالياً. وإذا استمررنا بالتوغل غرباً، فإننا نجد نوميديا وبعدها موريتانيا قيصريانسيس (أي الجزائر حالياً)، ومن ثم موريتانيا تنجيتانا والتي تستمر نزولاً حتى الساحل الأطلسي إلى أن نصل إلى سلا (بالقرب من الرباط). إن المدينة الداخلية فولوبيليس (وليلي) في شمال المغرب، ليست بعيدة عن مكناس في الوقت الحاضر. وقد تطورت بالتدريج حتى أصبحت عاصمة المنطقة الغربية لحين حلول القرن الرابع الميلادي. وعندما أدت فوضى الاضطرابات إلى اضطرار الإدارة الرومانية إلى سحب مراكزها القيادية والإدارية إلى طنجة.

عرفت السهول والجبال الداخلية التي كانت سائبة تقريباً، ولا حكومة فيها، باسم أراضي الجيتوليين أو الموريين (Maures . Gétules) وكان

يحكمها شيوخ القبائل. وقد حكم الشيخ الأمازيغي المدعو يوغرتا (أو يوكرتن) (Jugurtha) (عام 154 – 104 قبل الميلاد) المنطقة حكماً صارماً لا رحمة فيه ولا شفقة، وذلك حتى يتمكن من بسط نفوذه، ومد سيطرته على كل المنطقة التي توجد تحت نفوذ قرطاجة. وفي حدود العام 25 ق.م، كانت المنطقة الممتدة إلى الغرب تحكم من المدعو يوبا الثاني، وهو رجل أمازيغي متزوج من امرأة مصرية تدعى سيلينا (Célène)، وهي ابنة أنطونيو وكليوبترا. وقد شب جوبا في روما، وتفوق في دراسته. وقدم خلال ملكه الذي دام 48 سنة، مظاهر عديدة للحضارتين الرومانية واليونانية في إفريقيا الشمالية. ذاق الأمازيغيون حلاوة التجارة وتقنية الصناعات اليدوية لحضارات البحر الأبيض المتوسط، وسروا كثيراً بحراثة الأراضي وجني المحاصيل والحصادات المتنوعة التي مارسوها. وقد أدى الاستقرار الذي فرضته الإمبراطورية الرومانية في المنطقة إلى تمكن مزارعي إفريقيا الشمالية وصناعها اليدويين من أن يوردوا إلى الأسواق البعيدة الواقعة في أقصى أجزاء الإمبراطورية. وهكذا نعمت بلادهم بالسلام، وحالفهم النجاح والرخاء الاقتصادي بسبب المعاهدات التي عقدوها، والارتباطات الدولية التي حصلوا عليها. لكنهم، في الوقت نفسه، أعطوا صورة غير مشرفة عن المجتمع الروماني المتهرئ آنذاك، حيث أن هذا المجتمع كان يمارس الأعمال الوحشية والفظة في الملاعب والميادين، وقد ترسّخت جذور العبودية المذلة، فضلاً عن الوثنية الفاسدة الفاسقة. وبالإضافة إلى هذا، فإن الرومان قد حكموا البلاد بشكل فعال ومشدد، لكنهم لم يهتموا، إلا قليلاً، بحاجيات أفراد الشعب ومشاعرهم.

وهكذا نرى، أن إفريقيا الشمالية، كانت في السنوات الأولى للميلاد، مزيجاً مختلفاً من الناس، لهم لغات وثقافات متنوعة. وقد اجتذب هذا الواقع مستوطني الأرض الذين توافدوا عن رضا، ليندمجوا في هذا الاتجاه السائد لحضارة البحر الأبيض المتوسط. فتبنوا بسهولة وحماس الأفكار الجديدة للتقنية التي صادفتهم هناك. وهكذا صارت الحقول جاهزة، بانتظار حلول الحدث الجديد والأهم، حيث تبشر السنوات القليلة القادمة بالدخول

في عصر جديد وهام، وهو قدوم أشياء لم تعهدها إفريقيا الشمالية من قبل.

جاء الفينيقيون والرومان في السنوات السالفة إلى المنطقة، طمعاً في التجارة والاستيطان، وحباً بالنجاح والثراء ... ولكن، من خلف الأفق الشرقي تحديداً، بدأ بعض المسافرين الأفذاذ يبحرون إلى كوريني وقرطاجة. كانت حوافز هؤلاء المسافرين تختلف تماماً عن غيرهم من الوافدين؛ لم يكونوا يرغبون في الاستغلال الزراعي أو استثمار الموارد المعدنية للأرض. لم يأتوا ليتاجروا مع المستوطنين، وبالتأكيد، لم يأتوا ليستأثروا بالسلطة. لم يحملوا معهم السلاح أو العتاد، ولا الغنى. لم يأتوا بشيء مما تقدم، جاءوا برسالة الأخوة والأمل والطمأنينة. وهؤلاء القوم اختارت بربيتوا أن تسير معهم وأن تنضم إليهم، ومعهم فقط، استعدت لتلقي رحالها، وتسلم حياتها.

ملاحظات:

من المصادر الثانوية عما قبل تاريخ إفريقيا الشمالية وعن تاريخها القديم نذكر:

Camps pp. 86 – 119, 145 – 177; Frend pp. 25 – 47; Guernier pp. 51-82

الفصل الثالث

البحث عن الله

منذ العصور الغابرة، أظهر أهالي إفريقيا الشمالية اهتماماً في الأمور الدينية العميقة والصعبة الإدراك. وبالطبع، فإن هناك شيئاً عالمياً عاماً، تشترك فيه الطبائع البشرية، ألا وهو الرغبة في الوصول إلى حل ألغاز هذا الكون، وأسراره غير المرئية، والتي تتشارك فيها جميع قارات العالم وتؤمن بها كل الأجيال. وكلما اقترب الناس بعيشهم من العالم الطبيعي، اشتدت رغبتهم في التواصل مع هذه القوى الخارقة الموجودة في الخليقة. والواقع أن الإلحاد استطاع أن ينمو ويزدهر في القرن العشرين فقط، حيث المدن الكبيرة التي أوجدها الإنسان بنفسه. فقد أحاط إنسان هذا القرن نفسه بأعمال يديه، ولم يعد لديه متسع من الوقت ليتأمل فيما هو أعظم من منجزاته من أمور مدهشة يحاول فهمها.

وكسائر الناس الذين يقضون أوقاتهم في الحقول أو الغابات، فإن الأمازيغيين القدامى، في العصر الحجري الحديث والعصر الحديدي، لابد أن تكون قد روعتهم القوى الظاهرة المدركة في الطبيعة. ولاشك في أنهم شعروا في قلوبهم بالمشاعر نفسها التي نحسها نحن ونشعر بها عندما نستيقظ في الصباح ونلقي نظرة على قمم الجبال المكللة بالثلوج تحت أشعة الشمس المشرقة الصافية. لقد امتلأ الأمازيغيون رعباً، كما نحن، بسبب القوى العنيفة الهائجة التي لا يمكن مقاومتها وهي تجرف الأشياء بقوة بعد كل عاصفة، إذ تكتسح الأشجار والصخور أمامها، وتلقيها أرضاً وكأنها عصافة في مهبها. لقد افتتن هؤلاء وسحروا أيضاً، بهياج البحار، وبأمواجها الصاخبة على السواحل الصخرية، وكذلك باندفاع طيور البحر وهي تنساق بسرعة فائقة خلال هبوب الرياح الغربية. لقد أدهشهم غروب الشمس وهي تصقل لونها الذهبي المتحول تدريجياً إلى اللون الأحمر، لكي يختفي بعيداً وراء التلال الرمادية، في آخر النهار.

والطبيعة أيضاً مليئة بالخوف والرعب، فهي تحمل لهم قوى الحياة والموت. فإذا لم يتساقط المطر، يفسد الحصاد وتموت الغلة، وهذا يعني المجاعة. وإذا

ما تفشت الأمراض في قطعان الماشية، فسيترصد الموت الناس أنفسهم، إذ أنهم يعتمدون على هذه الماشية لتأمين معيشتهم. فلا ينجو إلا القليل من أطفالهم إبان طفولتهم. فإن قدر أن يعيش واحد من أطفالهم، ويموت الآخر، فيكون قدراً مبهماً ومخيفاً. فهل هناك طريقة ما يمكن من خلالها أن نؤثر في حوادث المستقبل؟ هل يمكننا أن نتجنب الكوارث والنكبات، أو أن نؤكد استمرار الحياة؟ هل هناك قوى خفية غير منظورة تتحكم في مجريات الأمور؟ وهل يمكن استرضاء هذه القوى ومناصرتها؟ هل يمكن لهذه القوى أن تساعدنا في صراعاتنا مع الحياة؟.

ليس من السهل أن نعود القهقرى لأربعة آلاف سنة غابرة، لندرك ما كان يفكر فيه أسلافنا، وما اعتقدوه في الحياة والموت؛ أو لنستطيع أن نتصور كيف حاولوا تفسير أسرار هذه الدنيا والطبيعة في ما يتعلق بهم، وما تزخر به من أشياء محيرة مربكة، خصوصاً إذا ما علمنا أنه لم يكن لهم سبب واحد يحملهم على تدوين ما يختص باقتناعاتهم العميقة، وتأملاتهم الخفية الغامضة. ولكن بإمكاننا أن نمسك بالمفتاح الذي يزودنا ببعض المعلومات فيما يتعلق بمعتقداتهم، وذلك من صناعاتهم ومنتجاتهم التي يكتشفها علماء الآثار هنا وهناك، كالأصنام والمذابح والحجارة المنقوشة والملونة، أو أي شيء آخر يعطينا مغزىً حقيقياً لدين معين. وهذا، وإن لم يكتب الأقدمون شيئاً، فبإمكاننا أن نجد المراجع بخصوصهم، من خلال كتابات غيرهم، ومن عرفهم من الناس، لاسيما أولئك الذين يبادلونهم في التجارة، أو يحاربونهم. أحياناً يمكننا أن نميز أشياء كثيرة عن معتقداتهم، من خلال العادات والتقاليد التي لا تزال حتى اليوم. وإذا تأملنا في ديانة الأمازيغيين نجد، ولحسن الحظ، بعض المفاتيح لفك لغزها بواسطة الأساليب الثلاث السالفة الذكر.

هناك شواهد وإثباتات تدل على أنهم تطلعوا بشكل خاص إلى السماء، مسكن الشمس بنورها ودفئها، ومصدر المطر المحيي – والسماء بطبيعتها مليئة بالعجائب والروائع – وإلى النجوم المشرقة بلمعانها ليلاً، والقمر الذي يضيء بنعومة ورقة، والألوان السحرية لقوس القزح الذي ينشق متلألئاً من بين الغيوم بعد سكون العاصفة، وكتل الثلج البيضاء الصامتة التي تنساق

بغموض إلى الأرض، والوميض المروع الذي يبعثه البرق، والتهديد المدمدم في قصف الرعد المزمجر. فليس عجيباً أن تنشر السماء الرعب والخوف والعبادة في نفوسهم. وكثيراً ما نجد نقوشاً تمثل الشمس في حجرات الموتى وأقبيتهم، وحتى على الصخور القائمة. وفي بعض الأحيان، يعبر القدماء عن إله الشمس بشكل أسد، شعر عنقه ملتهب ومتقد اتقاداً. وكان هذا الحيوان معروفاً عند الأفارقة الشماليين قبل أزمنة الرومان وبعدها. وهو لايزال يظهر مراراً وتكراراً في حكاياتهم الشعبية. وتشير نقوشهم المحفورة، وكلماتهم المنقوشة، إلى الإله «أيور» (Ayyur) أي القمر، بلغة الأمازيغيين.

استمرت عبادة الأجرام السماوية خلال أزمنة التاريخ. فقد كتب لنا هيرودوتس (Hérodote) في القرن الخامس قبل الميلاد، أن الأمازيغيين، قربوا في أيامه التقدمات لكل من الشمس والقمر. أما بليني الكبير (Pline l'Ancien)، فقد أكد لنا تقديم مثل هذه الذبائح في القرن الأول للميلاد. قال شيشرون (Cicéron) إنه عندما قابل الملك الأمازيغي ماسينيسا (أو ماسنيسن) الجنرال الروماني سكيبيو (Scipion) في القرن الثاني قبل الميلاد، صلى إلى الشمس قائلاً لها: «إني أقدم شكري العميق لك أيتها الشمس المرتفعة ولسائر الآلهة أيضاً في السماء، بسبب إتاحة الفرصة لي، وقبل انتقالي من هذه الحياة، أن أرى في مملكتي وتحت سقف بيتي كرنيليوس سكيبيو».[1] أما ابن خلدون فقد ذكر أن الكثير من الأمازيغيين في القرن الرابع عشر بعد الميلاد، كانوا لا يزالون يتعبدون للشمس والقمر والنجوم.

وتتحدث السماء عن أسرار لا يمكن الوصول إليها. وكما فعل الإنسان، بتوجهه نحو السماء، هكذا أيضاً فعلت قمم جبال الأطلس التي نحتتها الرياح. ومن الممكن أن يكون هذا هو السبب الذي جعل قمم الجبال تدفع الأفارقة الشماليين إلى العبادة. ويخبرنا بليني الكبير «أن الليبيين يعتبرون الأطلس إلهاً ومعبداً». ولقد وجد علماء الآثار في الأمكنة العالية بقايا المعابد الرومانية، وهي مكرسة لخدمة ساتورن (زحل) وعبادته. فقد بنيت هذه المعابد، في الواقع، على أنقاض مزارات الفينيقيين، والتي كانت قد شيدت

1- اقتبسها Camps p 200

هي أيضاً من حجارة معابد وثنية قديمة. ولكن حتى قبل هذا التاريخ، وفي فترة العصر الحجري الحديث، كان الأمازيغيون ينقشون الرموز والصور على أعالي قمم جبال الأطلس والريف، وفي الكهوف والمغاور، وعلى الصخور التي تنذر مواقعها ومناظرها المشرئبة بالخوف؛ وكأنها تراقبهم، إما لمعاقبتهم وإما للترؤف عليهم.

هل كانت هذه المناطق الصخرية مهبطاً «لأرواح الأرض» التي كانت تدعى «جنون» (Jnun)؟ يظهر أن الأمر هو كذلك. ولاتزال، حتى يومنا هذا، تقدم تقدمات النذور والقرابين في أوان خزفية تشابه إلى حد كبير الأواني الفخارية لما قبل التاريخ، اكتشفها مؤخراً علماء الآثار؛ ولاتزال الشرائط تربط على الشجيرات الشائكة التي تستظل بها أرواح حرس الصخور التي كانت تعتبر مقدسة، وعلى الكهوف التي تأوي الأشباح، وعلى الينابيع، وعلى الأشجار القديمة الملتوية الكثيرة العقد والنتوءات والتحدبات. إن أعمال العبادة هذه هي الشهادة لإيمان ثابت بالأرواح المحلية، ويتضح تماماً أن هذا الإيمان مستمر ودائم منذ ما لا يقل عن أربعة آلاف سنة. كان ينبغي استعطاف الأرواح المحلية قبل الحراثة، أو قبل جني الأثمار، أو قبل قضاء ليلة في المنطقة التي تحرسها هذه الأرواح. فإن أزعجت أو أغضبت، فلا بد من أن يحدث لك المصاب ويأتيك البلاء، لأنك بهذا الإزعاج أو المضايقة أو الإغضاب، تكون قد خاطرت بالتعرض للعقاب المباشر، كالعقم أو العمى أو الجنون أو حتى الموت.

ونحن نعرف 52 اسماً من أسماء هذه الآلهة المحلية. ولقد تعرفنا بها بشكل واسع من النقوش والكتابات المحفورة، أو الوقف الذي أوقف لهم، أو التكريسات التي كرست لهم في عهد الفينيقيين والرومان. ومعظم تلك الآلهة تحمل أسماء أمازيغية تظهر أنها كانت أرواحاً قادرة على أن تأتي بالأمطار وتمنح الإخصاب؛ ولكن نفوذ كل من هذه الآلهة مقتصر على منطقته الصغيرة الخاصة به. فمثلاً نفوذ هذا الإله أو ذاك، يقتصر على تلته الخاصة، أو ينبوعه الخاص، أو حتى قريته الخاصة. كانت هذه الديانة هي الديانة النموذجية العملية للأمازيغيين القدماء، وهي شكل من أشكال مذهب حيوية المادة (Animisme) أو صيغة من صيغها، تتشابه إلى حد بعيد مع

مذاهب حيوية المادة الأخرى التي وجدت في أجزاء كثيرة من العالم.

كان على المسافر الذي ينتقل من مكان إلى آخر، وعلى التاجر أو الموسيقي أو الجندي، أن يرضي أي روح يراقب أي موضع يؤمه هؤلاء الرجال. فعلى المسافرين، وبالأخص أولئك الجنود الأمازيغيين المسجلين في الجيش الروماني، أن يعتنوا بطائفة من الآلهة المحلية بشكل جماعي. واسم هذه الآلهة داي مووري (Dei Mauri) أي الآلهة الموريين. وبعد ذلك يجب أن يتوسل إليها ويبجلها مجتمعة، لأنه بذلك يضمن لنفسه أنه لم ينس أياً منها. إن إحدى أكثر التكريسات التعبدية المعروفة والمتكررة، هي للإلهة وارسيسم أو فارسيسما (Varsissma). واسم هذه الإلهة يعني في الحقيقة «إله بلا اسم». والظاهر أنهم كانوا يتلهفون كثيراً في استرضاء هذا الإله، وجعله مسروراً، تماماً كما كان تلهف أهل أثينا لعبادة مثل هذا الإله في أيام الرسول بولس.[2]

ومن الصعب أن نعرف تماماً كيف كان يجري استرضاء هذه الآلهة المعبودة. ولكن رسوم الكهوف في العصر الحجري الحديث، تشير إلى أنهم كانوا يسترضونها بذبائح الكباش والثيران التي يقدمونها كفدية عنهم. ولكن، من المستحيل أن نعلم ما إذا كانت هذه الأضاحي أو الذبائح تقدم لآلهة معينة لا نعلم شيئاً عن أوصافها. ولايزال تقديم القرابين والذبائح الحيوانية موجوداً بين الأمازيغيين، وهذه الذبائح تختلف عن تلك التي يقدمها العرب في الشرق الأوسط، مع أنها تتشابه كثيراً مع قرابين الفينيقيين وأضاحيهم.

هذا ما كان يختص بالأحياء، ولكن الأمازيغيين لم يكن اهتمامهم بموتاهم يقل عن اهتمامهم بأحيائهم. كانوا يشيدون القبور من قطع الصخور، جاعلين هذه القبور تواجه الشمس. وكانوا يزودون موتاهم بالجوهرات والأوعية الخزفية، كما لو كان موتاهم سيحتاجون إلى استعمال هذه الأشياء في الحياة الآخرة. أما القبور الأخرى، فقد كانت تطمر وواجهاتها إلى الجرف، وتزين بالرسوم الملونة بصلصال أحمر. وتعود بداية تاريخ هذه القبور إلى العصور

2- (أعمال 17:32)

الحجرية. وقد استمرت حتى عهد الفينيقيين.

ويظهـر أن الديانـة العمليـة للأمازيغيـين لا تختلف إلا قليـلاً عن ديانة المتحدريـن مـن أصلهم الذين يقطنـون القرى في أيامنا. فمـن ذلك الوقت، وإلـى اليوم أيضاً، هناك اعتقاد قوي وفي كل مكان، بوجود قوى فوق طبيعية حاقـدة. ولاتزال الرغبة مسـتمرة في إيجاد الحمايـة والوقاية من هذه القوى. ولـم يجد الكثير من معتقدات الأفارقة الشـماليين وعاداتهم مكاناً لها في الديانة المسـيحية الصحيحة أو في الإسـلام. أما بقايا هذه المعتقدات التي مازالت موجودة، فهي قائمة منذ العصور القديمة.

ويتضمن اسـتعمال «السحر الأسود» الكثير من الممارسات، وهي ترتكز على افتراض أن الإنسـان قادر على كسـب النفوذ على غيره، سواء أكان ذلك على الإنسـان، أم على الحيوان، أم الأشـياء، وذلك بصنع نموذج للضحية التي يـراد إنجـاز طقس ما أو أي من الشـعائر ضدها. وبهذا تلـزم الضحية على أن تتصرف بطرق خاصة معينة حسـب ما تخطط لهـا، أو تكابد قدراً أو قضاءً معيناً. فمثلاً يمكن للمرء أن يربط عقدة في شريط أو في خصلة شعر لربط مخططـات الخصم وإحباطها، أو لإغـلاق رحم امرأة عدوة. كما يمكن أن يؤدي إقفال نصل سكين الجيب إلى عجز جنسي عند الشخص الذي يكتب اسمه على هذا النصل.

كذلك كان الاعتقاد أنه بالإمكان التأثير على مسـار الأحداث في العالم الخارجي وذلك من خلال ممارسـة طقـس محدد، كأن يصار إلـى ارتداء الثياب بالمقلـوب بقصـد تغيير ظرف معين. إن شـعائر الإخصاب الموسـمي تضمن إنتاجية مبدعة من المحاصيل والحصاد والقطعان. لقد تميزت السـنة الزراعية بإحياء احتفالات بحرث فسـها الشق الأول وجمع الحزمة الأولى من المحصول. كتب أغسـطينوس وغيره من المؤرخين المعاصرين عن إحياء طقوس جنسية عربيـدة متطرفة، «ليالي الخطايا»، لحـث آلهة أو أرواح الإخصاب، آملين منها أن تنفح نشاطاً مشابهاً بين القطعان والمواشي.

ظهرت العادات والخرافات المتعلقة بسقوط الأمطار تقريباً في كل الأراضي

شبه القاحلة بما في ذلك شمال إفريقيا، حيث تقوم النسوة بصنع دمى تمثل «عـروس المطر»، تماماً كما يفعل بعـض الناس في بعض مناطق اليوم. وثم تحمل هذه الدمى في موكب طقسـي مصحوب بأغاني ودعاءات والتماسات مرفوعة إلى السـماء[3]. ومن عادات أهالي جزر الخالدات أن يضربوا مياه المحيط بالعصي، وذلك محاولة منهم لإطلاق مياه السـماء. وقد دان أغسـطينوس هذه الممارسـة الوثنية القديمة، كما وبخ أولئك الذين يسـتحمون وهم عراة في يوم الانقلاب الشمسـي الصيفي، مؤججين بذلك شهوات مشاهديهم. وقد يبدو أن مثل هذه العادات قد ماتت، إلا أن الأرضيات وعتبات الأبواب مازالت ترش بالماء في مواسـم معينة، وغالباً ما لا ترش أكثر من رشة رمزية، إذ يبقى معظم الغبار غير ممسوس. هل المراد من هذه الرشة أن تبرد الأرض وتنعشها، أو هل لهذه العملية دلائل أكثر عمقاً؟

اعتقـد الكثيرون، منذ زمن الرومان إلى يومنا هذا، أن أقدارهم مسـجلة في النجوم. فهم يرجعون إلى المنجمين والعرافين ليقرأوا لهم مسـتقبلهم في السـموات، أو في أحشـاء الحيوانات، أو في علبة ورق اللعب. فهم يريدون أن يعرفـوا، ويريدون أن يسـألوا أيامـاً ميمونة لأعراسـهم أو لرحلاتهم. كما يريـدون أن يعرفوا هـل بإمكانهم التعامل مع أناس معينين أو تجنبهم، أو هل بإمكانهـم الذهاب إلـى أمكنة معينة أم لا. إنهم يتسـاءلون، وفي قلوبهم أمـل لا يسـتند إلى أي منطق، عمـا إذا كان بإمكانهم الهـروب من أقدارهم المحتومـة إذا كانت سـيئة، أو إنجـاز عمل مـا، إذا كانت هذه الأقدار حسـنة. فالخـوف من «العين الشـريرة» - اللعنـة التي يطلقها عدو حسـود – تعود إلى ما قبل العهد الروماني. والشـيء عينـه، ينطبق على الاعتقاد أن الأفراد، أو حتى الأشياء التي لا حياة فيها، يمكن أن تكون مستودعات للقوى الروحية أو «للبركة». لقد اسـتعملت المياسم الحديدية الملتهبة، كما اليوم، لشفاء أوجاع الرأس، ولمعالجة سوء التصرف كالإدمان على السكر والسرقة مثلاً.

وقد كان للرقم خمسة، ولرمز العين المفتوحة، وللرمانة المرسومة، معان معينة ومغزى سـحري، ونحن لانزال إلى اليوم نلمسـها ونراهـا في إفريقيا

3- Laoust pp 202-255.

الشمالية. هذه المعتقدات والرموز كلها كانت تتزامل مع الإلهة الفينيقية تانيت، التي تترافق بدورها مع القصد من وراء رسم اليد المفتوحة التي نشاهدها، بشكل كثيف، على الأبواب الخلفية للشاحنات، وهي ترسم أيضاً على عضادتي الباب (جانبي الباب)، كما تصنع ببراعة من الجوهرات، وهي تعرف عموماً باسم «يد فاطمة الزهراء» (ابنة محمد) أو «الخميسة». ورمز اليد المفتوحة غالباً ما يعتقد أنه مستورد من العرب، والحقيقة أنها أقدم من ذلك بكثير، إذ وجدت أيضاً في البقايا الفينيقية في قرطاجة، وفي أماكن أخرى [4]. كانت الضرائح والمواضع المقدسة في أزمنة الرومان تبيض بالكلس، ومازلنا حتى هذا اليوم نرى قبور رجالات المسلمين، من أولياء وأئمة، وهي مطلية بالكلس المطفأ، وكذلك على الصخور المفردة والمعزولة، والأشجار، وعلى عضادات الأبواب وأطر الشبابيك والبيوت. إن هذا التجصيص لا يعدو كونه بعض اللطخات على الجدران الخارجية للبيت. فهل المقصود أن يكون التجصيص لغرض التزيين فقط، أو أن لهذا العمل معنى آخر أو غرضاً آخر؟ إن الذين يمارسون مثل هذه العادات في أيامنا، غالباً ما يجهلون أية معاني كانت لها في الأصل.

لايزال الناس، وبخاصة النساء، يلبسون التعاويذ، كالعظام والصدف الأصفر، حيث يعتقدون أن مثل هذه التعاويذ تمنحهم الأمانة والضمانة ضد العفاريت أو الجن أو العيون الشريرة، وتبعد عنهم الحظ السيئ. لقد كتبت الرقيات السحرية على الأوراق وعلى العظام، وفي عدة أحيان كانوا يغسلون الحبر الذي استعمل في كتابة الرقية والتعويذة ويشربون الماء الممزوج بالحبر. وكذلك، ففي أحيان أخرى كانوا يدفنون الورقة أو يحرقونها في المكان الذي يتأكدون فيه أن الضحية المقصودة ستستنشق دخان هذه الأوراق المحروقة. وغالباً ما يصنعون أكياساً صغيرة من الجلد فيضعون فيها التعاويذ والحجاب أو أي شيء صغير فيه قوة سحرية، ثم يعلقون هذه الأكياس في رقابهم، أو مشكولة في صدورهم أو أي مكان آخر في أجسامهم. ثم راحوا لاحقاً يستعملون الآيات القرآنية ويكتبونها على تعاويذهم، أو يصفون رموزاً وكتابات عربية منظمة بعينات وأشكال سحرية، كما أنها ما زالت تكتب بالحروف التيفيناغية (Tifinagh) القديمة، بصيغتها المحرفة تماماً، مما يوحي

4- Moscati pp 180 – 179

لنا بأن أصل هذه الكتابات والتعاويذ يعود إلى ما قبل التاريخ الإسلامي[5]. وكان للنباتات الطبية آنذاك شعبية واسعة، لم تضعف حتى في أيامنا هذه. إنه ليس من السهل إطلاقاً، في بعض الأحيان، أن نرسم خطاً فاصلاً أو متميزاً بين العلاجات الشعبية وممارسات السحر الأسود في استعمال الأعشاب والمواد المعدنية والحيوانية[6].

هذه هي معتقدات الأمازيغيين القدماء والتي تتجذر في الماضي حسب ما نعلم، وصولاً ربما إلى العصر الحجري. وهي من بعض جوانبها مستمرة حتى وقتنا الحاضر. إلى ذلك، فإن بعض الممارسات الأخرى قد فرضت نفسها خلال القرون التالية. لقد جلب الفينيقيون معهم، منذ العام 1000 قبل الميلاد وإلى ما بعده، بضائعهم التجارية ومحاصيلهم، ومجموعة من الآلهة الجديدة إلى إفريقيا الشمالية. وقد تبنى أهالي إفريقيا شكل ديانتهم، إلى جانب التقاليد والأعراف المتعلقة بمذهب حيوية المادة. فتم نقش الأصنام والصور والأيقونات الخاصة بآلهة الفينيقيين بنحت نافر خفيف على سطوح الصخور، أو نصبت على أعلى الصخور لعبادتها. وقد ترافق مع هذه الأصنام والأيقونات المحفورة في بعض الأحيان، كلام منقوش بالحروف التيفيناغية، لكن النماذج المتأخرة استعملت الأبجدية الفينيقية واللاتينية. كان لبعض هذه الأصنام أشكال بشعة. ونحن نجد أن ترتوليانوس يؤنب معاصريه في القرن الثاني بعد الميلاد بسبب عبادتهم التافهة العقيمة للخشب والحجر. وفي القرن الرابع للميلاد، بقي شعب تيباسا (Tipasa) يتعبد بحماسة شديدة للحية البرونزية العظيمة ذات الرأس المطلي بالذهب.

أما بعل أمون، فهو إله الشمس ورئيس الآلهة عند الفينيقيين. كان

5- Akhmisse pp 44 – 43

6- يقدم لنا Hart، Camps وCoon. بحثاً أشمل في الديانات الشعبية الحديثة في إفريقيا الشمالية. كذلك يعالج spmaC أيضاً بشيء من التفصيل عدة أوجه من الوثنية القديمة في إفريقيا الشمالية.
أما Servier pp 468 – 465 فيذكر معتقدات تقليدية مماثلة في أوروبا الجنوبية مؤكداً بذلك أن نظاماً دينياً متجانساً هو الذي كان سائداً في القديم في بلدان البحر الأبيض المتوسط. راجع أيضاً: Rachik; Akmisse; Laoust; ed. Camps، Encyclopédie (Berbère) amulettes، animisme، arbres sacrés etc.

إلهاً هاماً في مناطق البحر الأبيض المتوسط كلها، وبخاصة المدن. وبالرغم من الطقوس القاسية والفظة لعبادة هذا الإله السامي، قبل الأمازيغيون عبادته بسرور وعن طيب خاطر. ويبدو أن عبادة رئيس الآلهة هذا قد مست وتراً حساساً في قلوب الأمازيغيين، إذ توافقت مع شعور كان عندهم بوجود مثل هذا الكائن العظيم الذي يقف على رأس كل الآلهة المحلية والأرواح الأخرى. كما يظهر أنه قد تكون عند الأمازيغيين ميل إلى الاعتقاد بوجود إله سام يتصدر كل الآلهة في الوقت نفسه الذي كانوا يتفاعلون فيه مع قوى أقل منه شأناً وفي متناولهم. وقد اكتشف علماء الآثار أوقافاً كثيرة كرست للبعل، وفي ما بعد، لنظيره الروماني ساتورن (زحل)، والتي تعود إلى ما قبل دخول المسيحية إلى شمال إفريقيا[7].

وفي ما بعد، وجد اليهود والمسيحيون أن الأمازيغيين يتجاوبون بشكل خاص مع إيمانهم بالإله الواحد. كما أن هذا الأمر يصح أيضاً على المسلمين لاحقاً. ولربما كان اليهود، منذ القرن الرابع قبل الميلاد وما بعده، أول من قدم فكرة وجود الإله الواحد الكلي القدرة. ولكن يبدو أن اليهود لم يضيفوا بذلك سوى أبعاد جديدة إلى مفهوم كان موجوداً، ولكن بشكل مبهم[8]. وفي القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد؛ أشار بعض شيوخ الإسلام، إلى وجود الإله الأوحد باسم «ياكوش» أو «يوش»[9]. فهل لايزال هذا الاسم حياً

Fre nd pp 77_79: Camps p. 215 -7

8- درجت العادة أن يخاطب الأمازيغييون الله إذ يدعونه «ربي» (Repbbi)، لكن أصل هذه التسمية يبقى غير واضح. وبما أن المسلمين العرب يشيرون عادة إلى الله بالعبارة «الله» قد يقود ذلك أحدنا إلى الاعتقاد أن التسمية «ربي» تعود إلى ما قبل الإسلام. كما أنه من الممكن جداً أن تكون قد نتجت من تأثير يهودي قديم. بالمقابل، إن الكلمة العبرانية «رابي» تعني «سيدي»؛ إلا أن الكتاب المقدس يستخدم هذه الكلمة دائماً بالإشارة إلى الناس، لا إلى الله. وعليه، قد نحتاج أن نبحث عن أصل «ربي» في تلك اللغة السامية الأخرى البونية (Punique)، أو إلى عوامل لغوية سامية أقدم، أثرت في تطوير اللغة الأمازيغية نفسها. وهكذا فإن التسمية «رب» بمعنى سيد، المستخدمة من وقت إلى آخر في القرآن، قد تعني بالنسبة إلى الأمازيغيين أكثر من الكلمة المستحدثة «الله»، الأمر الذي دفعهم إلى تسمية الله بشكل عام «ربي».

9_ Norris p. 6. «يقترح G. Mf arcy أن «ياكوش» قد يكون مشتقاً من اسم يسوع». (Encyclopédie Berbère p. 431 f). لكن هذا الأمر يبدو قليل الاحتمال إلى حد ما. ومن الممكن أيضاً أن يكون «ياكوش» مشتقاً من فعل في اللغة الأمازيغية بمعنى «يعطي». وعلى هذا الأساس، يعرف الله بأنه «المعطي». ومن الصيغ الأخرى لهذا الاسم نذكر: «يوش»،

بين ذوي الأصل الأمازيغي منذ ماضيهم الغابر؟ أو إنه لم يعرف عندهم إلا حديثاً؟ نحن لا نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال ولكن يبقى من الحقائق المحيرة وجود آثار تدل على الإيمان بالإله الواحد، ليس هنا فقط، بل في أماكن معزولة في جميع أنحاء المعمورة، وعند شعوب وأجناس لم يكن لها احتكاك بأية حضارة. ويظهر أن هذا اعتقاد عفوي بوجود إله سام قصي غطت معالمه الممارسات الطقسية وعبادة الأرواح المحلية وأرواح الأسلاف.

فهل يمكن القول إن هذا الإدراك للإله الأسمى، الكوني والشامل هو علامة من علامات الأصل المشترك الأوحد للبشرية جمعاء، ومشابهة الأقدمين في صفاتهم، والذاكرة المنتقلة من جيل إلى جيل والتي ترجع إلى أقدم أسلافنا، إلى نوح وحتى إلى آدم قبله؟ فبعض الأساتذة العلماء يلمح بجدية إلى أن هذا هو واقع الإنسان[10]. أو هل يتجدد ببساطة، عند كل جيل، الشعور بأن الطبيعة بجمالها وبتعقيداتها المذهلة، لا بد من أن تكون قد صممت بعقل جبار عظيم؟ ناهيك بالإنسان بحد ذاته – فهناك الكثير من الأمور المدهشة حقاً فيه – النظر، السمع، التفكير، الكلام – أليست هذه كلها أمور مدهشة محيرة؟ أو هل يمكن القول أن البشرية انبثقت من طريق الصدفة، وجاءت من اللاشيء؟ ولكن الحقيقة الواضحة هي أنه لا يمكن أن يخلق الإنسان إلا كائن أعظم من وأكبر؛ كما أن الكائن العظيم الذي هو أطهر من البشر، وحده يقدر أن يلهمهم بهذه الأشواق المجيدة المقدسة التي

«أيوش»، أو «أغوش» (Aggouch).
(Ouahmi Ould Brahim; Aherdan p.63)
في القرن التاسع عشر، كان التوارك (Touareg) ساكني الصحراء، يدعون الله «أماناي» أو «أمناي مقارن»، وأحياناً «مسي» (Norris p. 228). إلا أن هذه الكلمات كانت مشتقة على الأرجح من جذور لاتينية وعبرانية (مسي = المسيا = المسيح).

10- Custance، Richardson pp 50،51; DP.34.

«وبالعودة إلى أقدم الشعوب – البغميون في إفريقيا، أو هنود كاليفورنيا الوسطى – لقد كان عندهم جميعهم إله واحد، «إله السماء الأسمى»، كانوا يأتون بتقدماتهم أمامه». (Schmidt، اقتبسها Custance p. 12) «كلما كان من الممكن تعقب المراحل الأولى للاعتقاد بتعدد الآلهة، نجد أنه ينتج من ضم عدة معتقدات توحيدية بعضها إلى بعض. ففي مصر، حتى أوزريس (Osiris)، وإيزيس (Isis)، وهورس (Horus)، التي طالما اشتهرت كمجموعة ثلاثية، كان لها في البداية وجود كوحدات منفصلة في أماكن مختلفة: إيزيس كالإلهة عذراء، وهورس كإله موجود بحد ذاته». (Petrie، اقتبسها Custance p. 10).

يختبرونها في أفضل لحظات حياتهم وأحسنها.

وبالطبع فإذا ما وعى الأمازيغييون هذه الأمور، سيجدون في هذه الحال، أن عبادة بعل آمون لا يمكن أن تكون إلا عبادة مخيبة للآمال وفاشلة، إذا ما قورنت بجمال العالم الطبيعي، وبنبل أقدس المثل الإنسانية. إن عبادة البعل ورفيقته تانيت هي عبادة موسومة بقساوة مرضة ووحشية تقزز النفس. كتب جيمس فرايزر (Ja Frazer) في كتابه «الغصن الذهبي» (Le Rameau d'or)، وهو يصف التضحيات البشرية في معبد تانيت بتفصيل مؤلم بغيض، حيث ذكر عن الأولاد الصغار كيف كانوا يوضعون على يدي الصنم المنحدرتين، فينزلق الأولاد المساكين من هناك ليسقطوا على فرن ساخن ملتهب. وفي هذه الأثناء «يرقص الناس على أنغام الموسيقى والنفخ على المزمار، وهم يقرعون على الدفوف الصغيرة، ليحجبوا صرخات الضحايا المحترقة وعويلهم». وكانوا يمنعون الأبوين من إظهار الحزن والأسى خلال عملية التضحية بهؤلاء الأطفال. وقد وجد علماء الآثار بقايا هؤلاء الأطفال المتفحمة في قرطاجة، وهي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد؛ وتتراوح أعمار هؤلاء الأطفال بين حديثي الولادة إلى 3 سنوات. فضلاً عن أنهم وجدوا براهين أخرى تثبت هذه العبادة البشعة. وقد ظهر أنه بحلول القرن الثالث قبل الميلاد، استبدل كبش أو ثور بالأطفال. وكان يتم ذلك، على الأقل، بالنسبة إلى العائلات الغنية الموسرة.

اندثرت عبادة الآلهة الفينيقية وماتت، ولكن لا يمكن اعتبار ذلك منطبقاً على ممارسات مذهب حيوية المادة التي سبقت هذه العبادات زمنياً. ويشهد ما تبقى من هذه المعتقدات الدينية والخزعبلات، على الأهمية والمعنى العميقين الذين حملتهما ممارسة مذهب حيوية المادة هذه إلى تلك الأرض. وقد تلاقت ممارسات هذا المذهب مع حاجات عميقة عند مشاعر الإنسان في تلك البقعة من العالم. كما كانت محاولة ذكية من أناس مرهفي الإحساس ليسيطروا على عالم معقد ومخيف.

في القرن الأول للميلاد، كان هناك عدد وافر من الأمازيغيين يعيشون

في المدن الساحلية المتنامية للبحر الأبيض المتوسط. فتزاوجت عائلات أمازيغية كثيرة مع المسئولين والإداريين الحكوميين الرومانيين والتجار. كما كانت لهم معاملات يومية معهم في أعمال السوق وعلى المرافئ. كذلك استمعوا إلى الأنباء والأخبار المتداولة بين الناس، واقتنعوا بمعظم الأفكار الحديثة التي انتشرت في الإمبراطورية. كما أن أبنائهم الطموحين تعلموا اللغة وحوافز الثقافة والحضارة الرومانية واليونانية. وقد ناقشوا مع المعلمين المثقفين، الأفكار الفلسفية العميقة لليونانيين، وتأملوا الشروح والتفسيرات الرياضية للألغاز التي كانت حتى ذلك الوقت غير مفهومة. لقد دخل الأمازيغييون إلى العالم الأوسع لبلدان البحر الأبيض المتوسط، وبحثوا بحوثاً فكرية عقلانية كانت معروفة سابقاً، وبدأوا هم أنفسهم في البحث والتنقيب في المفاهيم الأكثر عمقاً لمعرفة ما هو متراكم من علوم ومعارف حتى ذلك الحين. فماذا كانت يا ترى الأفكار التي بحثوها بعضهم مع بعض، وفي مدارسهم الأدبية وفي فناءاتهم وساحات دورهم المظللة لداراتهم المصقولة بالقرميد الأحمر؟

لم يكن الناس الذين يعيشون في السهول والتلال، والذين يدينون بمذهب حيوية المادة، هم الوحيدون الذين كانوا يرون أنه لابد من وجود إله أسمى يزداد شموخاً وسمواً عن تلك الآلهة ذات القوة الأدنى، إذ إنه كان هناك في الوقت نفسه مثقفون رومان قد توصلوا إلى مثل هذا الاتجاه أيضاً. كما كانت هناك في الواقع رغبة ملحة، خلال العصور الأخيرة للوثنية الرومانية واليونانية، في التواصل مع الإله الواحد الموجود قبل كل الأشياء والمخلوقات. هذا، وقد أصبحت الآلهة الأسطورية الخرافية القديمة تهمل باطراد. وعلى الرغم من ذلك، فإن المجتمع الإنساني كان ومازال لديه احترام لما هو فوق الطبيعة. فالفلاسفة تمكنوا في الواقع من ممارسة نفوذ على الناس يفوق نفوذ كهنة روما الوثنية. ويعود الفضل لهم في إيقاظ الرغبة والاشتياق إلى المناقبية والكمال الأخلاقي، وهم الذين ألحوا إلى وجود «المحرك الأول» و«العلة الأولى لكل الأشياء». لقد آمن الناس أن هناك إلهاً في مكان ما أو في الأعالي وهو إله غير منظور، والذي لابد من أن يكون هو من خلق العالم. ولم تكن

مشكلة هؤلاء الناس إلا معرفة طريقة الاتصال بهذا الإله.

في هذه الأثناء كان سكان المدن الذين كانوا مازالوا يعبدون الآلهة القديمة على مضض، يقربون التقدمات للإله زحل (Saturne) أو لأحد الآلهة الأخرى، كعطارد (Mercure)، إله الفصاحة والمهارة، والمريخ (Mars) وهو إله الحرب، والزهرة (Vénus) وهي إلهة الحب والجمال، ونبتون (Neptune) وهو إله البحر، وهلم جرا. وهناك آخرون عبدوا آلهة «الديانات السرية». وقد سميت بالديانات السرية لأن شعائرها لم تكشف إلا لأعضائها. وقد تضمنت هذه العبادات والمذاهب آلهة غريبة، نصف بشرية ونصف حيوانية، فضلاً عن قصص أسطورية خرافية عن أعمال هذه الآلهة كانت تترافق مع هذه العبادات. ولربما كانت عبادة الإله مثرا (Mithra) هي الأكثر شعبية، حيث كان أتباعها المتعبدون يستحمون بالدم الذي يهب الحياة، من ثور يذبح بأسلوب شعائري. وكان موت أحد الآلهة وقيامته أمراً شائعاً بين معظم هذه العبادات والمذاهب. وأحياناً تكون هذه الآلهة أزواجاً: ذكراً وأنثى، يموت الأول ويساعده الآخر في عملية قيامته. ويتزامن الموت والحياة عادة مع الاعتدالين الخريفي والربيعي، ويرمز ذلك إلى موت السنة الفائتة وولادة السنة الجديدة. ويحاول المتعبدون، من طريق الاحتفال بالعيد والمسكرات وطقوسهم الجنسية، أن يؤكدوا خلودهم الخاص وخصوبة أرضهم وإنتاجهم الزراعي. إلا أن الكثيرين لم يكونوا مقتنعين بكل هذا. وبدأوا يشعرون بأن هذه الفظاظة والخشونة لم تكن متوافقة مع ظواهر العجائب المهيبة والجليلة التي يشعرون بوجودها في الطبيعة المليئة بالقداسة وفي الكون بأسره. كما رأوا أن قصص الآلهة تحمل علاقات صغيرة تافهة عند مقارنتها بقوى الخير والشر التي تبينوها في قلب الإنسان والعالم من حولهم. حيث أن تصرفات الآلهة لم تكن أقل قسوة وظلماً وإباحية من قسوة الذين يعبدونها وظلمهم وفسادهم.

إن أكثر ما أربك الناس في العصر الروماني هو أن الفناء يحيق بكل شيء، وقد تملك الناس شوق غامر إلى الحياة الأبدية والخلود. وظهر لهم آنذاك أن جميع الأشياء من حولهم محكومة بحتمية الاضمحلال والانقراض. لم

تكن الأشياء الجميلة تدوم مطولاً. فالدمار كان قدراً لا مناص منه لجميع البشر. كما كان هناك اشتياق عظيم في قلب كل رجل وامرأة إلى الانتصار على العدو القديم، الموت. وكان الجميع يتوقون إلى حياة تستمر ما بعد القبر، وإلى حفظ كل ما هو نبيل وصادق. ولم يستطع الفلاسفة كأفلاطون وغيره أن يعطوا سوى جواب غامض للأسئلة التي كانت تقض مضجع الناس. فقد أعطت الديانات السرية أملاً أكبر، لكنها كانت متنوعة وكثيرة العدد. ومن الواضح أن هذه التعددية تظهر للعقلاء والأذكياء، أن الديانات مازالت تتحرك في غسق من التخيلات الأسطورية الخرافية، ولا تسير أو تتحرك في نور النهار الواسع المتوكئ على الحقائق الوطيدة. كانت قلوب الناس جائعة، وهي تصرخ مستغيثة تطلب رسالة لأمل متجدد وأكيد. لذلك، فعندما وصلت هذه الرسالة، التي تعطي الأمل والرجاء، أوصلت إلى الناس انفراجاً عظيماً واطمئناناً كبيراً، ولاسيما لأولئك الرجال والنساء المخلصين ذوي التفكير العميق، سواء أفي مدارس المدن ودورها أو في القرى الريفية المسكونة بالأرواح[11].

ها قد وصل بعض المسافرين وهم يجوبون الشوارع والطرقات والأسواق يتحدثون بثقة شهود العيان، أو ثقة أناس كانوا قد تقابلوا حديثاً مع شهود عيان واستفهموا منهم، لم يكونوا يتحدثون عن نظريات غامضة مبهمة أو عن آلهة أسطورية خرافية، بل عن حقائق ثابتة. كانوا يتكلمون عن أحداث وقعت حديثاً، وفي مواقع وأمكنة مميزة معروفة، وفي أوقات محددة يعرفها الكثير من الناس. لقد جاء هؤلاء بأخبار عن فيلسوف عظيم جديد برهنت حكمته العجيبة ومبادئه الأخلاقية الرفيعة على قوته المدهشة في تطهير الضعفاء والأشرار، عن تفوقه على كل معلمي العصور القديمة. وكان يتحدث عن الإله الواحد الحقيقي، خالق كل شيء، وكأنه يعرفه معرفة شخصية.

11- Frend pp.94-111 «لا يمكن قهر الأرواح الشريرة إلا بواسطة معرفة سرية يحصل عليها الناس من منقذ برهن أنه أقوى من الموت. إن مفتاح الخلود كما هو معروض ... في المسيحية، تمسك به بثبات العديدون من الذين كانوا يشعرون بأن مخاطر شيطانية، لا سلطة لهم عليها، كانت تقلق حياتهم». (Frend pp. 94-95). إن موضوع عبادة الأوثان في عهد الرومان، يتناوله كل من:
Green pp 134-199; Foakes – Jackson pp 180-197 ; Bainton pp.71-112

وقضى أيامه في وسط الزحمة الصاخبة والمزعجة لأناس كثيري الطلب. وقدم العون والراحة بكل لطف وحنان لكل من جاء إليه. وقد جعلتهم شخصيته وحياته ينظرون إليه كفيلسوف كامل. وتحمل حسد الأشرار ومكرهم بكل صبر. وبعد ذلك أدهشهم إذ أنجز أمام أعينهم القصة القديمة التي تحكي عن الإله الذي مات وقام، تلك القصة التي لم تعد الآن مجرد حكاية خرافية، بل حقيقة معترف بها. إذ حقد الناس عليه جوراً، وحكم عليه بالموت على يد القادة اليهود، قام هذا الرجل البار الصالح من القبر. لقد أنجز في الواقع كل ما كان الآباء يتصورونه في مخيلتهم. كما كانوا متيقنين بأن التضحية بحياته البريئة لم تكن مجرد حركة تقوى لا جدوى منها. إذ بموته حمل في جسده الحكم الإلهي على خطية العالم، وحرر سكانه من عقوبة الموت وجهنم التي كانت تهددهم. وبعد ذلك سبقهم إلى مملكة السماء حيث الحياة الأبدية. وكان اسم هذا الشخص الفريد الجليل: «الرب يسوع المسيح». لقد كانوا يدعون سامعيهم قائلين: «آمنوا به تتغيروا جذرياً وتجدوا حكمته العجيبة ونقاوته الروحية في قلوبكم، وستشتركون في نصرته على الموت وتدخلون خلوده الأمجد.

كان لهذه الأحداث الهامة صدى عميق في إيقاظ الاهتمام الواسع لسكان المدن الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط وساحل إفريقيا الشمالية. ولكن، ماذا عن أولئك الذين يعيشون في المناطق الداخلية، والذين لا يعرفون شيئاً عن هذا البحث الفلسفي المتعلق بالخلود وبالحياة الأبدية، ولا عن المثل الأخلاقية للمفكرين الإغريق، أولئك الناس البسطاء الذين ظلوا تحت عبودية الأرواح التي كانت تحتل الصخور والينابيع الموجودة حولهم؟ فماذا تعني أخبار الإنجيل لمثل هؤلاء الذين يعيشون في القرى والأرياف؟

إن الرسالة التي حملها إليهم المسيحيون الأوائل، كانت حسب اعتقادنا، الأكثر تأثيراً وتشويقاً. لقد أعلن الزوار الذين جاءوا إلى المنطقة أنهم قابلوا المنقذ الكامل القدرة، الذي أرسله الله الواحد السامي، صانع الأرض والسماوات وكل الأشياء التي ترى والتي لا ترى. وقد بين هذا الشخص السماوي قدرته الكاملة التي تتحكم في الرياح العاتية والأمواج الصاخبة، والأمراض والأسقام والموت. لقد كانت تفر من أمامه أكثر الأرواح النجسة جنوناً، كما كانت سلطته على قوى الظلمة مطلقة. كانت تلتف حوله الجماعات وتصرخ فرحة كلما حررها من قيود الجسد والنفس. ولكن بعد ذلك بدا وكأن قوى الشيطان قد قامت أمامه وأخذته وضربت جسده وعلقته على خشبة تحت أشعة الشمس ليموت. فوضع في قبر يشبه دهليزاً داخل تل صخري، ودحرج حجر كبير على المدخل لإغلاقه. إلا أن القوى الشريرة لم تستطع أن تسكت هذا الشخص. فبعد ثلاثة أيام، قام من الموت، وخرج من الكهف، ورآه مئات من الناس حياً قبل صعوده بجلال ملوكي إلى السماء الزرقاء فوق مدينتهم.

ماذا يعني كل هذا؟ إنه يعني تحرراً مجيداً رائعاً من عبودية قوى الظلام، ويعني أيضاً أن السلام أصبح الآن متوافراً للتواقين إليه. ففي حياته، حرر المسيح الناس من الأمراض والخوف وتأثير الأرواح الشريرة؛ وفي موته، حمل المسيح آلام العالم الفاسد والمنهار؛ وبقيامته سحق قوى الشر وهزمها إلى الأبد. والآن، راح هؤلاء المسافرين الشجعان يصرحون بأن هذا المنقذ العظيم هو حي، وروحه النقية القوية لا تسكن الصخور، أو الكهوف، ولكنها تسكن فينا نحن المؤمنين به. وأضافوا أنه إذا ما دعوتموه طالبين إنقاذه وخلاصه، وواضعين ثقتكم الكاملة به، تستطيعون أن تجدوا ملاذاً أكيداً لكم، وتضمنوا حماية كاملة في اهتمامه ورعايته المحبة لكم جميعاً. وفوق كل هذا وذاك، لا داع للخوف فيما بعد من الأرواح الشريرة، ذلك لأن الروح الأكبر هو صالح صلاحاً كاملاً وقدوس قداسة كاملة. وكل من يؤمن به، يجد أمامه حياة جديدة مفعمة بالرجاء والسلام والحرية. كانت هذه هي الرسالة التي جاءوا بها.

الفصل الرابع

الأخبار السارة

كان التجار القادمون من الشرق، يمرون عموماً على موانئ شمالي إفريقيا خلال مراحل أسفارهم البحرية الطويلة، وهم متجهون إلى الغرب نزولاً، بمحاذاة حوض البحر الأبيض المتوسط. وغالباً ما تكون مراكب الشحن محملة بالبضائع التجارية المستوردة من قبرص وأورشليم ودمشق والإسكندرية، فضلاً عن نقل عدد كبير من الركاب المسافرين. وقد حدثنا سفر أعمال الرسل، أحد أسفار الكتاب المقدس، عن ذلك لدى ذكره رحلات بولس الرسول التبشيرية. ولم يكن المسافرون من التجار فحسب، بل من المسئولين الرومان الرسميين وإدارييهم أيضاً. والسبب في وجود هؤلاء الرسميين في سفن الشحن هو أن المرور عبر هذه المعابر الضيقة، من عاصمة الإمبراطورية إلى مدينة قرطاجة، لا يستغرق أكثر من ثلاثة أيام.

ويعود تاريخ هذه الطرق التجارية البحرية إلى زمن الفينيقيين. وخلال القرنين الأول والثاني للميلاد، كانت هذه الطرق معروفة وكثيرة الاستعمال. كان ساحل إفريقيا الشمالية المأهول بأجناس متعددة من البشر واسعاً، وكان في مقدور المسافرين أن ينتقلوا بسهولة ويسر. وهذا ما شجع مسيحيي فلسطين وجنوب أوروبا على أن يطلبوا الإرشاد الإلهي، وهم متحمسون لإيمانهم الجديد، ومتحرقون شوقاً لمشاركته مع هؤلاء الأجناس.

والواقع أن عدداً من الأفارقة الشماليين كانوا هم أيضاً قد وجدوا هذا الطريق المبهج السعيد، فبعض الليبيين الذين تهودوا، وكذلك بعض المستوطنين اليهود في ليبيا، كانوا حاضرين يوم الخمسين في بداية تأسيس الكنيسة المسيحية، ووقفوا مع الحشد الذي كان يستمع إلى بطرس الرسول وهو يبشر الناس ببشارة الخلاص للمرة الأولى. ومما لاشك فيه أن بعض الأفارقة الشماليين كانوا في عداد الثلاثة الآلاف الذين آمنوا بالمسيح في تلك الأيام[12].

وحتى قبل هذا التاريخ، كنا نلتقي سمعان الذي قدم من كوريني، وهو

12- (أعمال 2: 10)

مرفأ بليبيا، قرب المدينة المعروفة اليم ببنغازي. وهو الذي حمل صليب المسيح. ومن المرجح أنه صار من المؤمنين، إذ إن ولديه ألكسندرس وروفس أصبحا فيما بعد معروفين بين الأصحاب الذين كتب لهم مرقس الإنجيل[13].

لقد التقى بعض الكورنيين من «مجمع الليبرتينيين» استفانوس، وذلك بعد صلب المسيح ببضعة أسابيع فكان هذا اللقاء من اللقاءات البارزة، ذلك لأنهم «لم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلم به»[14]. وبعد أيام قليلة سمعوا استفانوس يشرح بقوة كتابات العهد القديم، كما عاينوا استشهاده. هذا مع العلم أنه كان من بينهم شاب يدعى شاول الطرسوسي. وبعد فترة وجيزة، نقرأ مرة أخرى، عن أناس من كوريني وقبرص آمنوا بالمسيح. وهم لم يكتفوا بصيرورتهم مسيحيين مؤمنين، بل انطلقوا للتبشير بإنجيل المسيح بين الأمم، لا بين اليهود فقط. كما ذهبوا إلى «مدينة إنطاكية وتحدثوا هناك مع اليونانيين وبشروهم بالرب يسوع المسيح»[15]. كانت كوريني مدينة هؤلاء القوم، مرفأً نشطاً ومزدهراً، يلتقي فيه اليهود والفينيقيون والأمازيغيون في بوتقة واحدة، إلى جانب العديد من زوار منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط. بما أن بواكير المؤمنين الأفارقة كانوا يختلطون مع أناس من خلفيات مختلفة، فإن هذا ساعدهم كثيراً، ولاشك، في تعاطفهم مع كل من كان يقيم بين ظهرانيهم. وكانوا أول من أوصل رسالة الخلاص إلى أمم تختلف عن أمتهم. وقد وجدت مقابر المسيحيين الأولين في كوريني بين مقابر الجماعات اليهودية؛ وهذه شهادة أكيدة على أن هؤلاء المؤمنين الليبيين، عادوا إلى إفريقيا الشمالية من أورشليم، حاملين معهم إيمانهم الجديد[16].

في هذه الأثناء، كانت رسالة الخلاص في المسيح تنتشر في كل الاتجاهات.

13- (مرقس 15: 21) ؛ (رومية 16: 13).يجب التمييز بين كوريني بليبيا حالياً، التي تسمى في بعض الكتابات بالقيروان، وبين القاعدة التي أسسها المسلمون لاحقاً بالقرب من سوسة بتونس.

14- (أعمال 6: 9 و10)

15- (أعمال 11: 20)

16- Latourette Vol. II pp. 97ff ; Neill p. 37

وقد ذكر ترتوليانوس، وهو أحد الكتاب المسيحيين، عن اتصالات قديمة كانت بين الأفارقة ومسيحيي روما[17]. وعليه، فمن المرجح أن الأخبار السارة قد سافرت إلى كل من الاتجاه الغربي، من فلسطين والإسكندرية، والاتجاه الجنوبي، من إيطاليا، ولربما وصلت إلى كل الموانئ الرئيسية في إفريقيا، والتي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وذلك في مدة الخمسين سنة بعد موت المسيح وقيامته.

فالليبيون الذين جاءوا بهذه الأخبار السارة عن يوم الخمسين، لحقت بهم فيما بعد جماعات من المؤمنين، كانوا قد تخلفوا في أورشليم لبعض الوقت، مستفيدين من ملازمة الرسل وغيرهم من المسيحيين. «وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات ... وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة»[18]. وبسبب الضيق الذي حصل بعيد استشهاد استفانوس، فقد تشتتت معظم هؤلاء المؤمنين من رجال ونساء، وعادوا بالطبع إلى وطنهم إفريقيا. وبوصولهم، وصلت معهم أخبار مذهلة عن اختبارات الإيمان المسيحي في أورشليم: فمن إيمان العديد بيسوع المسيح، إلى حادثة إطلاق بطرس الرسول من سجنه بواسطة الملاك، إلى حادثة حنانيا وامرأته سفيرة الذين لقيا حتفهما بسبب ما صدر عنهما من افتراء، إلى حوادث شفاء المرضى الرائعة على أيدي الرسل، ثم شهادة استفانوس البطولية، واهتداء شاول إلى المسيحية، ذاك الذي كان ألد أعداء الإيمان المسيحي.

وبعد فترة وجيزة، وصلت أخبار إلى الساحل الليبي عن زيارة بطرس لقائد المئة الروماني، وكيف آمن جميع أهل الأمم الذين كانوا في بيته، وقبلوا خلاص الرب وعطية الروح القدس، تماماً كما أعطيت لليهود. وقد استمع أهل الأمم، من رومان وأمازيغيين، إلى هذه الأخبار بشوق واهتمام كبيرين. كما ارتاحوا كثيراً للترحيب الكبير الذي أبداه الرسل وشيوخ الكنيسة في أورشليم بالرجال والنساء أمثالهم في كنيسة المسيح.

17- De Praescriptione Haereticorum 36

18- (أعمال 2: 42، 64)

كانت حيوية وحماسة هؤلاء المؤمنين الأوائل مؤثرة إلى أقصى الحدود. فقد ذكر لنا المؤرخ الشهير يوسابيوس، الذي من قيصرية – فلسطين (Eusèbe de Césarée) (263 ـ 3 39 م)، ذكر عن القرن الثاني للميلاد يقول: «التهبت قلوب المؤمنين المسيحيين بكلمة الله المقدسة، وزاد اشتياقهم ليكونوا أكثر نضجاً وكمالاً في الإيمان. وكانت أولى نشاطاتهم في طاعة الرب المخلص، أنهم باعوا كل ما يملكون ووزعوا على الفقراء والمساكين. وبعد ذلك تركوا بيوتهم لينفرزوا لأعمال التبشير، وكان همهم نشر كلمة الخلاص بين أولئك الذين لم تصلهم هذه الكلمة بعد، وأن يودعوهم أيضاً كتب الإنجيل المقدس. وقد اكتفوا ببساطة أن يرسوا أسس الإيمان بين سكان تلك الدول المتباعدة؛ من ثم قاموا بتعيين رعاة آخرين وأوكلوا إليهم مسؤولية تعزيز الذين قبلوا الإيمان حديثاً. هذا، وقد مروا بالبلدان والشعوب الأخرى سائرين بنعمة الرب وعونه».

وباستطاعتنا تصور أولئك الرجال والنساء الشجعان الذين كانت قلوبهم مملوءة بالأمل والرجاء وهم يطئون بأقدامهم سواحل إفريقيا. لقد وقف هؤلاء على الأراضي التي توازي أرصفة الساحل، وراحوا يحدقون إلى مباني المدينة القليلة الارتفاع وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس الصباحية، ثم تساءلوا حين رأوا الدور الواقعة فوقهم: ترى؟ أي من هذه البيوت ستثمر فيها الكلمة ويكون لنا فيها أخوة وأخوات بالرب؟ أو أي من هذه البيوت سيختاره الرب ليكون بيتاً مباركاً نستظل تحته ونستمتع بالشركة الروحية مع مؤمنين جدد ونصلي بين جدرانه؟ ولقد أتى هؤلاء المسافرون المسيحيون الأوائل، ليس فقط باختباراتهم الشخصية عن حياة الرسل وتعليمهم وعن المسيح يسوع نفسه، بل أحضروا أيضاً نسخاً نادرة وثمينة لبعض أسفار الكتاب المقدس التي نقلوها بأنفسهم عن النسخ الأصلية التي كانت في أورشليم أو مدن أخرى. وبات من المؤكد أن هذه المخطوطات التي جاءوا بها، كان معظمها مكتوباً باللغة اليونانية، وهي اللغة المستخدمة لتدوين أولى الكتابات المسيحية في إفريقيا الشمالية[19].

Latourette Vol.I p. 92-19

ليس هناك أي احتمال يقيني حول ما قيل عن سمعان القانوني، وهو احد رسل المسيح الإثني

ولربما اتبعوا أسلوب الرسول بولس في توجههم إلى المجموعات اليهودية أولاً. فاليهود الذين سكنوا شمالي إفريقيا كانوا يعرفون الله الذي خلق كل شيء، كما كانوا ينتظرون «المسيا» الحقيقي الذي وعدوا به مخلصاً. وكان أغلب ظنهم أنهم سيجدون بين هذه العائلات اليهودية قلوباً مستعدة لقبول المسيح المخلص الذي طال انتظارهم له. وكما علمنا، فإن بعض اليهود آمن بالمسيح في وقت مبكر في شمال إفريقيا. إلا أن بعضهم الآخر لم يؤمنوا. وكما حصل لبولس الرسول، فقد توجهوا عنهم إلى الوثنين ذوي المبادئ الأخلاقية الجوفاء، وكذلك إلى الذين يعبدون الأصنام الخشبية والحجرية. لقد اهتم كتاب القرن الأول بالرد على أسئلة اليهود واعتراضاتهم أكثر من اهتمام المدافعين عن الإيمان (Apologistes) في القرنين الثاني والثالث، عندما كان قد أصبح المهتدون إلى المسيحية من الوثنين أكثر من الذين جاءوا من أصل يهودي.

لم يكن في نية مسيحيي إفريقيا الأوائل أن يتركوا سجلات عن نشاطاتهم، ولا هم أسسوا أبنية متميزة. كما أنه لم يظهر بينهم في ذلك الحين، كتاب عظماء يدونون مآثرهم وأعمالهم وإيمانهم. وعلى الرغم من ذلك، فإننا نلمس تأثير إيمانهم في الناس الآخرين بشكل فعال، كما تدل النتائج من خلال اتساع الجماعات المسيحية ونضجها العظيم، ولاسيما بعدما كشف النقاب عن هذا الأمر بعد مئة سنة[20]. وفي الواقع فإن

عشر، انه قام بالتبشير في أماكن مختلفة من شمال أفريقيا.
ولا توجد وثائق تذكر هذه الزيارة إلاّ في القرن التاسع في اسطنبول. بالإضافة إلى وثيقة أخرى مجهولة المصدر تنسب إلى ناظر كنيسة في فلسطين في القرن الرابع. إلا أن ما يفنّد عدم صحة هذه الرحلة، هو أن هذه الكتابات أتت من خارج شمال أفريقيا، كما انه لم يرد ذكرها إلاّ بعد سمعان بعدة قرون.
ولو انه فعلاً بشّر في شمال أفريقيا، يكون من المستحيل ألاّ يأتي على ذكره الكتّاب المسيحيون الأوائل الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث، أمثال ترتوليانوس. هذا على اعتبار أن هؤلاء الكتّاب كانوا قد ناقشوا مصدر كنائسهم.

20- بعد العصر الرسولي، كان شهداء سكيليوم المذكورين في الفصل التاسع، أول المسيحيين الأفارقة الذين تم تدوين أسماءهم في السجلات التاريخية.كذلك تذكر سجلات أخرى أيضاً اسم فيكتور الذي ولد في أفريقيا البروقنصلية وخدم كناظر لكنيسة روما على مدى ثلاث عشرة سنة (185-198م). لقد اشتهر فيكتور هذا بشكل خاص في إصراره على أن يتم الاحتفال بذكرى القيامة في يوم أحد كل سنة، وذلك بمعزل عن التاريخ الذي يصادف

الشـــواهد التي بين أيدينا لا تدلنا ســـوى على واحدة من الجماعات المسيحية التي كانت متواجدة في القرن الأول، في إفريقيا، وذلك غرب مصر، وبالتحديد فـــي مدينة كوريني. لكن، بحلول العـــام 200 ميلادية وصلت تقارير تفيد عن إنشاء كنائس مزدهرة في أجزاء عديدة مما ندعوه اليوم تونس والجزائر [21].

وكم كان الأمر سيبدو رائعاً لو عرفنا تفاصيل أكثر عن المسيحيين الأوائل، أين وصلت إليهم رسالة الإنجيل لأول مرة، وكيف بدأوا ينظمون اجتماعاتهم معاً، وكيف كانوا يعلمون ويشجعون بعضهم بعضاً. ولربما كانوا يجتمعون يومـــاً فيومـــاً في بيوتهـــم ليبحثوا متضمنات هـــذا الطريق الجديـــد للحياة، وليقـــرأوا كل ما يصلهم مـــن الكتابات النادرة لـــكلام الله، والتي كانت تلف منطقة حوض البحر الأبيض المتوســـط برمتها. على أن وصول أي مســـيحي من آسيا الصغرى أو من فلسطين كان يقابل بالفرح العارم والبهجة. وكانت أخبار وصوله تنتشر من دار إلى دار، ومن عائلة إلى أخرى، وكان المؤمنون يدعون إلى الاجتماع بهذا القادم الجديد من الشـــرق، فيســـألونه عن مدى استيعابه لهـــذا الإيمان، واختباراته في الكنائس الموجودة فـــي المناطق الأخرى. وغالباً ما كان يُسأل: هل التقى بطرس؟ أو ماذا يقول بولس في هذا الأمر؟ أو ماذا يعني يعقـــوب بذلك؟ أو هل أن يوحنا لايزال ســـجيناً في بطمـــس؟ ولربما جلب مثل هـــؤلاء الزوار أجزاء من الكتاب المقدس الذي كان يقرأ على الأخوة المجتمعين، أو كانـــوا يعلمونهم ترانيم جديدة كانت ترتل في أورشـــليم أو إنطاكية أو مدن أخرى. ومما لا شـــك فيه أن هؤلاء الضيوف كانوا يصغون بكل اهتمام وعطف إلى استفســـارات أخوتهم، ويقدمون لهم بالتالي النصح والإرشاد ولاسيما في الأمور التي تتعلق بالممارسات اليومية لهذا الإيمان، خصوصاً بين ذويهم.

انتشرت أخبار البشارة الســـارة عبر السهول الساحلية لشمال إفريقيا

فيه وقوع هذا اليوم. وهكذا أصبح هذا الترتيب مألوفاً ومعمولاً به في الكنائس في كل أنحاء العالـــم. لكننـــا لا نعلم من أية مدينة كان فيكتور، ولا كيف أصبح مســـيحياً، ولا أية علاقات تربطه بكنائس وطنه.

21- كانـــت كنائس القرن الثاني موجودة في قرطاجة (تونس)، وفي ســـيتيفيس (ســـطيف، الجزائر)، لامبايســـيس (تازولت،الجزائر)، ماداورا (مداوروش،الجزائر)، أثما، ثبربومينس وثيسدروس (وجميعها في تونس) ولبتيس ماغنا (ليبيا).(Cooley p. 92).

كانتشـــار النار في الهشيم، وبالشكل الذي انتشرت في فلسطين. كان عدد الذين يســـمعون الإنجيل يـــزداد أكثر فأكثر؛ وكانوا يقبلـــون الكلمة «بابتهاج وبساطة قلب مسبحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب»[22].

لقـــد انتقلت رســـالة الخلاص من شـــخص إلى آخـــر، ومن جـــار إلى جار. وبالطبع فقد كانت أخباراً ســـارة مفادها: إعلان محبة الله للإنســـان، بإثبات وبراهـــين مقنعـــة، ومن دون التزامات سياســـية أو تجارية. لقـــد جعلت الناس أحـــراراً، وجلبت لهم في الواقع حرية لم يعرفوها مـــن قبل أبداً: الانعتاق من الأســـاطير الكاذبـــة، والخـــلاص من الأخلاق المتفســـخة المنحلـــة، والتحرر من الأرواح المحلية النزوية الدنيئة. ولقد تمكنوا من رفع رؤوســـهم عالياً بشجاعة واعتداد بالنفس وإيمان، وهم يفخرون بانتمائهم إلى عضوية المجموعة الجديدة المتناميـــة التـــي تبني كيانهـــا على مفاهيـــم رائعة من مبـــادئ المحبة والثقة والنزاهة. «لقد فتحت الأبواب المغلقة، وانبعث النور مشرقاً في الظلمة»[23]. هـــذا ما كتبه كبريانـــوس (Cyprien) الذي كان قد ولـــد في بيت وثني في قرطاجة في حدود سنة 200 بعد الميلاد، ومات بعد مرور نصف قرن. وهو أحد أشهر المسيحيين في كل العصور والأوقات.

تميل تعاليم المسيح إلى توحيد الناس على أساس مبادئ المساواة التي لا تعـــرف المحاباة. فليس هناك من هو أفضـــل أو أكثر قدراً من الآخر. فالجميع قد خلقوا من إله واحد، وجميعهم سيحاســـبون على أســـاس المعايير نفسها. فـــكل من أصبح على طريق الحياة الأبدية هو محبوب في عيني الرب، ومرحب به في شعبه. ولابد من أن تكون المساواة التي جاءت بها المسيحية قد صدمت الكثيـــر من الرجال والنســـاء وجذبتهم إليها. فمهمـــا كانت خلفيات المؤمن متواضعة، ومهما كان محتقراً منبوذاً، سواء أفي السوق أو المدرسة، فله الحق في أن يأخذ مكانه اللائق كابن من أبناء الله في اجتماعات الكنيســـة المحلية، فيقـــف هناك جنباً إلى جنب مع أغنى الناس وأرفعهم قدراً على هذه الأرض. كما يســـتطيع هذا الإنسان أن يتخطى هؤلاء جميعاً، ويربح تقدير الكنيسة

22- (أعمال 2: 46 و47).

23- Ad donatum 4

احترامها بنوعية حياته المقدسة وثبات شهادته في ساعة التجربة. وهو أمر لا يمكن الحصول عليه في حياة المجتمع. المؤمنون كسيدهم. لا ينظرون إلى المظهر كما يفعل الإنسان. «لأن الإنسان ينظر إلى العينين. وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب»[24]. فالمسيحية بحق. جلبت الشرف والكرامة والثقة في النفس. إلى الكثيرين الذين من دونها. كانوا سيتخبطون. متشوقين لعيش حياة آمنة في هذا العالم. كان هذا الإيمان الفعال والجذاب. هو الذي اكتسح شمال إفريقيا بفرح عظيم.

لقد كان عمل هذه الجماعات المسيحية فعالاً حتى إن بشارة الإنجيل قد عرفت وقبلت في كل المدن الساحلية بشمال إفريقيا. بعد جيلين أو ثلاثة تقريباً من وصولها للمرة الأولى. لقد انتشر عمل التبشير بالإنجيل وتوسع بنشاط وإقدام. وبفترة لا تزيد على مئة وخمسين عاماً. أصبحت كنيسة قرطاجة وكنيسة كوريني وكنائس أخرى في شمال إفريقيا. كأنطاكية وأفسس وفيلبي ذات مكانة مرموقة. تسير جنباً إلى جنب. مع أعظم المراكز المسيحية الأولى التي يتحدث عنها سفر أعمال الرسل.

وفي العام 198 بعد الميلاد عندما خاطب ترتوليانوس حكّام روما دفاعاً عن المسيحية. ذكر أن الكنائس المحلية كانت تجتمع بانتظام من أجل العبادة والتعليم. فقد أقرّت الكنائس تعيين قادة لها.وقدمت الدعم والمساعدة للأرامل والأيتام. وكانت لهم مدافنهم الخاصة. وأماكن عبادة خاصة كذلك. ولم يكن المسيحيون. بأي شكل من الأشكال.مغمورين.ولا كانوا أقلية تافهة مهملة.قال ترتوليانوس :»بدأنا بالأمس فقط.ومع ذلك فقد ملأنا كل الأماكن الخاصة بكم:المدن والجزر والقلاع والقرى والأسواق وحتى مخيماتكم العسكرية وكذلك قصر الإمبراطور والمجلس الأعلى والساحات العامة.»[25] ولم تمض إلاّ خمس عشرة سنة من هذا الوقت بالذات. حتى كان نمو الكنيسة العمومية قد ازداد أكثر.الأمر الذي دفع ترتوليانوس إلى التصريح بالقول:»نحن جماهير كبيرة.ونشكل الأكثرية تقريباً في كل مدينة.»[26]

24- (صموئيل 16: 7).
25- Apologeticus 37
26- Ad Scapulam 2

دخلت البشارة خلال وقت قصير كل طبقات المجتمع. وشمل تأثيرها كل مجالات الحياة. وقد عقد مؤتمر في العام 256 ميلادية في قرطاجة. حضره ممثلون عن خمسين كنيسة محلية من مقاطعة أفريقيا البروقنصلية. هذا فضلاً عن عشرين ممثلاً من مقاطعة نوميديا.ولم تمض سوى خمسين سنة أخرى حتى كبر هذا العدد وازداد كثيراً.وقد بينت التقارير أن المسيحيين كانوا يشكلون أغلبية السكان في منطقة أفريقيا البروقنصلية. ما عدا شبه جزيرة رأس بون بالقرب من تونس المدينة. وكانت المجموعات المسيحية تنمو وتزدهر كذلك في شمال المغرب بالقرب من طنجة. وفي أماكن كثيرة على امتداد الساحل الليبي إلى الشرق. وهذا النمو الهائل والمتسارع. يشهد على قوة الإنجيل وعلى الطاقة الكبيرة التي كان يمتلكها حاملو الرسالة. فالحقول قد ابيضت للحصاد. والحصادون اندفعوا إلى العمل من دون كلل أو ملل.[27]

لقد تسلقت الكرمة المسيحية بسرعة على خيمة الحضارة الرومانية. لقد انطلقت أغصانها واخترقت القبائل داخل أفريقيا الشمالية الأمازيغية. استفادت المسيحية. ولا شك. من السلام الذي ساد جميع الأجناس الخاضعة للسيطرة الرومانية. وقد عرفت هذه الوضعية تاريخياً بالباكس رومانا (Pax Romana).كانت تلك الفترة فترة سلام واستقرار سياسي. ونمو وازدهار اقتصادي ناتج من الحكم الروماني. كانت منطقة شمال أفريقيا في ذلك الوقت مزدهرة.ونادراً ما كان ينالها أي تخريب أو تدمير بسبب الحروب المحلية كتلك التي كانت مشتعلة في جنوبي أوروبا. وقد أصبح الآن بإمكان المسافرين إلى جميع المناطق. أن ينتقلوا بأمان وسلام نسبيين. وكانوا يجدون الوسائل لدعم حياتهم وإعالة أنفسهم بسهولة ويسر.كان الأهالي المحليون منفتحين جداً على تقبل الأفكار الجديدة.ولم يكونوا يرزحون تحت طائلة الفقر المدقع.كما كانوا بعيدين عن الصراعات والمنازعات والحقد. الأمر الذي وفّر عليهم هموم القلق المستمر وانشغال البال. وعلى الرغم من أن الحكومة الرومانية لم تكن قد وافقت بعدُ على الدعوة إلى المسيحية والتبشير بالإنجيل. إلاّ أنه كان يمكن لكل إنسان أن يخضع على الأقل لمحاكمة عادلة. وكانت تمنع تعرض

27- بالإشارة إلى (يوحنا 4: 35).

المسيحيين للعنف الجماعي والاضطراب الناشئين بسبب دعوتهم هذه.

ولكــن، مــع أن هذا الســلام الذي كان يســود جميع الأجنــاس الخاضعة للسيطرة الرومانية في حدود إمبراطوريتها، قد ساعد كثيراً في نشر تعاليم المســيح، إلاّ أن المبشــرين لم يتقيدوا بهذه الحدود بأي شــكل، فانتشروا إلى مســافات تبعد كثيراً عن حدود هذه الإمبراطورية. فالأبطال من المســيحيين والمســيحيات، لم يعتمدوا على حماية حكومة الإمبراطورية، بل اتكلوا على الله الحــي، ولم يكونوا خدام الحضارة بل خدام المســيح.كما أنهم لم يكونوا يحملــون الســلاح ولا البضائع فــي ترحالهــم وتجوالهم، إنما حملــوا الأخبار الســارة والبشــارة المفرحة التي تظهــر حب الله للإنســان. فتوغلت عملية التبشير بالإنجيل إلى بلدان ابعد بكثير من حدود السيطرة الرومانية. وهكذا تحــدث ترتوليانوس بحماســة عن اهتداء عــدد كبير مــن الناس»بين صفوف قبائل الجيتوليين الامازيغية (Getules) والمقاطعات الفســيحة الواســعة للموريــين، التي تعذر على الرومان بلوغها،ولكنها خضعت للمســيح»[28] أما أطــلال الكنائس فقد وجدت في قرى صغيرة نائية حتى أنها لم تُســجّل في المســتندات الرومانية.[29] وقد رفعت النقوش علــى قبور الأموات من المزارعين المســيحيين والأمراء المســيحيين، وكتبت الكلمات القصيرة لإحياء ذكراهم وذلك في أماكن بعيدة عن حدود الإدارة الرومانية. إن محبة الله لا تُقيّد بقيود بشرية، فهولاء المؤمنون الممتلئون من حبه تعالى، نقلوا هذا الحب إلى أقصى المعمورة.

28- Adversus judaeos 7

29- Camps p. 157

للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص الكرازة في القرون الأولى، في أفريقيا الشمالية، يمكن الرجوع إلى المصادر الثانوية التالية:

Neill pp. 37

Frend pp. 94-111 ; Cooley pp. 28-30 ; Latourette vol. I pp. 92-3

الجزء الثاني

عصر تَرتُولِيَانُوس

(أواخر القرن الثاني- أوائل القرن الثالث)

الفصل الخامس

أسلوب الحياة الفاضلة

«الكنيســة المســيحية فريدة في نوعها. فهي أقدم من أية منظمة أو مجموعــة منظمات موجــودة الآن على كوكبنا. ولم تتمكــن أي ديانة أخرى من تكوين مؤسســة نظيرها. فالديانة اليهودية التــي لها فضل كبير على المســيحية طورت جماعة انتشــرت كالكنيســة المســيحية، في كل أنحاء العالــم. ومع ذلــك فبنية الديانــة اليهودية هي بنية عنصريــة بقدر ما هي دينيــة. أمــا الديانة المســيحية، فتختلف عــن اليهودية بكونهــا مزيجاً من أجناس مختلفة لا يربط بينها رابط الدم أو العرق.»[30] هذا القول هو للمؤرخ لاتوريت.

لكن، ما هو إذاً الرباط الذي يوحد بين هؤلاء الناس المتعددي الأجناس؟ هل هو حقاً خضوعهم لقوانين الســلطة الكنسية وأحكامها؟ أم هل هو رباط غير منظور؟ فما هي حقيقة الكنيسة في الواقع؟ وهل هي اليوم كما كانت عليه في ما مضى؟ أو هل حققت شيئاً ما بمرور الزمن؟ هل خسرت شيئاً؟ هل الكنيسة هي تنظيم معين، أم هل هي ببساطة فكرة مثالية؟

يتحدث المؤرخ لاتوريت عن المبادئ العظيمة التي أوحتها الديانة المسيحية فــي أيامها الأولــى: «من بدايتها ثبّتــت هدفاً، يبدو أنها أخذته مباشــرة من مثالها الأعظم يســوع المسيح نفســه، وهو مثال الراعي.» وقد انتدب أتباع المســيح أنفســهم «للاهتمام بالأفراد عن طريق التضحية والمحبة في سبيل ربح النفوس لما تراه المســيحية انه الحياة الأســمى، ومســاعدتهم في النمو على هذا الأساس.»[31]

فالكنيسة الأولى في أورشــليم، كما يعلمنا سفر أعمال الرسل، كانت جماعــة تقوم بهذه الخدمــة. وكعائلة كبيرة، احتضنت أناســاً من مختلف الاعمــار، يعرفــون ويحبون ويســاعدون بعضهم بعضاً في الســراء والضراء. وكانــوا كل يــوم يجتمعون في الهيكل، ويأكلون ســوية فــي بيوتهم، بفرح

30- Latourette Vol. I. p. 251.
31- Latourette Vol. I. p. 252.

وسرور، وبقلوب كريمة معطاء، وهم يعلّمون ويشجعون بعضهم بعضاً، ويصلون سوية، ويشكرون الله على بركاته الواضحة التي منحها لهم.[32] وكانوا يرحبون ترحيباً حاراً بكل من اتبع سيدهم الرب يسوع المسيح.ولربما بسبب سمو معاييرهم، أو ربما بسبب العجائب والمعجزات التي صُنعت في وسطهم، وقع رعبهم على كل الذين في هذه المدينة، حتى أن أحداً لم يجرؤ على الاختلاط بهم: «أما الآخرون فلم يكن احد منهم يجسر أن يلتصق بهم. لكن الشعب يعظمهم. وكان مؤمنون ينضمون للرب أكثر. جماهير من رجال ونساء.»[33]

وعليه، فقد اضطر هؤلاء المسيحيين المؤمنين المتحدين إلى أن ينقلوا هذه الأخبار السارة إلى اليهودية والسامرة، وخلال بضع سنوات إلى أقاصي الأرض.[34] وقد قبلت معظم هذه الأصقاع البعيدة رسالتهم بفرح. ونتيجة لذلك، فقد تكونت جماعات مسيحية جديدة، على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وفي أوروبا وآسيا الصغرى وحتى إلى المناطق الأبعد من ذلك. وكانوا يجتمعون معاً، ليعلّموا بعضهم، وليشجع احدهم الآخر، كما فعلت الكنيسة الأولى في أورشليم.

لقد كانت كل جماعة من المؤمنين تتسم بقدر عالٍ من الوحدة، إلا أن وحدة هذه الجماعات ككل كانت مسألة نظرية أكثر من كونها أمراً عملياً، ذلك أنهم كانوا مبعثرين في مناطق بعيدة بعضها عن بعض بشكل لا يسمح بالاتصال الكثير بينهم. ولكن، شيئاً فشيئاً أخذت روابط هذه الجماعات تتصل من مدينة إلى مدينة، حتى اشتدت اشتداداً وثيقاً وقويت. فهم عاشوا في البيئة نفسها، وجابهوا المشاكل والفرص عينها. وفي الوقت الذي كانوا يلاحقون أعمالهم التجارية والمهنية من مكان إلى آخر، كان من الطبيعي أن يتطارحوا الكلام عن الأمور ذات الاهتمام المشترك. وأكثر ما كان يواجههم من تحديات هو كيف يعيشون للمسيح بكل أمانة وإخلاص وسط عالم وثني فاسد، وكيف يتجنبون مغريات ورذائل الحياة المدنية الوثنية،

32- (أعمال 2: 42 - 47)
33- (أعمال 5: 13 – 14)
34- (أعمال 1: 8)

وكيف يستطيعون أن يربحوا نفوس أصحابهم وجيرانهم لطريق الحق.

عاش المسيحيون مع الوثنيين، وسكنوا معهم في أفريقيا الشمالية جنباً إلى جنب، وكان قربهم كما هو عليه الحال في آسيا وأوروبا. وكثيراً ما وُجدت أمكنة اجتماعات المسيحيين الحجرية في المدن إلى جانب مزارات الإله مِثْرا (Mithra)، أو قبالة المعابد الوثنية. وفي الأرياف، قد نجد القبور الحجرية المسيحية، في الأماكن المخصصة للأرواح. كذلك فإن بيوت المسيحيين كانت موزعة بين بيوت جيرانهم الوثنيين، ولم يفكر هؤلاء قط في الانعزال، وإقامة أحياء خاصة بهم.

لم تتميز الجماعات المسيحية عن المجتمع الوثني بمواقعها الطبيعية أو المادية، ولكنها تميزت عنها بطبيعة وأسلوب الحياة التي تحياها. كان جل اهتمامهم أن يكونوا المصباح المنير والأمل الزاهي لكل أهل المدينة، والملح الجيد الذي يُملّح به. لقد شقوا طريقهم مع جيرانهم الوثنيين بجهد وأناة، وتعاملوا معهم بصدق وإخلاص، وسعوا ليتجنبوا كل ما من شأنه أن يسبب المواجهة معهم، كما سعوا بكل جدية لتطبيق الوصية القديمة: «تحب قريبك كنفسك.» وهذه هي المحبة التي كانت تحثهم على التكلم عن خلاص المسيح كلما سنحت لهم الفرصة.[35] لقد اظهر المسيحيون حقيقة إيمانهم بنوعية الحياة التي عاشوها، فلم يكونوا يخجلون بمسيحيتهم، بل كانوا مستعدين ليشرحوا الحق الإلهي لكل من يصغي.

يتألف مجتمع شمال أفريقيا من ثلاث فئات رئيسة. وهذه جميعها كانت

35- (مرقس 12: 13). راجع أيضاً (أفسس 4: 25)؛(رومية 15: 2).
«كانت المسيحية أول ما تتأسس في مكان ما، تقوم بنفسها بأفضل عمل إرسالي. كانت تنمو بشكل طبيعي من الداخل. وكان مجرد حضورها يجذب الناس. كانت نوراً يشع في الظلام وينير هذا الظلام. ومع غياب الجمعيات الإرسالية المتخصصة لهذا العمل المحدد، كانت كل كنيسة محلية بمثابة جمعية إرسالية، وكان كل مؤمن مسيحي مرسلاً وصاحب قلب مضرم بمحبة المسيح، ويسعى جاهداً لربح الناس للطريق نفسه.»
(Schaff Hotcc Vol. II p. 20)
إن الإمبراطور الوثني يوليان (Julien) (361-363) عزا شعبية المسيحية مع انتشارها السريع في بدايتها، إلى ثلاثة أسباب: اللطف، الأمانة، والاهتمام بالموتى (تدبير دفن لائق بالنسبة إلى الفقراء).
(Schaff Hotcc Vol. II p. 381)

حاضـرة في الكنائس المسـيحية، وكان الأمازيغيون يشـكلون الأغلبية. أما الفينيقيـون الذين تزاوج الأفارقة معهم، فكانوا موجودين في المدن والحواضر وكانـوا يمثلون الطبقـة الحرفية والتجارية، على أن الطبقـة الرومانية كانت الطبقة الارسـتقراطية الايطالية، وكانت تمثل أصحـاب الممتلكات الزراعية الواسـعة، وقد شـكل هؤلاء نخبة أهل المدينة وصفوتهم. لكن الكنيسـة جمعتهـم أخوة وأخوات في عائلـة تخطت حدود العرقيـة واللغة والتخوم الاجتماعية الأخرى. أما علاقتهم باليهود، فكانت علاقة صداقة ولطف، وقد استعيض عن المناظرات الحادة التي دونها العهد الجديد مع اليهود، بالتسامح والاحتـرام المتبادلـين، على الرغم من أن ذلك لم يجعلهم يستسـلمون، بأي شـكل من الأشكال، أو يتخلوا عن آمالهم في كسـب اليهود واستمالتهم إلى الدخول في الإيمان.

ومن البديهي أن علاقتهم الحميمة كانت بأولئك الذين يشـبهونهم في الفكر والمعتقد، فالمسـيحيون كانوا في دائرتهم الخاصة، يعيشـون حياتهم بموجب تعاليم المسـيح، إذ كانوا يخدمون بعضهم بعضاً، كما خدم المسيح تلاميذه وغسل أرجلهم. ولم تضع الكنيسة برنامجاً لتغيير المجتمع، بل كان كل همهـا أن تأتي بالنفوس إلى مجتمعها وتغيير مواقفهم ومبادئهم. وقد شـددت على أهمية خلاص الإنسـان كفرد. لقد كان المسيحيون يتوقون إلى أن يصالحوا الرجال والنسـاء مع الله، حتـى يعيش هؤلاء الناس بعد المصالحة بانسجام وتوافق يومي معه سبحانه وتعالى.إلا انه كان لا بد لهم في معرض مسـاعدتهم الفرد على الإيمـان، من أن ينتقدوا الرذائـل الاجتماعية التي قد تعيـق الناس في هذا المجـال. فالعهد الجديد في الواقـع، بالأخص ما جاء من أقوال المسيح، يقدم لنا المثاليات التي لو نفذها جميع الناس فعلاً وبالكامل، لتغيـر المجتمع تغييراً جذرياً. وقـد رأى عدد من أصحاب السـلطة الوثنية أن تعاليم المسـيح هذه فيها مـا يكفي لإجراء تغيير جـذري إذا ما تبناها عدد كبير من الناس، وبإمكانها أن تشـق طريقها إلى أعماق جذور المجتمع، وتصل إلى أساس بنيته.

لـم تشـجب الكنيسـة رسـمياً العـرف القائـم والمختـص بالعبوديـة

والاسـترقاق، كما لم تتصدّ للصراع الوحشـي الهمجي الذي كان يجري في الميادين لإمتاع الناس بقتال بين العبيد، يسـتمر حتى الموت. ولكن الكنيسة كانـت تحث المسـيحيين اللذين يمتلكون عبيـداً، على ضـرورة معاملة هؤلاء العبيـد بتهذيـب ولباقـة، مثلما يرغـب مالك العبـد أن يعامل من سـيده السـماوي.[36] كما أن العبد المسـيحي يجب بالمقابل أن يخدم سيده الأرضي بأمانة وإخلاص كتقدمة مقبولة ترضي الله.[37] وفي الحقيقة، اختار الكثير من المسـيحيين إعتاق عبيدهم، على انه في جميع الحالات كان العبيد مسرورين فرحين كونهم عبيداً لسـيد مسيحي طيّب. وهو بالمقابل، كان فرحاً مسروراً لامتلاكه عبداً، أميناً صادقاً.»وكم رأينا عبيداً لم يكونوا يفتقرون إلى شـيء، بينما هناك رجال أحرار مكرهون على التسول.»[38] هذا ما قاله اغسطينوس بعد مضي مائتي عام.

لم تكن تجارة الرقيق واسعة الانتشار في شمال أفريقيا في زمن الرومان، بالمقارنـة بحالـة هذه التجارة في القرون التي تلت خروج الرومان من شـمال أفريقيـا. فالعبيد فـي الإمبراطورية الرومانية كانوا فـي غالبيتهم من أصل يوناني أو من شـمال أوروبا وليس من أفريقيا. ولم يعان الأمازيغيون العبودية إلا في الظروف الاستثنائية. ولم تشجع الكنيسة المؤمنين على شجب هذه الظاهرة، أو الوقوف ضد مثل هذا الوضع الرسمي الذي مارسه المجتمع الوثني آنـذاك. لان الاهتداء إلى المسـيحية لا يحل الإنسـان من تبعيته الشـرعية والتقيـد بنظام المجتمـع الذي يعيش فيه، على الرغم مـن آماله في الحصول على حريته من هذه العبودية. ومع ذلك فعليه آن يتقبل قدره هذا بصبر وتؤدة فـي الوقت الحاضر.»الدعـوة التي دعي فيها كل واحـد فليلبث فيها. دعيت وأنت عبد فلا يهمك. بل وان اسـتطعت أن تصير حراً فاستعملها بالحري. لان مـن دعي في الرب وهو عبد فهـو عتيق الرب. كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد المسيح.»[39]

36- (افسس 6: 9)
37- (افسس 6: 5-8).(تيطس 2: 9 و10)
38- Hamman 134 [Sermon 356:7]
39- (كورنثوس 7: 20-22)

لم يكن عاراً كون الإنسان عبداً، فكان لدى العديد من العبيد، وبخاصة اليونانيين، درجة من الثقافة والتعليم أعلى مما عند أسيادهم، وكان قد سمح لهؤلاء العبيد بأن يتجولوا في أملاك أسيادهم وفي شوارع المدينة بحرية كاملة، وحقاً قال المعلم المسيحي الشهير أمبروزيوس (Ambroise) إنه قد يكون العبد أعلى منزلة من سيده في صفاته وأخلاقه، وحتى أكثر حرية من هذا السيد لان السيد، قد يكون عبداً لإبليس والخطيئة.

لم تسع المسيحية وراء الاضطرابات والمشاكل، ولا أثارت استياء الناس، بل على نقيض ذلك، علّمت الإنسان كيف يبقى سعيداً في أي ظرف من الظروف أو حال من الأحوال.[40] المسيحية لم تهاجم نمط الحياة الذي كان يمارس الرق والعبودية، تماماً كما أنها لم تهاجم أياً من مظاهر الحياة في المجتمع الوثني. ذهبت المسيحية ابعد من ذلك، فقد قدمت طرائق وأساليب جوهرية جديدة يُنظر من خلالها إلى العلاقات الإنسانية: «فالأولون آخرون، والأعظم يكون خادماً للجميع، وهي تدعو ذاك الذي يجلس في المؤخرة إن يتقدم ليأخذ المقعد الأول، وملكوت السماوات يخص الأولاد الصغار. لم ينظر المسيحي إلى مصالحة الشخصية فقط، ولكنه نظر إلى مصالح الآخرين أيضاً، فقد أدار الخد الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن، وذهب ميلين مع الذي سخّره ميلاً واحداً، وصلّى من اجل اللذين أساؤوا إليه، ونجد أن لدى الإنسان المؤمن الكثير من الأمور المشتركة مع عبده المسيحي، ما لا يجده مع عائلته الوثنية: فهو يتمتع مع عبده بإيمان مشترك، ويتقاسمان المخاطر عينها التي قد تأتي نتيجة لهذا الإيمان المشترك. ولم يكن هناك فوارق بين المسيحيين في نظر الله والكنيسة، لأنه «ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكراً وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع.»[41] لقد استدعي المدعو يولبيستوس (Euelpistus) وهو عبد من عبيد آل البيت الإمبراطوري إلى المحكمة في روما في القرن الثاني للميلاد، ولدى سؤاله أجاب:»أنا عبد الإمبراطور، ولكنني مسيحي في الوقت ذاته، حيث أن الرب يسوع المسيح قد

40- (فيلبي 4: 4، 11-13).(تكوين 39: 20-23)
41- (غلاطية 3: 28)

حررني، وبنعمته المعطاة لي، أتمتع بالرجاء نفسه لإخوتي بالرب.»

تبوأ بعض العبيد مراكز هامة، حتى وصل بعضهم إلى مراكز قيادية بين الجماعات المسيحية: فبعضهم عيّنوا نظّاراً على مجموعاتهم المحلية. ويعتبر المسيحيون انه امتياز أن يخدموا عبداً مسجوناً أو مضطهداً بسبب إيمانه بالمسيح، وكانوا جميعهم يرغبون في تكريم كل عبد حصل على تاج الشهادة المختوم بالدم. إن إظهار مثل هذا الحب نحو العبيد هو إبطال غير مباشر لمفعول نظام الرق المذل، وإيذان بأفول نجمه. فالكنيسة لم تحاول أن تقتلع شجرة العبودية - لان ذلك سيكون عملاً طويلاً وخطراً - ولكنها بالمقابل قشرت لحاء هذه الشجرة وتركتها لتموت موتاً بطيئاً.

عندما كان المسيحيون أقلية ضئيلة، لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا الكثير ضد العنف والقسوة والانحراف الجنسي الذي استشرى بين المجتمعات الوثنية، على أنهم لم يكونوا هم أنفسهم طرفاً في مثل هذه الأعمال، ولا حضروا ذلك القتال الوحشي الذي كان العبيد يتبارون به في الساحات والميادين العامة لإمتاع الناس، كما أنهم لم يشاركوا في مشاهدة المسرحيات التي لا تخلو في مضمونها من الانحراف الخلقي. فإذا ما غرق الآخرون في مثل هذه الحمأة، فالمسيحي لم يكن ليفعل ذلك. كان المسيحيون في العالم ولكنهم «ليسوا من العالم» وكانوا يعلمون هذه الحقيقة. صلّوا بعضهم لأجل بعض، كما فعل سيدهم يسوع المسيح لأتباعه عندما قال: «لست اسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير.»[42] وهكذا، فكلما ازداد عدد المسيحيين سنة بعد أخرى، كلما نقص عدد المشاهدين لهذه المباريات، الأمر الذي حمل الوثنيين على إلقاء اللوم على المسيحيين الذين اعتُبروا السبب في انخفاض عدد المتفرجين وفتور شوقهم إلى الألعاب والمسرحيات، وضعف ولعهم بها.

إلى ذلك، فإن الكنيسة لم تحاول أن تزيل التفاوت المتأصل في بنية الطبقات الاجتماعية المدنية والأصقاع الريفية، فقد آمن المسيحيون بأن الله هو الذي يمنح الأرض و الأموال لبعضهم، تماماً كما يمنح المهارة

42- (يوحنا 17: 15)

والقدرات لبعضهم الآخر، إلى جانب المواهب الأخرى المتعددة، من فن وقوة شخصية وطلاقة لسان وغيرها. وقد أصرّ المسيحيون على معاملة الناس اجمع باحترام متساو. فلم يهابوا الأقوياء ولا احتقروا الضعفاء. لقد خافوا الله وحده، وأحبوا جميع الناس. وكانوا يستقبلون الفقير والمتواضع بلطف ويكيلون له بالمعايير الصادقة والأمينة عينها، التي يكيلون بها للأغنياء ذوي النفوذ. ففي اجتماعات الكنيسة، كانوا يرحبون بالجميع على حد سواء. قال يعقوب أخو المسيح في الجسد: «لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحاباة. فإنه إن دخل إلى مجمعكم رجل بخواتم ذهب في لباس بهي ودخل أيضاً فقير بلباس وسخ، فنظرتم إلى اللابس البهي وقلتم له اجلس أنت هنا حسناً وقلتم للفقير قف أنت هناك أو اجلس هنا تحت موطئ قدمي، فهل لا ترتابون في أنفسكم وتصيرون قضاة أفكار شريرة؟»[43] إن أخلاق الإنسان هي من حيث الأهمية أكثر بكثير من ثرائه ومركزه الاجتماعي. فقد كانت النقوش أو الكتابات على قبور المسيحيين، والمُعرّفة بهم، لا تشير إلاّ نادراً إلى المراكز الاجتماعية لأولئك الموتى. إلا أنهم كانوا ينحتون أحياناً رموزاً تدل على حرفة الميت، أو يرسمون بدقة الأدوات التي يستعملها في مهنته بالإضافة إلى كتابة عبارات تنم على المحبة العائلية.

كانت مثل هذه المواقف ثورية للغاية، إذ كانت تلمس أي إنسان حساس. ولكن المسيحيين لم يكونوا دائماً موضع استحسان في أعين أعضاء المجتمع الآخرين. فبعض أعضاء هذا المجتمع رأى فيهم عاملاً مفسداً يسبب الخلاف والشقاق الحاصلين بين الناس، لأنهم كانوا على استعداد دائم لأخذ خط فكري مستقل خاص بهم. إلى هذا، فقد كانت طاعة المثاليات الإمبراطورية أمراً ملزماً يجب أن يغرس بثبات في قلوب الناس. فإذا ما نزع احد إلى مناقشة مثل هذه العادات الوطيدة الراسخة في المجتمع آنذاك، فإنه يعرض نفسه لتهمة تعكير سلام الإمبراطورية الرومانية، بل كذلك لتقويض الحضارة العظيمة التي تمثلها.

بعد مرور قرن ونصف على صلب المسيح، كتب كلسوس (Celse)

43- (يعقوب 2: 1-4)

انتقادات عنيفة يتهم فيها المسيحيين برفض خدمة الجيش. وقد قال كلسوس إن عملهم هذا يعرض حياة الإمبراطورية للخطر، إذ ماذا يحدث مثلاً لو حذا جميع الشعوب حذوهم؟ ألا يؤدي ذلك إلى اكتساح البرابرة هذه الإمبراطورية؟ أما أوريجانوس (Origene)، فقد دافع عن هذا الموقف اللا عنفي للمسيحيين، مشيراً إلى أن المسيحيين لا يطمحون إلى انقسام المجتمع، ولا إلى مساندة بلد آخر ضد بلدهم، وإنما إلى رفع جميع الناس إلى المستوى الأخلاقي الأسمى، وحتى، أن أمكن، إلى انتزاع رغبة الناس في أضرام الحروب. وفي هذه الفترة بالذات دافع ترتوليانوس عن المسيحيين قائلاً أنهم بعيدين كل البعد عن تهمة تمزيق الإمبراطورية، لأن الواقع يثبت أن المسيحيين هم أحسن رعايا الإمبراطورية وأفضلهم على الإطلاق، ومبادئهم هذه، لتجيز لهم القيام بأي عصيان مسلّح أو شغب مخل بالأمن. وهم لم ولن يتآمروا ضد السلطة، بل على نقيض ذلك، يقدمون الصلوات إلى الله تعالى ليحفظ الإمبراطور ويطيل بعمره ويمتعه بحكم ملؤه السلام والاستقرار. إنهم لا يهتمون بالسياسة، وليس لديهم أية طموحات نحو قوة أرضية. وهم ببساطة يرغبون في أن يُترَكوا بسلام. فقد قال سيدهم:»مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون.»[44] كما أعلن ترتوليانوس من شمال أفريقيا بصريح العبارة ما يلي:»لقد بَرُدَ عندنا كل ما يعتبرها الناس طموحاً في سبيل المجد الأرضي أو المراكز. ولسنا مضطرين إلى تشكيل اتحادات لمثل هذا الغرض. وليس ما هو ازهد من العمل السياسي بالنسبة إلينا، لأنه مغاير لمبادئنا. ونحن لا نعترف إلا بدولة واحدة، وهذه الدولة هي العالم بأسره.»[45]

لم يكن المسيحيون من السذاجة بحيث يفترضون أن المجتمع الوثني بأسره يرغب في قبول المسيحية واتساع مقاييسها. ولا أن شرور تلك الحضارة، يمكن إلغاؤها بالوسائل السياسية، إذ كثيرون من ذوي النفوذ كانوا يستفيدون من الفساد والجور المستشرين فيها. كما لم يكن هدف المسيحيين انتقاد النظام

44- (يوحنا 18: 36)

45- Apologeticus 38

الاجتماعي والاقتصادي الوثني، بل بالحري أرادوا أن يبينوا للأفراد الطريق المؤدي إلى حياة أفضل: تأسيس جماعة جديدة داخل المجتمع الموجود، جماعة ذات معايير مسيحية يطبقها شعب مسيحي أصيل.

أثبتت المسيحية جدارتها بالامتداد من خلال نقاوة الحياة الواضحة لأعضائها. هذا، وقد أرست لنفسها نمط حياة مغايراً تماماً لحضارة ذلك الزمان التي عرفت بانحرافاتها الجنسية وفجورها، وغطرستها المستفحلة، ومبارياتها وألعابها الدموية، ومواقفها الوحشية القاسية في معاملة العبيد والعمال والخدم الذين يخدمونها. وعلينا ألاّ نتصور أن المسيحيين القدامى كانوا مثاليين كاملين، ولكنهم كانوا، على الأقل، يطمحون إلى الكمال. لقد أقاموا وزناً كبيراً للصفات النبيلة من مثل الأمانة والاستقامة والحنو والشفقة، وقد عقدوا العزم على أن يحبوا جيرانهم كأنفسهم. لقد كان عندهم في بعض الأحيان ذنوب ونقائص، لكنهم، بخلاف باقي الناس، كانوا مستعدين للاعتراف بأخطائهم ومواجهتها ومحاولة معالجتها. إلاّ أن هؤلاء المؤمنين الأوائل، في شمال أفريقيا، كانوا يعرفون انه بعد انزلاقهم يستطيعون القيام وإتّباع المسيح عن قرب أكثر من ذي قبل.

كلما اشتد الظلام، بانت النجوم وضاءة لامعة. هكذا أضاءت محبة المسيحيين وأمانتهم وسط عالم معوّج وملتو. لم يشتك المسيحيون يوماً ولا تأففوا. لقد رفضوا أن يتورطوا في المنازعات، وكانوا مستعدين دائماً لمساعدة كل محتاج. وعندما كنت تلقاهم في الشوارع، كنت تراهم يتحدثون بإخلاص عن أفراحهم وعن أحزانهم. كانوا يعزّون بعضهم بعضاً، ويصلّون بعضهم لأجل بعض. وعندما كانوا يسيرون إلى أعمالهم، كانوا يترنمون بترانيم روحية محببة إلى قلوبهم المشتاقة. كانوا يشكرون الله في كل حين وعلى كل شيء، وكانت حياتهم واضحة سامية فوق جيرانهم. كانوا يشعرون بنهم شعب الله الخاص وكانوا يعيشون التوصية الكتابية القائلة:»فالبسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين أحشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً ووداعةً وطول أناة. محتملين بعضكم بعضاً ومسامحين بعضكم بعضاً إن كان لأحد على أحد شكوى. كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم

أيضاً. وعلى جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال.»[46]

لقد اهتموا فعلاً أحدهم بالآخر. وكتب الرسول بولس إلى أخ مؤمن بخصوص أحد عبيده اللصوص الهاربين قائلاً له إن هذا العبد قد اعتنق المسيحية لتوّه، وحثه على لزوم مسامحته وقبوله «لا كعبد في ما بعد أفضل من عبد أخاً محبوباً.»[47] إن هذه النظرة التي كان المؤمنون ينظرون بها إلى الحياة لم تمت أبداً بنهاية العصر الرسولي. فقد كانت كل من بريبتوا السيدة، وفيليستاس خادمتها، تقاسمان الإيمان المشترك، فعاشتا وماتتا سوية، وكانتا تشجعان وتطمئنان إحداهما الأخرى، وذلك على المدرج الروماني بمدينة قرطاجة. هكذا كان اتحاد الجماعة المسيحية والتحامها، إذ كان بإمكان الأرامل واليتامى والمسافرين البعيدين عن بيوتهم وذويهم أن يجدوا الدفء والترحيب المملوءين محبة وعطفاً، حين تستضيفهم العائلات المسيحية. وحتى الوثنيين واليهود في الجوار، كانوا يحصلون على المساعدة التي يقدمها لهم المسيحيون. ولم يكن أحد يعرف شيئاً كهذا قبل بزوغ فجر المسيحية في العالم.

كان الزنا والدعارة وغيرهما من الرذائل القبيحة تغرز القيح العفن في المجتمع الوثني الذي كان المسيحيون يعيشون فيه جنباً إلى جنب معهم، وكان هذا يسبب للناس تعاسة لا توصف وشقاء لا يحد. لقد جعل القانون عملية الطلاق أمراً سهلاً، وكان يحصل لأتفه الأسباب. الأمر الذي جعل الحياة العائلية حياة مستحيلة تقريباً. كان الوالدان يعيشان في محيط يشوبه الشك وعدم الثقة، وكان العديد من الأولاد لا يعرفون أين أبواهم، ولا يعرفون حتى من هم أبواهم. أما حياة الجماعة المسيحية، فكانت تختلف اختلافاً جذرياً. فالمسيحيون كانوا يحترمون الزواج، وكانوا يتحدثون مطولاً عن العلاقات الخاصة المميزة بين الزوج وزوجته، والتي يشبّهها الكتاب المقدس بالعلاقة بين المسيح والكنيسة:» أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب...... أيها الرجال أحبوا نسائكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة

46- (كولوسي 3: 12-14)
47- (فليمون 16 و17)

واسلم نفسه لأجلها.»[48]

لقد جاءت المسيحية بمبدأ جديد إلاّ وهو مبدأ الإخلاص والولاء. إلاّ أن إخلاص الزوجين احدهما للآخر، تجاوز جميع الولاءات الإنسانية الأخرى. لم يكن الطلاق اختيارياً عند المسيحيين. فلقد قال المسيح:»ويكون الاثنان جسداً واحداً إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان.»[49] تعلّم القرينان أن يهتما ويقدرا احدهما الآخر، ويبذلا قصارى جهدهما ليعيشا بتالف وانسجام. وآمنا بان المقصود من القران هو المساعدة المتبادلة بين القرينين، والتشجيع في الأمور الروحية والعملية. فان علاقتهما الزوجية تتنامى باستمرار وتصبح نفيسة وغالية. قال ترتوليانوس:» يا لروعة الاتحاد الزوجي بين مؤمنين ذوي رجاء واحد، وعهد واحد، وتهذيب واحد، وأسلوب حياة واحد. إنهما أخ وأخت، اثنان من خدم الرب، روح واحدة وجسد واحد.... يصليان سوية، ويصومان معاً، يعلّمان وينصحان ويدعمان احدهما الآخر. يذهب كلاهما إلى كنيسة الله، ولمائدة الرب. يتقاسمان المحن والاضطهادات مع الآخرين، والنمو الروحي. فلا يكتم واحدهما شيئاً عن الأخر، ولا يتجنبه ولا يغضبه، يزوران المرضى بسرور، ويقدمان الاحتياجات للمعوزين ويتصدقان بسخاء، ولم يكونا في حاجة إلى إخفاء رمز الصليب ولا إلى كبح الفرح في المسيح ولا إلى إعاقة بركاته. يترنمان بتسابيح ومزامير معاً، والمسيح يسر بما يراه ويسمعه منهما، ويمنحهما سلامة.وعندما يجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه، يكون الرب في وسطهم، وحيثما يكون الرب لا يستطيع إبليس أن يأتي.»[50]

فحيثما يعني الارتباط الزوجي تشكيل وثاق جديد، فهو ضمناً حل الروابط القديمة. فالزوجان كمسافرين يحزمان أمتعتهما ويودّع كل منهما أبويه والبيت الذي نشأ فيه وترعرع. وباتحادهما يتأسس بيت جديد، ومهما كان هذا البيت متواضعاً، فإنهما يغنيانه بمحبة المسيح. تقول كلمة الله عن الاتصال والانفصال: «من اجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته.

48- (افسس 5: 22 و25)
49- (مرقس 10: 8 و9)
50- Ad Uxorem 2:8 (راجع ترجمة Schaff في Hotcc Vol. II p. 364)

ويكون الاثنان جسداً واحداً.»[51] إن العادة القديمة أن تنتقل الزوجة لتعيش مع زوجها في بيت أهله هي عادة محفوفة بالصعوبات والمخاطر. ولكن كسر هذا التقليد ليس بالأمر اليسير، إذ يجب القيام به بطريقة ودية وعاطفية. فالأقارب المسنون يتوجب احترامهم وتقديرهم، وإذا دعت الحاجة إلى إعالتهم، ينبغي تقديم مثل هذه الإعالة. ولكن، على الآباء ألاّ يتوقعوا من أولادهم اللذين تزوّجوا طاعة عمياء وإذعاناً كاملاً بعد زواجهم. فقد أصبح الزوج الآن مسؤولاً عن بيته، وعن زوجته، وطبعاً، عن أولاده في ما بعد. ولا يمكن للزوج في أي حال من الأحوال، ولأي سبب من الأسباب، أن يتهرب من مسؤولياته وواجباته. وحال الأولاد كحال والديهم. فبعد أن يكبروا يتركون هم بدورهم ذويهم وبيوت آبائهم، ويتزوجون ليبنوا لأنفسهم عشهم الزوجي الخاص بهم. وهم يعلمون علم اليقين أن بإمكانهم الاتكال على إعانة والديهم وحبهم لهم، وعلى الصلوات التي يرفعها هؤلاء المحبون لأجلهم، في وقت احتياجاتهم.

والنساء بشكل خاص، سررن بالتقدير الذي صار من نصيبهن في الجماعة المسيحية. كنّ قبلاً مبعدات عن العديد من الديانات السرية، كما أن دورهن في ديانات أخرى كان يثير الشبهات. أمّا المرأة المسيحية، فقد كان لها مقامها وامتيازاتها الجديرة بالاحترام، وكانت لمواهبها وأحلامها متنفسات ومخارج مفيدة ونافعة، خصوصاً في ما يتعلق بالتوجيهات والإرشادات التي كانت تقدمها للشابات والأطفال. فقد كان هناك دائماً أرامل وأيتام يحتاجون إلى العناية، فضلاً عما يقدّم للمسافرين من حسن ضيافة وعناية. وكان الزوج يستطيع أن يترك كثيرا من المهام والمسؤوليات في يدي زوجته المسيحية بثقة كاملة، وكان يقدّر مساعدتها اللطيفة ونصائحها السديدة. وقد أشار اغسطينوس إلى أن حواء لم تؤخذ من أقدام آدم لتكون بذلك امة له، ولا أخذت من رأسه لتتحكم به وتستعبده، ولكنها أخذت من جنبه حتى تكون شريكة حياته الودودة المحبوبة.[52] فكم هو جميل أن يتمكن الزوجان من أن

51- (افسس 5: 31)
52- Schaff Hotcc Vol. II p. 363

يصليا معاً لأجل كل ما يهمهما أو يختص بحياتهما. ويبتهجان معاً عندما يستجيب الله لهذه الصلوات. «امرأة فاضلة من يجدها لانّ ثمنها يفوق اللآلئ. بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة....... تفتح فمها بالحكمة وفي لسانها سنّة المعروف.»[53] كانت بريسكلا نموذجاً لمثل تينك النسوة، وهي وأمثالها مذكورات في صفحات الكتاب المقدس، وكان هناك كثيرات مثلها في أفريقيا الشمالية.[54]

الأولاد أيضاً، كانوا موضع ترحيب في الجماعة المسيحية. فقد قال الرب يسوع نفسه عنهم: «دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله.»[55] وغالباً ما كان إيمان الأطفال العادي البريء دافعاً للأبوين، وحافزاً لهما للعبادة. وعندما كان الأبوان يقرآن الكتاب المقدس، كانا يجدان نصائح كثيرة عن كيفية تربية أبنائهم «بتأديب الرب وإنذاره.»[56] كان تيموثاوس واحداً من أولئك المباركين بهذه التربية المسيحية منذ نعومة أظفارهم، فكتب له بولس قائلاً: «إذ أتذكر الإيمان العديم الرياء الذي فيك الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك افنيكي ولكنني موقن انه فيك أيضاً.» ويتابع الرسول متحدثاً إلى تيموثاوس: «وإنك منذ الطفولة تعرف الكتب المقدسة القادرة أن تحكّمك للخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع.»[57]

كان مثل هؤلاء الأولاد أحراراً في تكريس شبابهم وبذل أفضل فترات عمرهم في سبيل ملكوت الله، مع مباركة ذويهم وتشجيعهم. وبسبب قدرتهم على التمييز بين الصالح والطالح، فقد التصقوا بالأول ورفضوا الثاني. لم تكن لهم ذكريات مخجلة عن ماضٍ حافل بالممارسات الشهوانية، ولا ندموا في يوم على سنين ضائعة. ولم يكتسبوا في يوم من الأيام تلك الأخلاق الإنسانية والنزقة التي كانت لهؤلاء الذين منذ نعومة أظفارهم لا

53- (أمثال 13: 10، 11، 26)
54- (أعمال 18: 26)
55- (مرقس 10: 14)
56- (افسس 6: 4)
57- (2 تيموثاوس 1: 5 ؛ 3: 15)

يفكرون إلا في أنفسهم.

لقد وفروا على أنفسهم ذلك الصراع المرير الذي يعيشه كل إنسان يأتي إلى المسيح في كهولته راغباً في ترك عاداته الشخصية الخاطئة الراسخة. أما أن يولد الإنسان في عائلة مسيحية، فهذا امتياز مدهش جميل. وكذلك عودة الإنسان إلى البيت المسيحي الموحد الذي تسوده المحبة والمودة، بعد يوم شاق في المدرسة أو في السوق أو في الشارع أو في المدينة، فإن ذلك لا بد من أن يملأ قلب المؤمن الشاب بالسرور والغبطة.

كان المسيحيون يشجعون بعضهم بعضاً، ليعملوا بجد ويبذلوا عرق الجبين في كسب أرزاقهم، وهكذا يتمكنون من مساعدة الآخرين ممن هم اقل منهم حظاً، خصوصاً أولئك الذين لا يستطيعون الاستمرار في أعمالهم، بسبب المرض والعجز.[58] والمسيحية تعتبر العمل واجباً طبيعياً على كل أتباعها. كان الرسول بولس يكسب قوته من طريق عمله اليدوي، وفي صناعة الخيام. ويظهر أن الأعمال اليدوية لم تكن معتبرة من الأعمال المخزية.[59] وقد كتب بولس: «إذ انتم تعرفون كيف يجب أن يُتَمَثّلَ بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم ولا أكلنا خبزاً مجاناً من احد بل كنا نشتغل بتعب وكدّ ليلاً ونهاراً لكي لا نثقل على احد منكم»[60]

في الواقع، بدأ كثيرون ممن اعتنقوا المسيحية، ولأول مرة في حياتهم، بمزاولة عمل شريف وكما يقول الكتاب المقدس: «لا يسرق السارق في ما بعد بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه ليكون له أن يعطي من له احتياج.»[61] نظرت الكنيسة المسيحية بازدراء واستنكار إلى أولئك الأصحاء القادرين على أن يعملوا، ولكنهم كسالى مهملون. فكتب بولس الرسول بهذا الخصوص قائلاً: «فإننا أيضاً حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا انه إن كان احد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل.»[62] فالمسيحيون هم من يكونون «مستعدين

58- (أعمال 20: 34 و 35)
59- (أعمال 18: 3)
60- (2 تسالونيكي 3: 7 و8)
61- (افسس 4: 28)
62- (2 تسالونيكي 3: 10)

لكل عمل صالح»[63] وبالخص إذا كان عليهم إعالة من يعتمدون على ما يجنونه من معاش. «وان كان احد لا يعتني بخاصته ولا سيما أهل بيته فقد أنكر الإيمان وهو شر من غير المؤمن.»[64] لقد كانت هناك فرص كثيرة للذين يريدون أن يعملوا في المدن والقرى والأرياف. ولكل من لم تمنعه كبرياؤه من تلويث يديه بأية حرفة مهما كانت وضيعة. ولم تكن الأعمال الشاقة والأوضاع الاجتماعية المتدنية تعتبر وصمة عار ففي زمن الاضطهاد، أُرسل الكثير من الناس إلى المناجم، وكان المؤمنون الذين يسخّرون للعمل في هذه المناجم يفتخرون بعملهم هناك، وهم يمجدون الرب دائماً، ويسبحونه على الرغم من أنهم في وضع لا يحسدون عليه. وكانوا يؤمنون بأن الله هو الذي أرسلهم إلى هذا المكان الوضيع ليكونوا نوراً يضيء في الظلمة كرسل المسيح، وليس كسجناء للإنسان.

ومع هذا، فقد كان هناك أعمالاً لا يقبل بها المسيحيون. فهم لا يقبلون مثلاً أن يعملوا كمجالدين. والمجالد كما أسلفنا، هو شخص يقاتل حتى الموت لإمتاع الجماهير في الإمبراطورية الرومانية، وبخاصة في ذلك العصر الذي تميز بالترويع والترهيب، سواء أكان هذا الترويع والترهيب ضد الإنسان نفسه أو ضد الحيوان على حد سواء. كذلك لم يكن المؤمن يقبل أن يشارك أو يتورط في أعمال الدراما على المسارح الوثنية، بسبب ما يعرض هناك من مشاهد بذيئة ولا أخلاقية - أساطير وخرافات الآلهة - تلك الأساطير التي كانت تُمثل بقناع ديني على مرأى الجماهير الفاسقة الفاسدة. والمسيحي لا يشرك نفسه في أي شكل من أشكال الوثنية أو علم التنجيم، أو أية مهنة ترتبط بعبادة الأوثان، كصناعة المصابيح وأكاليل الزهور وغيرها من الزخارف والحلي التي تخص المعابد. ولم يكن ممكناً للمسيحي أن يقبل العمل كمعلم في مدرسة لان عليه أن يعطي دروساً تتنافى ومبادئه المسيحية. فجدول الضرب لم يكن في ظاهره مؤذياً، غير أن حروف الهجاء كان يتم استظهارها وحفظها غيباً من طريق أنشودة ترتل فيها أسماء الآلهة الوثنية.[65] كذلك

63- (تيطس 3: 1)
64- (1 تيموثاوس 5: 8)
65- لقد اعتبر ترتوليانوس أنه كان من الضروري على الأولاد المسيحيين في المجتمع الوثني

كان المسيحي يرفض أن يكون قاضياً حيث انه قد يطلب منه أن يحكم بسفك دم. والمسيحي لم يكن يرغب في أن يكون محامياً حيث انه قد يطلب منه أن يدافع عن رجل مذنب والترافع لصالحه، أو قد يطلب منه اتهام رجل بريء يتم تجريمه. ولا يستطيع المسيحي أن يكون خطيباً عاماً خصوصاً إذا كانت خطبته هذه تشتمل على التملق والمداهنة والإطراء والأكاذيب، وذلك لتمجيد حاكم مجرد من المبادئ الخلقية، أو للثناء على احد المتبرعين الوثنيين. وقد تخلى رجال كثيرون عن أعمال كانوا قد باشروها، لأنهم لم يستطيعوا أن يوفقوا بينها وبين ضمائرهم أو مبادئهم المسيحية، واكتفى هؤلاء بأشغال أكثر تواضعاً. فالغنى، والوسيلة التي تؤمن الحصول عليه، ليسا نهاية المطاف. فالمواعظ الكنسية التي حفظت خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد، تخبرنا بأن الكنيسة كانت تحث المؤمن ذا الإمكانات المتواضعة على أن يقتنع بدخله المحدود. أما ذوو الدخل الكبير، فعليهم أن يكونوا كرماء يدفعون بسخاء لعدد وافر من المحتاجين. وقد طُلب من التجار أن يتأكدوا من تثبيت أسعار عادلة، وأن لا يطلبوا أكثر من هذه الأسعار العادلة من المشترين، وكذلك ألاّ يقبلوا بأسعار أدنى منها.

وخلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد، اعتقد المسيحيون أن خدمة الجيش تتناقض مع الإيمان المسيحي. وبالطبع فإن هذه الخدمة تورطهم في استعمال العنف والاضطرار إلى سفك الدماء، الأمر الذي لا يتوافق مع تعاليم المسيح.[66] فهل بالإمكان أن نتصور الرب يسوع المسيح يقتل إنساناً إذا ما صدرت إليه الأوامر بذلك من قائد فرقة عسكرية؟ ولا حتى، يمكن لإتباعه أن ينفذوا أمراً كهذا. قال ترتوليانوس: «إن تجريد الرب لبطرس من سلاحه، جرد الجنود من أحزمة أسلحتهم منذ ذلك التاريخ فصاعداً.»[67] قد أعطى ترتوليانوس أسباباً أخرى لعدم التحاق المسيحيين بالجيش. فأولاً: إن

أن يلتحقوا بمدارس وثنية: وإلاّ سيشبون أميين. وبالمقابل، سيساعدهم ما حصلوا عليه من تعليم مسيحي في البيت على تقويم ما يدرسونه والتمييز بين الحق والباطل. ففي المدرسة، يكون الفتى المسيحي «في أمان، كمن يقبل السم من دون أن يشربه.»(De Idolatria 10). وهذا الأمر، زاد بالطبع من مسؤولية الأهل لجهة تعليم أولادهم ومساعدتهم على التمييز.
66- مثلاً، (متى 5: 39، 40)
67- De Idolatria 19 ، بالإشارة إلى (متى 26: 52)

مثل هذه الخدمة تضع المسيحي تحت إمرة سيد غير سيده المسيح. وثانياً: فنها تمنعه من الوفاء بواجباته مع عائلته. وأكثر من ذلك، فإن أصحاب الرتب العليا في الجيش ملزمون في أن يشاركوا في الدعاءات والابتهالات الدينية المقدمة للآلهة، وذلك مع كتائبهم. كذلك لم تطلب الكنيسة من الجنود الملتحقين بالجيش أن يتمردوا أو أن يتسرعوا في معارضة ذوي السلطة. ولم تفرض الكنيسة على الجندي الذي اعتنق المسيحية أن يغادر الجيش بسرعة، بل كانت تشجعه على البحث عن عمل آخر حالما يتحرر من قيود عمله السابق. وهذا لم يكن يسبب أية صعوبة، إذ أن الدولة يمكنها أن تملأ مركزه ورتبته بشكل آخر. وهندما يتحرر الجندي المسيحي من التزاماته العسكرية، فذلك لن يؤثر سلباً في الدولة، لأنه بإمكان الولاية أن تملا مركزه ورتبته بشخص أخر من دون أية صعوبة تذكر. هذا، ولم يكن هناك نقص في عدد المتطوعين من الوثنيين في القوات الإمبراطورية. ومن جهة أخرى، لم يكن المسيحيون يجنَّدون ضد إرادتهم، لذلك فإن هذا الأمر لم يثر أية إشكالات أو بلبلة في أوساط الكنائس المسيحية، في شمال أفريقيا.

وعليه، نرى أن المسيحيين بدأوا يشكلون جماعاتهم الخاصة بهم داخل البنية الرسمية للمجتمع الوثني، مع كونهم آنذاك أقلية مضطهدة تكافح لتبقى، وهي داخل غلاف هذه الإمبراطورية الوثنية القوية. وما كان المسيحيون أن يتصوروا في تلك الأيام أن وقتاً سيأتي، يتمكن فيه مسيحي من اعتلاء عرش هذه الإمبراطورية، ومن ثم يَسُنّ قوانيناً تفرض مقاييس ومبادئ مسيحية على العالم المتحضّر بأسره.[68] ومع ذلك كانت الأجيال المسيحية

68- مثلاً، لقد اصدر الإمبراطور قسطنطين في العام 315م قانوناً يحظر فيه وسم العبيد على الوجه. وفي السنة التالية، سهل عملية الإعتاق إذ جعل لها شرطاً واحداً: أن يوقع سيد العبد شهادة بهذا الخصوص، وذلك عوضاً عما كان يدور من قبل من احتفال بالإعتاق في حضور الحاكم ومساعده. كذلك شرّع الإمبراطور لمنع الأهل من قتل الأولاد غير المرغوب فيهم.

Schaff Hotcc Vol. II p. 350، 370

للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص حياة الكنائس المسيحية الأولى، يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:

Green pp. 134 – 199،234 ـ285;Bainton pp. 71 ـ110

Neill pp. 43 – 44;Latourette Vol. I pp. 244،261ـ 265،291

الأولى، في صلاحها الدؤوب والمستقيم، سبباً في احترام جيرانهم ومعارفهم، وباعثاً على قبول الكثير من مثالياتهم في المجتمع العالمي ككل.

Schaff Hotcc Vol. II pp. 334 – 386; Foakes – Jackson pp. 236 – 239

الفصل السادس

الجماعة المسيحية

بعـد أن سـمع المسـيحيون بعض الأمـور التـي تتعلق بحياة المسـيح، واختبروا بأنفسـهم قوة روح المسيح التي كانت تعمل في وسطهم، انكبوا بشـوق وحماسة شديدين على دراسـة ما كتبه أتباع المسيح الأوائل. أولئك الذين رأوا المسيح وسمعوه وعاشوا معه، ماذا يقولون عنه؟ وكيف وضع كل مـن بطرس ويوحنـا ويعقوب تعاليم ربهم موضع التنفيذ والممارسـة، وذلك في المناطق والأقسـام الأخرى من عالم البحر الأبيض المتوسـط، حيث كانوا يعيشون ويسكنون؟ كان شكل الكتابات التي جاء بها المسافرون المسيحيون تختلـف في الواقـع، عما كان عليه الـدرج الملفوف حول المقبض أو المسـلة الخشبية، والذي كان يستعمله اليهود ويعلّمه معلموهم منذ أجيال طويلة. فالمسـيحيون في الحقيقة، كانوا الرواد في اسـتعمال الكتب الملونة المكونة من صفحات مكتوبة باليد ومدمجة بواسـطة الخياطة في مجلدات بشكل يسهل نقلها واستعمالها كمرجعية عند الضرورة.

انكبت مجموعة من الرجال والنساء على قراءة ما كتب عن سير المسيح ورسـائل الرسـل التي اعترضت سـبيلهم. فالقـادرون منهم علـى القراءة بشـكل جيد نسـخوا باعتناء شديد، نسـخة من هذه المخطوطات، أو طلبوا من آخريـن أن يقوموا بذلك. وفي بداية القرن الثالث، لم تعد اللغة اليونانية اللغـة العالميـة المسـتعملة في حوض البحـر الأبيض المتوسـط، لذا طلب أولئـك الذين لم يتمكنوا من فهم لغـة العهد الجديد الأصلية تلك، توضيح معانيـه ومفاهيمه. إلاّ انه كانت هناك ترجمة باللاتينية، وكانت معروفة بين الجماعات المسيحية المثقفة.

كانـت كلمـة الله مصـدراً مشـجعاً للاجتماعـات. وقد شـجع بولس تيموثاوس في افسـس لكي يسـير في الاتجاه عينه إذ قال له: «إلى أن أجيء أعكف على القراءة والوعظ والتعليم.»[1] وكتب يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) تقريراً من روما في العام 150 ميلادية مفاده أن «اجتماعات الكنيسـة في روما كانت تبدأ بقراءة ما سجله الأنبياء من كتابات وما كتبه

1- 1 (تيموثاوس 4: 13)

الرسل»[2] ثم كان أحد قادة الكنيسة يقوم بتفسير الشواهد والفقرات، وبعد ذلك يصلّي الجميع ويعبدون معاً. وبعد خمسين سنة، كتب ترتوليانوس: «كان يطلب من كل عابد أن يقف ظاهراً أمام الجماعة وبحسب قدرته يسبح الله، وما يرتله أو يرنمه يكون إما مأخوذاً من الكتاب المقدس، وإما من تأليفه الخاص.»[3] وما استطعنا أن نعرفه من العدد القليل المتوافر لدينا من الترانيم التي كانت ترتل في أثناء العبادة، يظهر أن الإنشاد كان مأخوذاً من المزامير المترجمة إلى اليونانية أو اللاتينية بشكل عام.

كان المسيحيون يقيمون احتفالين كبيرين رئيسين، الأول والاهم هو الاحتفال بعيد القيامة المجيد الذي يتذكرون فيه موت مخلصهم وقيامته. أما الاحتفال الثاني فكان في يوم الخمسين، أي خمسين يوماً بعد قيامة المسيح. إن الصلوات التي كانت تقام خلال الفترة الواقعة بين عيدي القيامة ويوم الخمسين، كانت ترفع بينما يكون المؤمنون وقوفاً عوضاً عن أن يكونوا راكعين.[4] إلى هذا، كان هناك حدث آخر هام احتفلت به الكنيسة أسبوعياً، ألا وهو يوم الرب. فاستناداً إلى ما كتبه ترتوليانوس، جُعل اليوم الأول من الأسبوع – أي يوم الأحد- وفي هذا اليوم يرتاح المؤمنون من أعمالهم ومشاغلهم الدنيوية. وأصبح هذا اليوم هو يوم العبادة المشتركة لكل المجموعات المسيحية، حيث تقام صلوات جماعية وأحاديث للمؤمنين في أمور الله. قال ترتوليانوس في هذا الصدد: «لقد جعلنا يوم الأحد يوم احتفال، وخصصناه لنفرح به.»[5]

وقد أردف ترتوليانوس قائلاً إن في هذا اليوم يجتمع المسيحيون للاحتفال بالعشاء الرباني، وهم يجتمعون دائماً في مساء أول يوم في الأسبوع، كما كان يفعل نظراؤهم في ترواس حيث وقعت تلك الحادثة المشهورة عندما بقي الرسول بولس يتحدث حتى الفجر.[6] ويبدأ الأحد، بحسب العادة المتبعة

2- ANF Vol. I [Apologia I : 67]
3- Apologeticus 39
4- إن عيد الميلاد، أي يوم ذكرى ميلاد المسيح، أضيف ابتداء من القرن الرابع، إلى الأعياد التي كان يحتفل بها المسيحيون.
5- Apologeticus 16; Ad Nationes 13
6- (أعمال 20: 7)

آنذاك، عند الغسق. وعليه، فان الاجتماع كان يعقد في الوقت الذي ندعوه اليوم «ليلة الأحد». فكانت القناديل تضاء، وكانت تستحضر إلى أذهان الحاضرين، تلك الصورة البهية الرائعة، وهي صورة العشاء الأخير الذي شارك فيه الرب يسوع تلاميذه الإثني عشر. «في الليلة التي أُسلم فيها.»[7] وفي أيام الاضطهاد، كان من الأسلم للمؤمنين أن يجتمعوا ليلاً، بينما فضّل المؤمنون في مناطق أخرى أن يجتمعوا قبيل الفجر أو في صباح اليوم التالي.

لم يكن العشاء الرباني اجتماعاً شعبياً عاماً، ونادراً ما كان يؤتى على ذكره في الخطابات الموجهة لغير المسيحيين. فالعشاء الرباني، في الواقع، لم يكن معداً إلا لأولئك الذين نذروا أنفسهم للسلوك في طريق الرب، ليذكروه خلال هذا الاجتماع بمحبة، ويقتربوا احدهم من الأخر بإيمان مشترك. الأغنياء والفقراء ومالكو الأراضي والعمال، السادة والخدم، كل هؤلاء كانوا يجتمعون في غرفة كبيرة واحدة، في بيت من بيوت هؤلاء المجتمعين، أو في قاعة خاصة فرزت لهذا الغرض، وهم يأخذون أماكنهم بشوق وترقب، لما سيمنحهم إياه الرب حين يرفعون إليه قلوبهم بالصلاة والدعاء، والبركات التي سيهبها لهم لينقلوها إلى الآخرين.

كانوا إلى هذا يتذكرون أيضاً، كيف أن الرب بعد أن غسل أرجل التلاميذ، جلس واكل معهم العشاء الأخير. وكانوا يعيدون إلى ذاكرتهم كلمات الرب عندما اخذ خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم قائلاً: «هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم، اصنعوا هذا لذكري.»[8] لقد أعادوا إجراء المشهد بأنفسهم، فكسروا الخبز واخذ كل واحد منهم قطعة منه. ثم تذكروا أيضاً كيف اخذ سيدهم الكأس وقال: «هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم.»[9] وعندها نقل المؤمنون الكأس من شخص إلى آخر، وهكذا، حتى رشف الجميع منه رشفة رشفة. وأخيراً فكّروا في ما قاله الرب لتلاميذه عندما أوشك أن ينهي عشاءه الأخير معهم: «وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً، كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع

7- 1 (كورنثوس 11: 23)
8- (لوقا 22: 19)
9- (لوقا 22: 20)

أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضاً لبعض.»[10] فشعروا آنئذ في ما بينهم بشعور مفعم بالنشاط مليء بالحيوية، إذ غمرهم حبهم المقدس للمسيح الذي جمعهم برباط قوي ثابت لا يتزعزع.

أخبرنا ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني، وكذلك اغسطينوس في القرن الرابع، إن الزوار الوثنيين والمؤمنين غير المعمدين، كانوا يتركون الاجتماع قبل الاحتفال بذكرى العشاء الرباني. وفي جميع المناسبات التي يحضر فيها أولئك، كانوا يدركون ضرورة المغادرة قبل البدء بالاحتفال بالشعائر الدينية المقدسة، حيث أن هناك أسراراً في هذه الطقوس والشعائر لا يمكن إعطاؤها إلاّ للذين كانوا في سلام مع الله.[11] كان المؤمنون يتناولون الخبز والكأس باحترام وتوقير عظيمين، لأنهما يرمزان إلى جسد المسيح ودمه. ويخبرنا ترتوليانوس أيضاً أنّ الذين يشاركون بذكرى العشاء الرباني، اهتموا جيداً بألاّ تسقط كسرة خبز إلى الأرض، وألاّ تراق قطرة واحدة من الشراب. وعند الانتهاء من اجتماعهم، كانت تؤخذ بعض كسرات الخبز إلى دور أولئك الذين بلغ بهم المرض أو الضعف أو كبر السن حداً منعهم من حضور الاجتماع.

بعد الانتهاء من كسر الخبز، كان المؤمنون يُدعون إلى عشاء مشترك يسمى»وليمة المحبة» (Agape). ووصف ترتوليانوس هذه الوليمة هكذا: «عيدنا هذا، تظهر طبيعته من اسمه الذي يعني تناول المحبة في اللغة اليونانية. وفي هذه الوليمة لا يُسمح بأي فساد و خسة في التصرف. نجلس لنتاول الطعام، ولكن ليس قبل أن نتذوق أولاً نكهة الصلوات إلى الله. فنأكل بما فيه كفايتنا، ونتحدث بعضنا إلى بعضنا الآخر، ونحن نعلم أن الله يستمع إلى كل ما نقوله.»[12]

كان المسيحيون يأتون بعطايا ما أنعم به الله عليهم من خبز وفاكهة وغير ذلك، كلٌّ حسب استطاعته. وكانت هذه الهبات تشكل أساساً للوليمة العامة. أما الزائد من الطعام، إضافة إلى النقود التي يقدمها الواهبون، فقد

10- (يوحنا 31: 34 و35)
11- Hamman p.239; Foakes_Jackson p.230, pp.229_236
12- Apologeticus 39

كانت تعطى للمحتاجين من أعضاء الكنيسة، كالأيتام والأرامل الذين ليس لهم من يعيلهم. وكذلك الحال بالنسبة إلى الذين يعانون جروحاً أو أمراضاً بالغة الخطورة ولم يعودوا يقوون على العمل، أو الذين فقدوا الرزق وأسباب العيش وسبله، بسبب إيمانهم بالمسيح، وهم يجتازون أزمات إذ يبحثون عن عمل آخر. على أن قسماً من المال كان يدّخر لتجهيز متطلبات الضيافة التي تقدم للمسيحيين المسافرين، أو يعطى لأولئك الذين سرقت أموالهم أو نجوا من الموت في أسفارهم البحرية وأضاعوا كل شيء، أو لدفع نفقات جنازات الموتى الفقراء من أعضاء الكنيسة. وأحياناً نقرأ عن مال استعمل لافتداء مسيحيين سجنوا بسبب إيمانهم، أو أرسلوا في عقوبات تتراوح بين الأشغال الشاقة والعبودية. وفي بعض الأحيان كانت ترسل مساعدات إلى كنائس في أماكن أخرى خلال أيام المجاعات أو الضيق والحرمان. وهذا ما أكده ترتوليانوس بقوله: «هذا، كما يبدو، هو مخزوننا ورصيدنا من اللطف. فنحن لا نصرف من رصيد هذا المال لإقامة احتفالات الأكل والشرب، ولا لإحياء حفلات اللهو المبتذل والصاخب، بل لإطعام الفقراء أو دفنهم. كما نساعد الأولاد والبنات الأيتام المحرومين. وكذلك العجزة المقعدين بسبب المرض، أو أولئك الذين ضاع منهم كل شيء بعدما نجوا من الموت في رحلاتهم البحرية، أو ندفعه فدية لأولئك الذين في المناجم (الذين حكم عليهم بهذا العمل لأنهم مسيحيون)، أو من ابعدوا عن الوطن إلى جزر نائية أو أودعوا السجون.»[13]

كان من المستحب أن يساهم كل عضو من أعضاء الكنيسة في تقديم التبرعات التي يمكنه أن يتبرع بها، ولم يكن هذا التبرع إلزامياً. كما أن هذه التبرعات لم تكن أجوراً أو تعويضاً لما يقدم للمتبرع أو المتبرعة من بركات روحية. قال ترتوليانوس: «ليس لأمور الله أي ثمن. مع أن لنا نوعاً من صندوق المال، لكنه ليس لجمع أجور أو اشتراكات رسمية أو دينية ثابتة. كان كل منا يتبرع تبرعاً صغيراً في اليوم المحدد من كل شهر، أو في أي يوم يختاره المتبرع بنفسه، ويتم هذا التبرع حسب إمكانيته المالية. كما أن هذا التبرع

13- Apologeticus 39

كان اختيارياً.»[14] وحيث عرفوا انه «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ»[15] كان المتبرعون مسرورين للمساهمة قدر المستطاع. وذلك بموجب تدبير الله وإرشاده. كتب بولس الرسول: «كل واحد كما ينوي بقلبه ليس عن حزن أو اضطرار لأن المعطي المسرور يحبه الله.»[16]

لقد علّم المسيحيون أن الممتلكات والمقتنيات ليست سوى وديعة مقدسة يجب أن تدّبر بالصلاة، وتدار بحكمة وروية وتعقّل، للحصول على هدايته تعالى وتوجيهاته. وكلّ ما يحصل عليه الرجل أو تحصل عليه المرأة من الرب، يجب استعماله بشرف وأمانة ومن دون تفاخر أو تباهٍ. إن الإنسان ليس إلاّ وكيلاً مشرفاً مسئولاً، وسيكون عرضة للمحاسبة أمام كرسي الحكم يوم الحساب. وعليه، يجب أن يصرف الإنسان عطايا الله بحذر وتؤدة، ولمصلحة ملكوته جلّ جلاله.

وحتى الفقراء، فإن حالهم كحال غيرهم من الأغنياء، فهم عرضة ليحاسبوا أمام الله عن كل ما بحوزتهم، مهما كان متواضعاً. فهناك دائماً من هو بأمسّ الحاجة إلى المساعدة، ولم يحرم أحد من امتياز خدمة المحرومين ومن بركة جمع كنوز لنفسه في السماء. فكل واحد يساهم «بما تيسر» بحسب طاقته.[17] ألسنا نعتبر من الفلسين الذين ألقتهما الأرملة الفقيرة حيث قال عنها يسوع: «الحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة، لأن الجميع من فضلتهم ألقوا. أما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها كل معيشتها.»[18] كان هناك الكثير من الأرامل في كنائس شمال أفريقيا اللواتي حذون حذو هذه الأرملة الفقيرة. لقد كان كنزهن قليلاً في هذه الدنيا، ولكنه كان كبيراً في الجنة.

على أن مثاليات المسيحيين تخطت حدود المادة إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، فوصلت إلى حد تكريس شخصية متفانية للغاية. لقد كرّس الأفراد

14- Apologeticus 39
15- (أعمال 20: 35)
16- 2 (كورنثوس 9: 7)
17- 1 (كورنثوس 16: 2)؛ 2 (كورنثوس 8: 2)
18- (مرقس 12: 43 و44)

أوقاتهم وقواهم الجسدية وقدراتهم الأخرى للعمل الإلهي. فهناك أساليب عديدة يستطيع المؤمن عن طريقها أن يخدم الآخرين في الكنيسة.

أوضح العهد الجديد ذلك بالقول: «لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى وانتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضكم بعضاً.»[19] وليس مرة واحدة فقط في الأسبوع «بل عظوا أنفسكم كل يوم»[20] كان هناك كثيرون في حاجة إلى هذا الوعظ والتشجيع، وكان من بينهم أناس حديثو الإيمان مازالوا يتخبطون في شكوك وأسئلة تحتاج إلى حل. كما كان بعض المؤمنين القدامى يعانون آلاما مبرحة: سيد قاس غليظ، زوجة وثنية تتذمر وتشكو باستمرار، زوج وثني مستبد متغطرس، وربما مرض مزمن أو عمى أو شيخوخة. لقد كان على المسيحيين «افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم.»[21] ومهما واجهوا من مشاكل وعقبات في البيت الذي يزورون أصحابه، فهناك دائماً مصدر لا ينضب ولا يكلّ يقف في وجه هذه الحاجات البشرية: إنه محبة الله نفسه. فالله قريب دائماً ممن يحتاج إليه. وقد أوصى الكتاب المقدس المؤمنين قائلاً: «مصلين بكل وطلبة كل وقت في الروح وساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة وطلبة لأجل جميع القديسين»[22] وكانوا يحصلون على استجابات كثيرة لصلواتهم.

كان بإمكان المرأة، بشكل خاص، أن تعمل أموراً كثيرة، عندما يكون زوجها مشغولاً في العمل، وفي متطلبات الحياة الأخرى. كانت صديقات النسوة وجاراتهن يرحبن بهم في دورهن. وكنّ دائماً، يتركن خلفهن انطباعاً طيباً للغاية. فالمرأة المسيحية المؤمنة كان لها تقدير كبير بسبب ما أعطاها الله من زينة روحية عميقة في «زينة الروح الوديع الهادئ الذي هو قدام الله كثير الثمن.»[23] هي لطيفة عطوف، تصغي جيداً وبكل أدب، وهي إلى ذلك صديقة مخلصة، ومثل تينك النساء يكن بركة حيثما ذهبن. كانت

19- (كولوسي 3: 16)
20- (عبرانيين 3: 13)
21- (يعقوب 1: 27)
22- (افسس 6: 18)
23- 1 (بطرس 3: 4)

«مشهوداً لها في أعمال صالحة.....ربّت الأولاد، أضافت الغرباء، غسلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين، اتبعت كل عمل صالح.»[24] إن هذه الخدمة التي قدمتها النساء لأولاد الله، قُبلت وكأنها خدمة للرب يسوع المسيح نفسه. «يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك. ومتى رأيناك غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك. ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك.» فيجيب الرب يسوع ويقول لهم: «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الصغار ففي فعلتم.»[25]

كان المسيحي قبل أن يسافر إلى بلدة أو مدينة أخرى، يسأل أصدقاؤه إن كانوا يعرفون أحداً من تلاميذ المسيح أو أتباعه في تلك الديار التي سيزورها. وبعد أن يزوده المؤمنون باسم أحد القادة أو النظار في الكنيسة هناك، أو بموقع أو مكان عمله، كان المسافر يقصده حالما يصل إلى المكان. فإذا لم يتمكن الناظر شخصياً من الاعتناء بالزائر، فإنه كان يجد له مأوى مع عائلة مسيحية أخرى. فالنزل أو الفندق الصغير في تلك الأيام، كان مأوى معروفاً للرذيلة والدعارة، يكثر التردد إليه. لذا لم يكن المؤمنون يرسلون إليه. لقد كانت إضافة الغرباء واجباً ضرورياً وعاملاً مطلوباً من المسؤولين في الكنيسة. «لأنه يجب أن يكون الأسقف (الناظر) بلا لوم.....بل مضيفاً للغرباء.»[26] ولكن بنمو الكنيسة، اعتاد بعض المحتالين، أن يستغلوا أحياناً، المسيحيين ولطفهم. ولمنع ذلك، فقد أصبح من الضروري على المسافرين الغرباء أن يتزودوا بكتاب تعريف موّقع من احد شيوخ الكنيسة. وحتى بالنسبة إلى النظّار الذين يسافرون لحضور المؤتمرات في قرطاجة أو غيرها من المدن، كان لزاماً أن يعرّف بهم ناظر آخر واحد على الأقل قبل أن يؤذن لهم بالدخول. فقط كبار القادة المشهورين، لا يحتاجون إلى شهادة أو تعريف، لأن مثل هؤلاء تشهد ثمار حياتهم وسيرتهم عن الإيمان. والرسول بولس يسأل في هذا المجال مازحاً: «أنبتدئ نمدح أنفسنا، أم لعلنا نحتاج كقوم رسائل توصية إليكم أو رسائل توصية منكم. أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا

24- 1 (تيموثاوس 5: 10)
25- (متى 25: 37-40)
26- (تيطس 1: 7 و8)

معروفة ومقروءة من جميع الناس.»[27]

كان مسيحيو شمال أفريقيا الأولون يعمدون من يهتدي إلى الإيمان، كما فعل يوحنا المعمدان، وذلك بتغطيس المهتدي في الماء. وترمز هذه المعمودية قبل كل شيء، إلى بداية نقية منتعشة حية، أي أنها رمز موت الإنسان القديم وقيامة الإنسان الجديد، زوال الخاطئ وظهور الإنسان المبرر. لأنه كما يغسل الماء الجسم، كذلك يعمل غفران الله على تنقية الضمير. وغالباً ما كان المسيحيون يعتمدون في الجداول والأنهار وفي بعض الأحيان يعتمدون في البحر. لم تكن الأحواض الخاصة بالمعمودية قد استنبطت بعد، لأنها لم تعرف إلا في بداية القرن الرابع للميلاد. وقد شيدت خصيصاً لهذا الغرض، وزودت بدرجات تقود المرشح إلى داخل الماء. هذا، وإن بعض تلك البرك شيّد بشكل يمكن إضرام نار تحت أرضيتها لتسخينها.

كانت المعمودية مناسبة عظيمة توقع الرهبة في النفوس، وكان المقبلون على المعمودية يستعدون لها بالصوم والصلاة. كما كان المؤمنون يعترفون بخطاياهم علانية أمام الجميع، ويتبع ذلك، الابتعاد عن توافه إبليس وإغرائه. بعد كل ذلك يقاد المرشحون للمعمودية إلى الماء. وعندما يقف المرشح للمعمودية أمام الماء، يُسأل عن مدى إيمانه. فيؤكد ثقته بيسوع المسيح ويعلن عن رغبته في أن يتبعه بإخلاص وإصرار. ثم يُغطّس في الماء، باسم الآب، والابن، والروح القدس. وفي بعض الأحوال، إذا كان المرشح طاعناً في السن أو عاجزاً واهن القوى، أو إذا لم يكن هناك مكان ملائم للغطس، يمكن إجراء المعمودية بسكب الماء فوق رأس المؤمن باسم الآب وباسم الابن ثانياً، وأخيراً باسم الروح القدس.[28]

ففي زمن كتابة العهد الجديد، كان أولئك الذين آمنوا يعمدون فور إعلان إيمانهم ومجاهرتهم به. ومثال على أولئك المؤمنين الوزير الأثيوبي وكرنيليوس قائد المائة، وليديا والسجان الفيلبي. فجميع هؤلاء اعتمدوا في اليوم ذاته الذي سمعوا فيه البشارة، وآمنوا بالرب يسوع المسيح. لقد قبل

27- 2 (كورنثوس 3: 1 و2)
28- Foakes –Jackson p.230-231

هؤلاء الرسالة بصدق وإخلاص واعتمدوا فور قبولهم لها. كانت البشارة في عهد الرسل مثيرة، وعملها سريع وفوري. وزخم هذا التبشير لا يطيق التأخير أبداً. لم ترفض الكنيسة أن تحقق أمنية هؤلاء الذين رغبوا في إعلان إيمانهم أمام الملأ وبشكل مفتوح.[29] ولكن مع الوقت بات واضحاً، وللأسف، أنه يمكن للإنسان أن يطلب العماد من دون أن يكون لديه مثل هذه الحوافز النقية الخلوصة. وحتى في العهد الجديد نفسه، نجد أن الساحر المشعوذ سيمون، الذي كان إيمانه بكلمة الله ظاهرياً فقط، قد اعتمد كبقية المؤمنين. ولكن سرعان ما اتضح أن أغراضه كانت غير نقية، وفهمه للإيمان كان مضطرباً وباطلاً. ونفهم من كلام بطرس لسيمون انه إذا كان قد طلب المعمودية من دون أن يكون جديراً بها، فهو وحده يتحمل الذنب ويستحق أن يعاقب على تصرفه.[30]

كان من المفضل تجنب مثل هذه الحالات الشاذة. لذلك وجدت كنائس القرن الثاني للميلاد أنه من الحكمة أن تؤجل المعمودية، على الأقل، حتى يناقش كل من يرغب في المعمودية مبادئ الإنجيل مع قادة الكنيسة، ويفهمها بعمق. فبدأت الكنيسة تعطي دروساً نموذجية لأولئك الذين يطلبون المعمودية، متأكدة في الوقت عينه من أنهم قد بدأوا يدركون أهمية الخطوة التي يريدون أن يخطوها. وكان لهذا الأمر أهمية كبرى في تلك الأيام، حيث كان الإيمان بالمسيح والاعتراف به جهراً، يكلف صاحبه أحياناً حريته أو حياته، كما أن قبوله في جماعة المسيحيين قد يكلف الآخرين حريتهم أو حياتهم في حال برهن هذا الشخص أنه خائن أو صانع شغب. قال ترتوليانوس: «يجب أن يعلم المسؤولون عن المعمودية أنه لا يجوز أن يجروا هذه المعموديات من دون تبصر أو روية، لذا فإنه من المفيد تأخير المعمودية، لدرس حالة وشخصية كل مرشح للمعمودية بتمهل.»[31] وقد نصح ترتوليانوس بعدم تعميد أولئك الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد، خشية أن يتعرض إيمانهم للتجربة إذا ما واجهوا تجارب المراهقة وإغراءاتها، فيجلبوا العار على اسم المسيح. وأضاف

29- (أعمال 2: 38 و14)؛ (8: 12 و38)؛ (10: 48)؛ (16: 33)
30- (أعمال 8: 9-24)
31- De Baptismo 18

ترتوليانوس يقول: «إن أولئك الذين يستمعون إلى كلمة الله، عليهم أن يكونوا مشتاقين للحصول على المعمودية، لا أن يطلبوا المعمودية بسرعة، وكأنها حق لهم. فالمشتاقون للمعمودية يشرفونها، أما أولئك الذين يطالبون بها بسرعة فسيزدرون بها سريعاً....إذاً، فالأول يشتاق أن يكون مستحقاً لها، بينما الثاني يظن أنه مستحق لها ويعتبرها من حقه.»[32]

وبحلول القرن الثالث للميلاد، أصبحت فترة تحضير الأشخاص وتعليمهم واختبارهم تمتد إلى ستة أشهر ثم إلى سنة، وفي بعض الأحيان وصلت مدة الاختبار إلى ثلاث سنوات. إنّ الوقت المفترض للمرشح يختلف من مكان إلى آخر. فالكنائس الكبرى كانت تعيّن معلمين مخصصين لتعليم مرشحي المعمودية على أساس عقيدة الإيمان. وكل من كان يقدم طلباً ليتعمد كان يسأل أولاً لماذا يريد أن يتعمد، وبعدها يتم الاستفسار عن تجارته أو مهنته، فإذا كان عمله يظهر تعارضاً مع الإيمان المسيحي، كان عليه أولاً أن يتخلى عن ذلك العمل قبل أن تجرى مراسيم معموديته. وبعد أن يتعمد، يمكنه أن يشارك في العشاء الرباني، أو أن يشارك مشاركة كاملة في حياة الكنيسة.

منذ البدايات الأولى، كان قادة الكنائس يواجهون ذلك السؤال الصعب عمّا يجب عمله بأولئك الذين يقعون في خطيئة خطرة بعد معموديتهم. وهذا الأمر لم يكن يهم قادة الكنائس وحدهم، بل أيضاً جميع المهتمين بسعادة إخوتهم وأخواتهم في المسيح. وقد كان هدف التهذيب الروحي هو أن يدلّ الآثمون إلى طريق التوبة والرجوع إلى الرب. كتب الرسول قائلاً: «إن انسبق إنسان فاخذ في زلة ما فأصلحوا انتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ناظراً إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً.»[33] فإذا ما وجد المسؤولين أية علامة من علامات التوبة الحقيقية والعزم على أن لا تتكرر المعصية، عندها يرحب بعودة الآثم إلى جماعة المؤمنين والكنيسة. ويجب عندها أن يسامح ويقبل في الكنيسة من جديد. قال بولس الرسول: (تسامحونه بالحري وتعزونه لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط.»[34] ولكن من ناحية أخرى، إذا لم

32- De Poenitentia 6
33- (غلاطية 6: 1)
34- 2 (كورنثوس 2: 7)

تظهر علامات تدل على الندم الحقيقي، أو رغبة حقيقية في إطاعة كلمة الله، يجب استثناؤه من عضوية الكنيسة واجتماعاتها. «أما الآن فكتبت إليكم إن كان أحد مدعوا أخاً زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شتّاماً أو سكيراً أو خاطفاً، أن لا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا.»[35]

والواضح من كل ذلك، أن المؤمن المعمد، الذي وجد متورطاً بخطيئة الزنا، أو عبادة الأوثان، كانت الكنيسة تعامله بأكثر قسوة من المؤمن الجديد الذي أفلت حديثاً من هذه الأمور التي ما تزال تمارس تأثيرها فيه. أما الوثني الذي كان على حافة الجماعة المسيحية، كهؤلاء الذين كانوا مرتبطين ببعض أعضاء الكنيسة قبل إيمانهم، فقد كانت الكنيسة تعاملهم بلطف وصبر إذا ما وقعوا في الخطيئة والرذيلة. فلم يكن أمراً مفاجئاً أن يرتكب هؤلاء الوثنيون الزنا أو أن يعبدوا الأصنام، لأنهم لم يعرفوا بعد طريق الله ولا اختبروا قوة روحه في قلوبهم.

وقد كتب ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني للميلاد، كيف أن المسيحيين كانوا جديين في التشديد على مسألة التهذيب والانضباط، وكذلك في دعوة بعضهم بعضاً إلى المحافظة على نقاوتهم وقدستهم: «نحن جسد متحد بمعتقداتنا الدينية، وبتهذيبنا المقدس، وبرباط الرجاء. إننا نقوم بالوعظ والتنبيه والتوبيخ الروحي لأننا نضطلع بمسؤوليات الحكم بجدية ورزانة كبيرة، عالمين في المطلق إننا تحت نظر الله. وحينما يخطئ شخص بشكل كبير يجعلنا نقصيه عن المشاركة في صلاتنا واجتماعاتنا، ومن كل شركتنا المقدسة، فإننا نكون بذلك قد أعطينا صورة عن يوم الحساب العظيم الآتي.»[36]

فإذا ما استثني مسيحي ما من العبادة في الكنيسة ومن العشاء الرباني، فإن مثل هذا العقاب يبدو مرعباً، وفي ذلك الوقت نقرأ عن أناس استمر حرمانهم مدة عشر سنوات أو عشرين، مع ما يشمل ذلك من الذل الهوان من أجل إعلان توبة حقيقية صادقة، ولاستعادة قبوله في شركة

35- 1 (كورنثوس 5: 11)
36- Apologeticus 39

شعب الله. كتب لنا ترتوليانوس أنه يجب على المؤمن الذي أخطأ إلى الله عمداً أن يُظهر توبته باعتراف شامل بخطاياه، وأن يمتنع عن كل الملذات، وأن يصلي بشكل دائم ويصوم، وأن يناشد الإخوة أن يصلوا من أجله وعندئذ فقط يتأكد أنه لن يسقط في الخطيئة من جديد.[37] أمّا أوريجانوس الذي كتب في الفترة نفسها، فقد قال إن المسيحيين الذين سقطوا في خطيئة شنيعة، لا يمكن إعادة قبولهم في جماعة المؤمنين إلا بعد فترة طويلة من الاختبار الذي يمكن من خلاله معرفة ما إذا كانت توبتهم توبة حقيقية، على أنه لا يمكنهم في ما بعد أن يأخذوا مركزاً أو رتبة قيادية في الكنيسة على الإطلاق. وقد أضاف ترتوليانوس إلى ذلك قائلاً إن القائد الروحي يجرد من وظيفته ومسؤولياته نتيجة زلة أو هفوة واحدة، ولا يمكن أن يعاد إلى رتبته مرة ثانية بعد ارتكاب مثل هذه الزلة أو الهفوة، وقال مضيفاً إنه لأمر حيوي جداً، أن يمارس كل المسيحيين ما يعظون به، ويجب بكل وضوح، أن يظهروا للناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم، أنه لا يجوز النفاق والرياء في الكنيسة ولا يسمح بهما، ولهذا السبب لا تُقبل داخل الجماعة المسيحية إلا المستويات العالية من الفضيلة.

أمّا في المدن الصغيرة والقرى، فقد استمرت اجتماعات المؤمنين في البيوت أو الحقول والغابات، على أنه في أواخر القرن الثاني للميلاد، وبالرغم من الاضطهادات والمضايقات التي ابتليت بها جماعات المؤمنين أُفرزت أبنية خاصة للعبادة في المدن الكبرى. إنّ أبنية الكنائس في أفريقيا الشمالية تشابه بيوت السكن العادية التي يعيش فيها عامة الناس، في ما عدا وجود غرفة مركزية كبيرة، وغالباً ما تكون هذه القاعة مقببة، وفيها مقاعد أمامية مرتفعة، وهي مخصصة لأولئك الذين يقودون الاجتماعات. ويجهّز جزء من هذه الغرفة «لمائدة الرب» التي يوضع عليها الخبز والشراب في أوقات العبادة. أما زينة القاعة، فبسيطة كبيوت المؤمنين العادية، وليس هناك أكثر من رسم بسيط يبين مشهداً خاصاً بالكتاب المقدس أو رمزاً للطريق المسيحية، مثل لوحة جميلة من المرمر تمثل الراعي الصالح، وقد وجدت هذه

37- De Poenitentia 9

اللوحة في مقبرة تحت الأرض في مدينة سوسة بتونس.

ولكن يظهر أن الرمز المفضل عند المسيحيين الأوائل كان «رمز السمكة». فإن العبارة اليونانية «إختوس» (Ichthus)، تشتمل على حروف استهلاكية باللغة اليونانية للكلمات الخمس: يسوع المسيح ابن الله المخلص. ويتحدث ترتوليانوس عن هذا الرمز بشغف، حيث أن الرمز بحد ذاته هو اعتراف ضمني بأن يسوع المسيح هو المخلص المنتظر وابن الله المتجسد. ولذلك فالمؤمنون يحملون هذا الرمز بافتخار.

كان مسيحيو إفريقيا الشمالية يحبون أن يزينوا آنياتهم وأدواتهم وكذلك بيوتهم ومدافنهم بهذا الرمز، أو يرسمون عليها مرساة أو يمامة. ولم يظهر الصليب في الفن المسيحي لشمال أفريقيا إلا في أواخر القرن الرابع للميلاد.[38] والواقع، إن في ذلك عجباً، لأن الصليب كان شيئاً معروفاً وشعبياً في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية. ففي هرقولانيوم في جنوب ايطاليا(Herculaneum)، وجدت آثار نموذج لصليب مدفونة في الحمم اللابية لثورة البراكين التي وقعت في سنة 79 ميلادية. ولربما لم يستعمل رمز الصليب في شمال أفريقيا إلا قليلاً، لأنه يشابه كثيراً المثلث، الذي يرمز إلى الآلهة الفينيقية تانيت.

لم يتبن الوثنيون المهتدون إلى المسيحية استعمال الأسماء المسيحية قبل حلول القرن الثالث أو الرابع الميلادي. وقد استخدموا أحياناً الأسماء المذكورة في الكتاب المقدس أو غيرها من أسماء وثنية كان يحملها أناس استشهدوا ببطولة في سبيل الدين المسيحي في الماضي أو أسماء بعض مشاهير المؤمنين المسيحيين. ومن الواضح أنهم كانوا يختارون أسماءهم بعناية. وبعض هذه الأسماء تعبر عن صفات شخصية كالاتضاع أو الصبر، وأخرى تتحدث عن السرور والنصر والحياة الأبدية.[39] ولكن قبل هذا التاريخ، وإبان القرنين الأول والثاني، أبقى المهتدون أسمائهم الوثنية بشكل عام، حتى وإن كانت هذه الأسماء تشير إلى آلهتهم الوثنية التي سبق وأن عبدوها. فإذا غيّر المهتدي اسمه، فإن ذلك سيكون برهاناً عملياً عن تحوله إلى المسيحية ورفض الآلهة التي كانت تدعم المجتمع. وعلى إثر ذلك قد يغضب الأهل الوثنيون، كما أنه قد تتاح بذلك الفرصة للعديدين لإحياء الضغائن ضد المسيحيين، كل ذلك لا لأجل مبادئ روحية، بل بسبب أسماء ليس إلا. كان من الأفضل إظهار حقيقة حب الله العملية، وذلك بحياة شريفة غير أنانية، واجتذاب الأصدقاء والجيران إلى الإيمان بالرب بهدوء وبملء إرادتهم. لقد تبنى المسيحيون الأوائل نصيحة بطرس الحكيمة بجدية: «قدسوا الرب الإله في قلوبكم مستعدين دائماً لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعة وخوف.»[40] لكن، وبمرور السنوات وبينما كانت جماعة المؤمنين تنمو وتزدهر باطّراد، رفض أعضاؤها أن يخفوا ضوء الإيمان تحت المكيال، وبشجاعة كانوا يشهدون، بالأسماء التي كانوا يحملونها، للرجاء الذي نذروا أنفسهم لأجله.

38- كان المسؤولون الايطاليون الذين كتب إليهم ترتوليانوس في نحو العام 198م، على علم بأن رمز الصليب هو مستخدم في العبادة المسيحية. إلا أن ترتوليانوس كان يشير إلى عادة أوروبية، وليس بالضرورة إفريقية.
(Ad nations 1:12; Apologeticus 16)

39- Latourette Vol. I pp. 261, 283-39

40- 1 (بطرس 3: 15)

الفصل السابع

انتصار الحق

وفي حوالي 160 للميلاد، وفي مدينة قرطاجة، ولد طفل لقائد مئة كان يعمل في خدمة الحاكم الروماني. وقد دعي هذا الطفل كونتوس سبتيميوس فلورنس ترتوليانوس (Quintus Septimius Floens Tertullianus). ولم يكن أبواه يدركان أن ولدهما هذا سيصبح شخصية رفيعة المقام والنفوذ في أبناء جيله بشمال أفريقيا. لقد حظي ترتوليانوس بتعليم ممتاز، وتخصص بعلم الفلسفة والقانون. انغمس في شبابه انغماساً متهوراً بالرذيلة المفرطة التي كان يمارسها المجتمع الوثني. كذلك كانت تمارس الطقوس الدينية الوثنية، ولكنه لم يفكر كثيراً في معاني هذه الطقوس أو في مغزاها.

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، قادته الأحداث إلى أزمة شخصية. كانت السلطات الرومانية، ولفترة من الوقت، تراقب عن كثب، نمو الجماعة المسيحية في قرطاجة وتطوره، بريبة وشك متزايدين. فلم يكن المسيحيون يشاركون في التقدمات العامة، ولا كانوا يحلفون بالعظمة السامية للإمبراطور. فجأة، ألقي القبض على عدد من هؤلاء المسيحيين، وأمروا بأن يخضعوا. وقد تأثر ترتوليانوس جداً من الشجاعة الخارقة التي أبداها المسيحيون في مواجهة الآلام القاسية التي كانت تصدرها السلطات الوثنية بحقهم. كان يعرف هؤلاء الرجال والنساء المسيحيين جيداً، ويدرك تماماً أنهم أبرياء من أي فعل سيء. كان المسيحيون قوماً شرفاء أفضل كثيراً في الواقع من الوثنيين الذين كانوا يسيئون إليهم. وها هو الآن ، يشاهد بأم عينيه كيف يرفض هؤلاء المسيحيون أن يتنكروا لمعتقداتهم وإيمانهم، بينما يواجهون الموت الجسدي بثقة وشجاعة باسلة، مؤمنين بأنهم سيقومون من الموت ثانية. هذا الإيمان الواثق لم يجده ترتوليانوس في وثنيته السطحية المبادئ، كان عند المسيحيين، وبكل وضوح فرح من نوع آخر وأعمق من ذلك

الذي كان ينشده الناس في التسلية اللا أخلاقية في قرطاجة. كانت وجوه المسيحيين تشرق إشراقةً نبيلةً هادئةً، وتسمو بهم فوق مستوى الرعاع، وفوق مستوى معذبيهم الرومان. وعندما كان ترتوليانوس يتأمل هذه الأمور ومضامينها، كان يزداد اقتناعاً، بأن هذه الحفنة من الرجال والنساء، كان لابد من أنهم يملكون شيئاً جديداً لا يقدر بثمن. فإذا كان درب المسيح هو الحق، فليس أمامه إذاً، سوى طريق واحد يمكنه السلوك فيه.

لم يكن ترتوليانوس ليقبل بأنصاف الحلول، وقد تكشفت هذه الصفة فيه بعدما اعتنق المسيحية، حيث كان اندفاعه حماسياً متّقداً، وإيمانه حاداً، كما كانت مواصفاته عادة. لقد غيره إيمانه الجديد بشكل جذري.

فحياته التي كانت بلا أهداف تُذكر، أخذت اتجاهاً ثابتاً وراسخاً، وشخصيته التي كانت متقلقلة صارت ثابتة، وأفكاره التي كانت متقلبة أصبحت مستقرة على المبدأ الذي عرفه أنه مبدأ قويم وحق. وشعر كأنه إنسان جديد، ورجل كامل، وكان شعوره صادقاً. وفي ما بعد، كتب يقول: «يُصنع المسيحيون ولا يولدون هكذا.»[41] وحقاً كان هذا اختباره الشخصي. هذا، وإن مخيلته الخصبة كانت تشده باستمرار إلى طريق المسيح. أخيراً وجد السبب الذي من أجله كانت نفسه الحيوية والحساسة تصرخ باستمرار: إنه الهدف الذي يستحق أن تُكرّس له الحياة والطاقات كلها. لقد وضع يده على المحراث، ومنذ الآن فصاعداً، لن ينظر ترتوليانوس إلى الوراء أبداً.

إن كانت الرسالة المسيحية هي التي صنعت الرجل، يبقى أن الرجل كان أيضاً نافعاً للقضية التي تبناها. ولم تمض إلا فترة وجيزة على اهتداء ترتوليانوس إلى طريق الحق، حتى باشر التبشير بالإيمان وتعليمه في قرطاجة، وكانت دعوته هذه ناجحة، بحيث أنه لم يعد لديه الوقت لممارسة البلاغة والفصاحة في مهنة المحاماة. فقد خصص وقته الكامل لخدمة الإنجيل، متكلاً على الله بكل بساطة لسد كل احتياجاته. بدأ ترتوليانوس يكتب عن الحياة الجديدة التي كان الله يكشفها له، ومن هذه البداية أظهر ترتوليانوس حبه لوطنه أفريقيا الشمالية، وبالخص لقرطاجة وطنه الأم.

41- Apologeticus 18

وككاتب مسيحي مؤمن، يقف ترتوليانوس وحيداً تقريباً بين بني جيله. لقد ضاعت بعض كتاباته، وخصوصاً كتاباته الأولى، وبعض الكتابات باللغة اليونانية. أمّا ما تبقى له من كتابات، فهو كثير نسبياً، على الرغم من أن معظمها قصير وموجز. كانت هذه الكتابات عملية موضوعية، تعالج التساؤلات الملحة التي كانت تواجه المسيحيين في تلك الحقبة من الزمن، وكانت تشمل عدداً كبيراً من المواضيع. وهذه الكتابات تعطي كمية وافرة من المعلومات القيمة عن المجتمع الوثني والمسيحي في أفريقيا الشمالية إبان الفترة الأخيرة من القرن الثاني للميلاد.

كانت باكورة أعماله الرئيسة بل أعظمها، كتاب علم الدفاع عن المسيحية أبولوجتيكوس أو أبولوجي (Apologie). وقد كتب هذا الكتاب في نحو سنة 198 ميلادية، خلال الحكم الاستبدادي للإمبراطور المتوحش المدعو سبتيميوس سفيروس. إن هذا الكتاب هو تقديم ممتاز للإيمان المسيحي، لم يكن معالجة أكاديمية موجهة إلى إمبراطور مثقف، ذي ذوق فلسفي أو أدبي رفيع، بل كان تفنيداً عنيفاً، كتب إبان فترة الاضطهاد، لحكام رفضوا أن يصغوا، ولو إلى كلمة تقال في الدفاع عن المسيحية، وحكموا على المتهمين لمجرد اعترافهم بأنهم مارسوا ديناً غير مرخص به وهم يرفضون تركه. إن العنوان أبولوجتيكوس لم يكن يعني «اعتذاراً» أو «أسفاً» أو تبرئة من إثم مرتكب، كما تفيد هذه الكلمة الفرنسية بمعناها الحديث، بل يمثل على نقيض ذلك، إثباتاً منطقياً لوجهة نظر معينة، مقروناً ببرهان منطقي لصحتها وشرعيتها، وبينات مقنعة لمقبوليتها.

يبدأ ترتوليانوس دفاعه بإظهار بطلان عملية إلقاء القبض على المسيحيين وكأنهم مجرمون، وقد كان القضاة يعذّبونهم، لا ليعترفوا بجرائم خفية غامضة ارتكبوها، بل لإجبارهم على التنكر لإيمان نزيه. قال ترتوليانوس: «أمّا الآثمون الآخرون، فإنهم يُعَذّبون من أجل حملهم على الاعتراف. فلماذا يجري تعذيبنا نحن، فقط لننكر ما نعلنه بملء إرادتنا؟»[42] ثم يتساءل عن السبب وراء عداء الناس المتحمس والموتور ضد المسيحية والمسيحيين. إن التحامل

42- Apologeticus 2

العالمي الشامل ضدنا هو في الواقع غير منطقي ولا أساس له. إن الأشخاص الذين نعيش بين ظهرانيهم يعلمون هم أنفسهم أن المسيحيين هم أفضل ما يمكن أن يقابلوا من رجال ونساء، ومع ذلك يحتقروننا. يقولون: «إن الإنسان كابوس سيوس هو رجل طيب لكنه مسيحي.» ونسمع أيضاً: «أنا اندهش لأن هذا الرجل الفطن المدعو لوكيوس تيتيوس قد اعتنق المسيحية.»[43] ثم تحدّاهم ترتوليانوس مستفسراً لماذا الأزواج والآباء والسادة يفضلون أن يبقى أبنائهم وزوجاتهم وخدمهم الوثنيون مخادعين ومتمردين بدل أن يصبحوا مسيحيين صادقين ومحترمين. هل من المعقول أنهم يفضلون العيش مع زوجة وثنية محتالة أو ابن أو خادم مخادع وثني، بدلاً من العيش مع شخص مسيحي شريف؟

لماذا يكون المسيحيون مكروهين هكذا؟ «فإذا ارتفعت نسبة المياه في نهر التيبر إلى مستوى ضفافه، وإذا فشلت مياه نهر النيل في الوصول إلى الحقول، وإذا لم تهطل الأمطار، وإذا حدثت هزة أرضية، وإذا حدثت مجاعة أو جاء وباء، فإن الصرخة الفورية تقول: «خذوا المسيحيين إلى ميدان الأسود.»[44] لماذا نلام نحن المسيحيين بسبب أمور عامة تحصل لجميع الناس؟ هذا بالطبع ليس عدلاً، وهو مناف لأبسط الأعراف والتقاليد الرومانية. كان ترتوليانوس يعرف ما يقول. «إنه يكتب كمحام مشدداً في مرافعته على لا شرعية الاضطهاد الممارس ضد المسيحيين، وعلى أن القوانين المنفذة ضدهم هي إنكار لحقوق الإنسان.»[45] فصرخ حقاً: «إن من الحقوق الأساسية لكل إنسان، ومن الامتيازات التي منحتها له الطبيعة، حقه في العبادة بموجب قناعاته.»[46] فلا يجوز للمواطن الصالح أن يعاني الإجحاف والتحامل بسبب ما يدين له؛ فعلى القانون أن يكبح جماح السلوك السيء، لا أن يمنع المعتقدات النزيهة والصادقة.

وقد تعلم ترتوليانوس من خلفيته القانونية أن يتحقق من البينات

43- Apologeticus 3
44- Apologeticus 40
45- Bettenson, ECF p. 15
46- Ad Scapulam 2

والحجج، ومكنته من استعمالها على أحسن وجه. وقد أضفى تكوينه البلاغي وفصاحته المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمواهبه الفطرية الأصلية، قوة وطاقة نافذة على تعبيره. «كان أسلوبه الأدبي ينسجم مع أفكاره. وكان هذا الأسلوب حيوياً توكيدياً فصيحاً. قاده إيجازه وعدم ترابط أفكاره إلى شيء من الغموض أحياناً. وكانت المفردات اللغوية التي يستعملها مذهلة في غناها ومأخوذة من مصادر مختلفة. لا يهمه إن كان المصطلح كثير التقنية أو قديماً مهجوراً، أو إن كان تعبيراً شائعاً كثير الابتذال إقليمي الاستعمال، إذا كانت هذه المصطلحات أو التعابير تدل على المعنى الذي يقصده. فإذا وجد ترتوليانوس أنه ليس هناك كلمة لاتينية جاهزة أو قادرة على استيفاء المعنى المطلوب، فهو يحاول استعمال كلمة يونانية، وإن لم يجد ما يفي بالغرض، كان يبتكر كلمة مناسبة. يحتوي أسلوبه على عناصر السيل جميعها من مواد مخلوطة وسرعة وتوجيه. فالخشب، والحجارة، والأتربة، وأوراق الشجر، والزهور، والنفايات تجرف جميعها معاً ثم تقذف لفتح سبيل مسدود أو لقهر خصم.»[47] وتُظهر كتاباته بوضوح مقدار حماسته، وهو ينجرف في عدّة أحيان وراء قوة اقتناعه، وشدة حجته، وبالأخص عند قراءة كتاباته الجدلية في تفنيد مبادئ الآخرين. «على المرء أن يتذكر دائماً أنه يصغي إلى مرافعة خاصة، أعدها محام شديد التمسك بدفاعه، وليس إلى شهادة يدلي بها شاهد محلّف أو حُكمٍ أصدره قاضي بعد أخذ جميع الآراء بعين الاعتبار.»[48]

ولكن، ففي كل هذه الأمور، سواء بوعي أم لا، كان يستنبط لغة جديدة، أو على الأقل يصوغ لغة قديمة في قالب جديد. لقد صنع من اللغة اللاتينية آلية قادرة على حمل عظمة وقوة أعمق رسالة قد يسمعها الإنسان. لقد بدأ الأدب اللاتيني المسيحي فعلاً مع ترتوليانوس. كان عنده أفكار لم تظهر في هذه اللغة من قبل، وكان مقصده الأوحد هو التعبير عنها بفعالية. فترتوليانوس هو أول من ابتكر عبارة «الثالوث الأقدس» ليصف من خلالها طبيعة الله، ويُقدّرُ ما ابتكر من كلمات جديدة ب 982 كلمة تقريباً.

47- Plummer pp. 114 ـ 115
48- Plummer p. 115

يرى المؤرخ الفرنسي العظيم جوليان (Julien) في ترتوليانوس أنه المزاج الأمازيغي النشيط المتقد بشرارة الحق المسيحي والمشتعل بهمة راسخة لا تقاوم. كان ترتوليانوس من «المهتدين البرابرة. ولكنه استبقى تحت الغلاف المسيحي على كل حماسة البرابرة وعنادهم وحدة مزاجهم.»[49] «يندب» ترتوليانوس أحياناً اتقاد طباعه وحدّته. ولكنه استمر، مع ذلك، مندفعاً إلى الأمام بنفاذ صبر، واثقاً في نفسه، مستخدماً كلماته كسلاح حربي، مناضلاً ضد مناوئيه بلا هوادة ولا لين، منطلقاً وراءهم يقذفهم بكل أنواع أسلحته الجدلية المتوافرة ليقهرهم ويخضعهم لطاعته. وليس من المستغرب أن تتمكن قلّة قليلة منهم فقط، من مناقشته: هذا، وإن مواهبه الفذة، لم تبق في الميدان مكاناً لأحد سواه. إن ترتوليانوس كاتب يستحيل عليك أن توافقه دائماً، وهو يترك عندنا أحياناً آثاراً موجعة. ولكن مع كل نقاط ضعفه، فهو رجل يمتلك عبقرية فذة عظيمة، وتعتبر شخصيته أكثر الشخصيات فتنةً وسحراً في تاريخ الكنيسة المسيحية.

كان لترتوليانوس قلب مبشر، وقد خصص كتاباته قبل كل شيء، ليربح الوثنيين واليهود ويهديهم إلى الإيمان بالرب يسوع. إنه يُقدّم كل الأسباب الموجبة للإيمان، وكل الإجابات المطلوبة للمعترضين. وعندما يدير أفكاره نحو الجماعة المسيحية نفسها، تكون رغبته العظمى في أن يُمكّن العالم الوثني من النظر إلى هناك لرؤية يسوع. يجب أن تنسجم حياة المسيحيين مع ما يعلنون من تعاليم الإنجيل. وهو يتساءل ما جدوى الكنيسة المسيحية إذا كانت لا تستحق احترام الذين هم خارجها؟ فماذا يمكنها أن تحقق إذا لم تُظهر قداسة المسيح؟ وكيف يمكن للوثنيين أن ينجذبوا إلى المخلّص إذا رأوا أتباعه في حالة شر وخطية هي أسوأ من تلك التي يتخبطون هم فيها؟ لقد تمنى ترتوليانوس على الكنيسة أن تكون الشاهد المخلص للعالم. فعندما كان يتحدث إلى شعب قرطاجة، كان هاجسه أن يتمكن من الإشارة إلى التحول الذي يستطيع الرب عمله في الرجل والمرأة. ولكن إن لم يكن هناك أية علامة من علامات التحول، لابد عند ذاك من أن يسقط وعظ الإنجيل

49- اقتبسها Guernier p. 185

على آذان صماء. تحدّى ترتوليانوس منتقديه في أن يجدوا ولو مسيحياً واحداً متهما بالتجديف، أو فساد، أو بقتل، أو بنشل، أو بسرقة ملابس المستحمين. أما إذا وجدوا مثل هذا الشخص، فسيجدون أيضاً أنه فصل من شركة الكنيسة. فمثل هذا التصريح كان يحتاج إلى أن تكون الجماعة المسيحية مستحقة للصورة النقية. ولو كانت هناك خطيئة في الكنيسة؛ تصدّعت الأرض من تحت قدمي ترتوليانوس، وتحت أقدام كل أولئك الذين ينشدون ربح الآخرين للإيمان بالرب يسوع.

طالب ترتوليانوس زملاءه المسيحيين بأن يتجنبوا كل مظاهر التسوية مع الفئات السياسية والفعاليات العالمية. قال إن إمبراطوريات العالم تعلو وتهوي، أما الكنيسة فأبدية. إنها مملكة روحية وليست مملكة أرضية أو مادية، ويجب أن تبقى الكنيسة حرة لتخدم، ولتوفر الاحتياجات الروحية لجميع الناس أياً كانوا.

وقد تبتهج الكنيسة إذا نظرت إليها السلطات الرومانية نظرة استحسان. ولكن إذا احتقرتها تلك السلطات وكرهتها، فعلى الكنيسة أن تثبت وتتحمل. ولكن لا يجوز للكنيسة أن تُسخّر لخدمة قضايا السلطة مهما كانت الظروف والأسباب: عليها ألا تكون أداة بيد الحكام في الإمبراطورية. إن المسيحي مواطن صالح وشريف، ولكن آماله لا تتأسس على أية جمهورية أو مملكة بشرية. فهو تابع قبل كل شيء لأولئك الناس المدعوين «كنيسة الله»، وعاهله هو ملك الملوك ورب الأرباب. فهناك يكمن ولاءه وإخلاصه. سأل ترتوليانوس: «أفهل هناك أمة، داخل حدود جغرافية معينة، تفوقنا عدداً؟ فنحن أمة بلا حدود، بل حدودنا العالم بأسره.»[50]

إن إخلاص ترتوليانوس لإيمانه، كحماسته له، لم يكونا قط موضوع تساؤل. فهو واثق من موقفه، وكل وجهات النظر الأخرى، ليست سوى رمال متحركة. فماذا بإمكان الإنسان غير المخلّص أن يعرف عن الحق؟ وماذا بمقدور رجل عالمي أن يعرف عن القداسة؟ وكيف يمكن لعابد الأصنام أن يفهم تعاليم الكتاب المقدس أو ينتقدها؟ إن هذه الأمور، كما قال الرسول بولس،

50- Apologeticus 37

هي مدركة على أساس إعلان من روح الله. «ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة....... وأما الروحي فيحكم في كل شيء.»[51]

رأى ترتوليانوس أن المسيحي الذي يتنكر لإيمانه هو جبان وخائن، ولا عذر له. فإن مثل هذا الشخص قد كذب وجدف على الله لكي ينجو بنفسه، وإذا ما عاد هذا الإنسان إلى الكنيسة، فعليها ألا تقبله وكأن شيئاً لم يكن: هذا هو السبيل لكي تملأ صفوفها بالضالين وبالمرائين. قال ترتوليانوس إنه لا يمكن لكنيسة المسيح أن تصفح من موقع ضعف عن أولئك الذين يخونون سيدها خيانة تامة أو يخطئون إليه عمداً. لذا يجب إبعاد المؤمن عن الكنيسة إذا ما عاد إلى عبادة الأصنام، أو إلى الأعمال الوثنية الفاجرة. ألا يستحق الرب يسوع أجل الخدمات؟ فعلى المسيحي أن ينكر ذاته ويحمل صليبه ويتبع المسيح، وأقل من التكريس الكامل يعتبر إهانة لله ولشعبه. يجب التعامل مع الخطيئة المرتكبة بجدية وحزم، تماماً كما كان يفعل رسل المسيح[52].

كان سلطان إخراج الشياطين أمراً مألوفاً في الكنائس في عهد ترتوليانوس. وقد أشار هذا الأخير إلى طرد الأرواح الشريرة، ليس وكأنها ظاهرة نادرة يجب التأكد منها بجهد وبشهادة الآخرين لها، ولكن باعتبارها حقيقة لا تنكر، معروفة لدى الجميع. ويعتمد عليها بثقة للتحقق من أن رسالته كانت رسالة حق. إنه لا يسأل خصومه الوثنين أن يؤمنوا بأن مثل هذه القوى لاتزال موجودة، ولكنه يطالبهم بقبول رسالة الإنجيل التي تأتي هذه القوى لتبرهن أصالتها.

كان ترتوليانوس يعرف الكتاب المقدس حق المعرفة، وكان يقتبس باستمرار من الأناجيل ومن الرسائل، كما من العهد القديم أيضاً. وكان يسير بكل وضوح على خط الإيمان الرسولي النقي. ولا نجد في كتاباته إلا القليل من الأفكار الدينية الدخيلة على المسيحية، والتي تسببت بعد وقت قصير بتعقيد حياة الكنائس. وقد احتج ضد الممارسة الجديدة الخاصة بمعمودية الأطفال. ولم يعط مريم أم المسيح في الجسد مقاماً أعلى من مقام الناس

51- (1 كورنثوس 2: 14 و15)

52- (1 كورنثوس 5: 9 - 11)

الآخرين ولم يصل لها. ورفض أيضاً المبدأ القائل بتبتل قادة الكنيسة، على الرغم من أنه وجد له قيمة فعلية بالنسبة إلى أي مسيحي يرغب في ذلك طوعاً. وآمن إيماناً راسخاً بكهنوت المسيحيين المؤمنين جميعهم، وغالباً ما كان يذكر سامعيه، بأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسم المسيح، فهناك يكون المسيح في وسطهم. وقد شدد بحزم على أن الكنيسة الحق لا تقاد إلا بالروح القدس، وليس من طريق المؤتمرات البشرية. كان ترتوليانوس يتوقع واثقاً أن يرى من خلال حياته على الأرض نهاية العالم وعودة المسيح وبداية الملك الألفي.

ثم بعد مدة، جرى على الأرجح تعيين ترتوليانوس كشيخ من شيوخ كنيسة قرطاجة، لكنه على غرار إقلمندوس الاسكندراني (Clément d'Alexandrie) وأوريجانوس (Origène)، لم يرق إلى درجة كنسية أعلى. ويبدو أنه كانت لديه تحفظات جدية بالنسبة إلى هذا النوع من البنى الهرمية. امرأة ترتوليانوس كانت مسيحية، وقد أهداها بحثين كتبهما عن الزواج المسيحي، وأظهر من خلالهما تفانيه لزوجته، داعياً إياها برقة وتحبب «يا أحب رفاقي في خدمة الرب»[53]. وكمعظم الرجال في عصره، كان من المفترض أن تكون ملابس ترتوليانوس مشتملة على الرداء الأبيض بأكمامه القصيرة، وهو عبارة عن قميص طويل يصل إلى الركبتين، مصنوع من الكتان، ومشدود حول الخصر بحزام. إلا أن ترتوليانوس أظهر استقلاليته عن عادات الإمبراطورية الرومانية بالاستغناء عن التوجا، اللباس الروماني الفضفاض والمتدلي، مفضلاً عليه الشملة الإغريقية، (وهي نوع من اللباس الذي يطرحونه على الكتف الأيسر) أو «بليوم» الفيلسوف (وهو رداء رجالي مستطيل). وقد ظهر تفضيله لهذا اللباس في كتاب يبحث في موضوع الملابس. وحذا حذوه في هذا الزي كثيرون. وعليه، فقد أصبح لباس التوجا يختفي من الكنائس. أما حذاؤه، فكان الصندل الذي كان يربط برباط يلتف حول الكاحل. وكان يقص شعره قصيراً، ولربما كانت له لحية قصيرة. وهي التي كانت وقتئذ تطابق الزي السائد منذ نهاية القرن الثاني. فقد أشار

53- Ad Uxorem 1:1

أحد الرجال المعاصرين لترتوليانوس، وهو أكبر منه سناً، ويدعى إقلمندوس الاسكندراني إلى اللحية داعياً إياها «زهرة الرجولة». ويقول إقلمندوس أيضاً» «إن اللحية هي الصفة المميزة التي منحها الله للرجال وللأسود»[54]. وكان حلق الذقن آنذاك يعتبر تخنثاً، وتحدياً لله الخالق.

كان ترتوليانوس في قرطاجة وقتما حكم على بربيتوا وزملائها بالإعدام عام 302 ميلادية. ويعتقد بعض الكتاب أنه هو الذي ألف قصة استشهادهم أو أعدها. وفي كل حال، كان ترتوليانوس نحو هذا الوقت قد انضم إلى فرقة من المسيحيين، كانت تعرف بالمونتانيين (Montanistes)، والتي يبدو أن بربيتوا ورفاقها كانوا ينتمون إليها. وفي مطلع القرن الثالث، كانت هذه الفرقة قد اكتسبت لنفسها بعض الشعبية في أوساط إفريقيا الشمالية. وكان أعضاؤها يتبعون تعاليم ومثال أحدهم ويدعى مونتانوس (Montanus)، الذي كان قد شرع بالكرازة نحو العام 170 م، وذلك في منطقة فريجية (تركيا الحديثة).

كان مونتانوس يعتقد أن جيله كان يقف على عتبة عصر جديد، عصر الروح القدس، الذي خلاله سيكون من نصيب أولاد الله جميعهم أن يحصلوا على رؤى وعلى إعلانات بحسب ما هو مكتوب: «يقول الله ويكون في الأيام الأخيرة إني أسكب من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاماً. وعلى عبيدي أيضاً وإمائي أسكب من روحي في تلك الأيام فيتنبأون»[55]. فالمسيحيون الذين التصقوا بمونتانوس شرعوا يرون ويسمعون مثل هذه الأمور. وقد صرح قائلاً: «إن الروح يحرك الذهن، كما أن الموسيقار يحرك أوتار القيثارة». وبهذه الطريقة يستطيع المؤمن أن يحصل على كلمات الله عينها، وأن ينقلها إلى الآخرين.

وقد أخذ المونتانيون مبادئ العهد الجديد على محمل الجد، وحاولوا أن يعيشوها مهما كلف الأمر. لم يتمكنوا، كما هي الحال بالنسبة إلى الكثيرين سواهم، من التوفيق بين الخدمة العسكرية وتعاليم يسوع: على

54- ANF Vol. II [Paedagogus 3:3]
55- (أعمال 2: 17و 18)

المسيحيين ألا ينخرطوا في الجيش. كما اعتبروا أن دراسة الأدب الوثني لا يليق بالمسيحي: إنها ستضله عن الطريق الصحيح، وتعثر الناس الذين يرون هذا القارئ ويقتدون به. كانوا قد بدأوا يجتمعون في بيوتهم للصلاة والصوم وقراءة الكتاب المقدس معاً؛ وكانوا يشجعون بعضهم بعضاً على الارتقاء في حياتهم إلى أعلى المبادئ الأخلاقية الروحية. كانوا يتطلعون قدماً إلى مكافأة في السماء وإلى حياة أفضل. فكان إيمانهم الراسخ بأن المسيح سوف يعود سريعاً، وستراه كل عين ويعترف كل لسان بأنه رب[56]. ومن ثم سوف يجمع شعبه ويأخذهم إليه ليسكنوا معه في مجده إلى الأبد. ولا يجوز للمسيحي أن تشده أمور هذه الحياة الفانية؛ وإذا ما دعي ليتألم، أو حتى يستشهد من أجل المسيح، عليه عند ذاك أن يفرح ويبتهج لكون الله قد ميزه بهذا الشرف العظيم. انجذب ترتوليانوس إلى هذه الفرقة، وبخاصة على أساس ما لمسه فيهم من رغبة صادقة في إطاعة كلمة الله. كان إخلاصهم القلبي يتلاءم ويتجانس مع إخلاصه هو.

لم يكن المونتانيون راضين عن بعض التوجهات والنزاعات التي ظهرت في كنائس إفريقيا الشمالية، وكذلك في آسيا الصغرى، ولقد تمنوا أن يروا قداسة أكثر وضوحاً في الجماعة المسيحية. وقالوا إن هناك العديد من المسيحيين الذين لا يعيشون طائعين إطاعة صادقة للمسيح. فبعضهم، كما يبدو، كان يميل إلى التساهل في الانغماس في نشاطات سيئة السمعة أو إلى المشاركة بالأفعال القذرة الحقيرة التي يمارسها الوثنيون؛ فكان يجدف على اسم المسيح من جراء ما يمارسه هؤلاء المدعوون مسيحيين. واعتبروا أنه يجب طرد مثل هؤلاء من الكنائس. كان من الضروري في نظرهم أن يعطى الذين من خارج – يهوداً كانوا أم وثنيين – فرصة لسماع بشارة الإنجيل. لكن يجب عدم تسميتهم مسيحيين حتى يصبحوا هكذا فعلاً، أي حتى يتنكروا لذواتهم، ويحملوا صليبهم ويتبعوا المسيح.

اغتاظ المونتانيون عند تنامي البنية السلطوية للكنيسة، والتي قيدت الكنائس بعضها ببعضها الآخر، وأعاقت حريتهم في الاجتماعات. إلى هذا،

56- (فيليبي 2: 11)

ظهرت نزعة متنامية لدى القادة في المدن الكبيرة للتسلط على القطيع حتى أنهم أصدروا قرارات توقعوا من سائر الكنائس الأخرى أن تذعن لها. يجب احترام القادة، قال المونتانيون، ولكن هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أنهم معصومون عن الخطأ. كذلك عليهم هم أيضاً أن يخضعوا لكلمة الله. إن الوحدة في الكنائس، كما يصرح المونتانيون، يجب ألا تفرض بالقوة الجائرة. فالوحدة الحقيقية هي ثمرة التسامح والمحبة، ولا يمكن أن تتحقق إلا عندما يمتلئ الجميع بروح المسيح. يجب أن تكون وحدة الكنيسة وحدة روحية أكثر منها مؤسساتية، ويجب أن يكون هناك مكان في أروقتها للأفكار والآراء والاهتمامات المختلفة. إن المخلص نفسه هو رأس الكنيسة ويجب أن يكون روحه هو القائد؛ فليس هناك إنسان قادر على أن يأخذ مكان يسوع المسيح.

كذلك الاجتماعات في كنائس كثيرة، بدأت هي الأخرى تزداد شكلية، وقد حدت بالتالي من حرية الروح القدس في تحدثه المباشر إلى أعضاء الكنيسة. وأشار المونتانيون أيضاً، إلى أن النظار المعتمدين ليسوا وحدهم من يحصلون على التوجيه الإلهي، لأنه بإمكان كل مؤمن أن يصلي إلى الله ليعلم مشيئته، وبذلك يساهم في الحياة الكنسية للخير العام.

فإذا كانت طهارة هذه المجموعة من الناس المؤمنين، في أيام المسيحية الأولى، قد استحقت احترامنا وإعجابنا، فإن استعدادهم للاستشهاد يثير فينا إعجاباً تاماً. فهم لم يترددوا قط في بذل حياتهم، عندما البديل لاستشهادهم كان يعني إنكار مخلصهم. قد نعذرهم على تطرفهم في وضع مستويات الصواب والخطأ، وكذلك على قلة صبرهم على أولئك الذين كانوا يرغبون في سلوك سبيل أدنى من المستوى المطلوب، لأن المبادئ التي كانوا يؤيدونها لم تكن في غالبيتها سوى تعاليم يسوع ورسله. إن ما قدموه كان في معظمه نصائح وحض بغيرة على حب أعمق وتكريس أعظم.

إلا أن العديد من الكنائس في القرن الثاني، كانت تسير في اتجاه مختلف تماماً. فبعضها كان يميل إلى الفكرة القائلة أن التنبؤ قد توقف منذ عصر الرسل، وقيل أيضاً أنه لم يعد بإمكان المسيحيين الحصول على إعلانات

شخصية، وإن أي إنسان يدعي النبوة من الله لا يمكن أن يكون إلا من الدجالين. كان المونتانيون قلقين، ولكنهم، لم يرغبوا في الانفصال عن إخوتهم في المسيح. فعوضاً عن فتح باب الشقاق، تحملوا بصبر سوء الفهم والإجحاف، وعملوا ما بوسعهم للتأثير في الجماعة المسيحية من الداخل.

مع ذلك، فقد كان أناس ينتمون إلى الكنائس القديمة، الذين شعروا بالامتعاض من مواقف المونتانيين، وشكوا في روح الاستقلال عندهم، كما سخروا من الوحي الذي ادعوا حلوله عليهم. فتم رفع الشكاوى ضدهم على أعلى المستويات، وفي مقاطعة فريجية نفسها، موطنهم، قامت بعض الكنائس بإدانتهم. كما سافر أحد مناوئيهم المدعو براكسياس (Praxéas) إلى روما، ونجح في إقناع ناظر الكنيسة، بأن المونتانيين يعملون على إثارة الشقاق والخلاف، ويهددون وحدة الكنائس المسيحية في العالم بأسره. فكانت النتيجة حاسمة إذ أصدرت كنيسة روما الحرم الكنسي بحق المنشقين المونتانيين، واعتبر هذا الحرم شاملاً لكل الكنائس، وفي كل الأصقاع، التي تأتمر بأوامر كنيسة روما هذه المجموعة التي عرفت فيما بعد «بالكنيسة الكاثوليكية» أو الكنيسة العالمية. لم يكن هذا الرفض والإبعاد بسبب تعاليم زائفة صدرت عن المونتانيين، بل، وبكل بساطة، لكون هؤلاء عطلوا نظام الكنائس، ولرفضهم أيضاً القبول بالمقاييس التي حددها قادتهم المعتمدين.

لقد أثيرت فيما بعد شكوك بالغة الخطورة حول صوابية تعاليم براكسياس نفسه. إن آراءه في لاهوت المسيح وناسوته شردت من دون شك عن الحق الكتابي، بينما ظل المونتانيون مستقيمين في هذا المجال. إلا أن التوفيق أضحى مستحيلاً. وربما، لم يعد أمراً عجيباً أن يساء فهم المونتانيين جداً من مؤرخين كنسيين لاحقين من ذوي النزعة الكاثوليكية والأسقفية، الذين، خلال جيلهم الخاص، يتبنون الدعوة المسكونية لتوحيد الكنيسة عضوياً وظاهرياً بأي ثمن. وكثيراً ما كانوا يكتبون عن المونتانيين بكلمات من قبيل: «المتحمسون الصارمون» أو «أبطال في يوم الاضطهاد، متعصبون

في زمن السلم»[57]. ولكن هذا لم يكن كل ما في الأمر.

وبالتأكيد، فإن ما حدث لم يكن نهاية المونتانيين، إذ وجد هؤلاء في ترتوليانوس بطلهم الأعظم. فقد كتب هذا الأخير تفنيداً مسهباً ضمنه حججاً دامغة ضد براكسياس. وقد وضع ثقله خلف حركة المونتانيين التي أشار إليها في تفنيده بالعبارة «النبوة الجديدة». ولم يجعل ترتوليانوس المونتانية جديرة بالاحترام وحسب، بل اعتبرها قوة يجب تقديرها والاعتماد عليها في شمال إفريقيا. واستمر المونتانيون بالتعليم ومد يد العون بعضهم لبعض بقيادة الروح القدس، وبمباركة الله المدركة الظاهر»[58].

قضى ترتوليانوس طوال حياته في قرطاجة، على الرغم من أنه زار روما مرة واحدة على الأقل. ولربما خدم أيضاً في كنيستها كشيخ من شيوخها لفترة ما. وفي روما، أصبح ترتوليانوس ضليعاً في ترجمة لاتينية للكتاب المقدس، تختلف أحياناً وإلى حد بعيد عن تلك التي استعملها كبريانوس لاحقاً في قرطاجة. ولكن غطرسة قادة الكنيسة في روما وعداءهم المذهل للمونتانيين، تركا أثراً ثابتاً في ترتوليانوس مما ساعد، من دون شك، في جعله متعاطفاً معهم ومؤيداً لهم. كان متقد الذهن للغاية وحاراً في الروح جداً حتى إنه لم يكن من السهل عليه الخضوع لأوامر مصقولة صادرة عن أناس دونه شأناً. لم يكن ترتوليانوس يرغب في أن يكون السبب، أو أن يشجع على إحداث شرخ، وكذلك لم تكن الكنائس الأقدم عهداً ترغب في إبعاده عن شركتها. آمن ترتوليانوس، من كل قلبه، بمبادئ الإيمان المسيحي، واختلف مع زملائه المؤمنين، فقط في الاعتقاد أن مستواهم القداسي لايزال متدنياً إلى حد ما. لقد بقي من أعظم مناصري المسيحية الحق. كما كتب بعض أعظم مقالاته ضد «الغنوسطية» (Gnosticisme) وغيرها من الهرطقات والبدع، بعد التحاقه بالمونتانيين. ومن اللازم القول، إن فصاحته اللاذعة كانت أكثر إقناعاً حينما تنصب ضد جعالة العدو المشترك، أكثر

57- Foakes – Jackson p. 254

58- لقد حافظ مونتانيو آسيا الصغرى على كنائسهم المستقلة حتى فترة متقدمة من القرن السادس

(Schaff HOTCC Vol. II p. 421)

منها حينما تكون ضد قصور الكنيسة الكاثوليكية وعدم كفايتها، والتي كان قد تركه وقتذاك.

لقد اعتبر ترتوليانوس دائماً أن الوحدة المسيحية هي فضيلة عظيمة، ولكن لا يجوز أن نشتريها على حساب الحق. ويجب فحص الأفكار الجديدة، أضاف ترتوليانوس، بمقارنتها بكلمة الله؛ ويجب تشخيص الأخطاء في وقت مبكر، قبل أن تنتشر ويستفحل أمرها. قال إن الحق واحد بينما البدعة متشعبة متنوعة؛ والحق يعرف من موافقة الكنائس جميعها عليه، بينما البدعة هي محلية ومحصورة بفئة قليلة. الحق تبدى من أقوال الرسل بينما البدعة مظهر حديث. الحق يثبته الكتاب المقدس، بينما البدعة تنصب نفسها ضد الكتاب المقدس وفوقه[59].

وأخيراً، يظهر أن ترتوليانوس بدأ بنزعة من بعض أوهام التطرف التي ما إليها بعض من المونتانيين. أحياناً، يظهر أنصار مثل هذه الجماعات السائبة والمشحونة حيوية، رغبة مخيفة في قبول إعلانات «أنبيائهم» الذين ادعوا بأنهم ملهمون بالروح القدس، وذلك من دون أي تساؤل. وقد رأى ترتوليانوس بكل وضوح، أن الإيمان ممتاز ورائع، فقط إذا ما كان مبنياً على الحق. فالحرية الروحية يجب أن تمارس ببصيرة متأنية ومتعقلة. والحق الإلهي المعلن من الله والمنسجم مع الكتاب المقدس الموحى به، يجب قبوله. ولكن يجب عدم السماح للكنيسة بأن تساق وراء أفكار انفعالية ومتحمسة صادرة عن خيال أشخاص قد يكونون سليمي النية والقصد ولكنهم يقودون الكنيسة بالتالي، إلى الضياع والتشتت. قال الرسول يوحنا قبل عدة سنوات: «أيها الأحباء، لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم»[60]. كما أن الرسول بولس قال، إن الروح القدس يعطي لبعض الناس القدرة على التنبؤ، أي أن يبلغوا رسالة الله، ولكنه أيضاً يعطي لآخرين القدرة على «تمييز الأرواح»، أي أن يعرفوا ما إذا كان الإعلان من الله أم من مصدر آخر[61]. وبعد بضع سنوات، انفصل

59- راجع De Praescriptione Haereticorum 32

60- (1 يوحنا 4: 1)

61- (1 كورنثوس 12: 10)

ترتوليانـوس على ما يبدو عن المونتانيين جاراً معـه عدداً من أقرب أصدقائه. فبالنسبة إليه، يبقى الحق هو الأهم من كل الأشياء.

ولـم يكـن لترتوليانوس مثيل في عصره سـوى واحد، وهـو أوريجانوس العظيم. وقد ولد أوريجانوس في الإسـكندرية ولكنه انتقل في ما بعد إلى قيصرية على سـاحل فلسطين. وما يدعو إلى الحيرة والعجب حقاً أن يكون كل منهما متشابهين في بعض الوجوه، ولكنهما لم يكونا متشابهين في دروب ومسـالك أخرى. فكل منهما له موهبة التخيل، وهو بارع في التصوير المجـازي، وكل منهما يسـتخدم هذه الموهبـة في كتاباتـه المتدفقة المثمرة، مدافعاً عن الإيمان ضد الوثنية، واليهود والهراطقة. وكلاهما كانا يعيشـان حياة نكران الذات الشديدة الصارمة، وكلاهما، بتعاليمهما وقدوتهما، ألهما جيلهما كيف يجب أن يكون التكريس المسيحي الحقيقي الأصيل. وكلاهما كانا على اسـتعداد أن يعانيا خسارة كل ما في هذه الدنيا من أشياء، عوضاً عن المساومة على حق الإنجيل. ولكن، مع ذلك، نجد كيف أن كل واحد منهما أمضى الفترة الأخيرة من حياته في خلاف مع القسـم الأكبر من الكنيسة المسيحية، وفي صراع مع كبار قادتها المتنفذين في روما.

على أن هذا التشابه بينهما يبقى سطحياً، إذا ما علمنا أن هناك اختلافاً جذريـاً بينهما في الجوهر. والحقيقة، أن واحداً منهما قد أمضى نصف عمره في حيلة وثنية، بينما عرف الثاني منذ ولادته بركات البيت المسيحي المسالم والثابت الإيمان. وهذا ما يفسـر الكثير مما سـنأتي على ذكره الآن. ولاشك أن حماسـة ترتوليانوس الصارمة كانت في طبعه وخلقه، ولكنها ازدادت حدة بفضـل تجديده ورفضـه الكامل لماضيه، بينمـا «عذوبة ونـور» أوريجانوس المحبوب كانا ثمـرة نموه الهادئ بصفاته المسـيحية التي ترعـرع عليها منذ نعومة أظفاره. وقد انعكسـت هذه الأشـياء في أسلوب كتابة كل منهما: فالأول صارم في عقيدته من دون هوادة، أما الثاني، فيحب الخوض في المعاني الغامضة ومعروف بلطفه التأملي الدقيق. يتعامل الأول مع الأشياء بتوكيد صريح مباشر، بينما يتعامل الثاني بمثل نظرية عالية المقام. وبّخ ترتوليانوس اليأس الأدبي في هذا العالم توبيخاً صارماً وعنفه تعنيفاً شديداً، وسخر من

قنـوط الناس الفكـري. بينما قدم أوريجانوس تعاطفاً شـديداً مع كليهما، وشـعر في العمق مع أولئك الذين كانوا يتلمسـون طريقهم بحثاً عن إدراك سـرائر هذا الكون الفسـيح. تعلم ترتوليانوس الفلسفة كوثني وازدرى بها للغاية: فالفلسفة ظهرت كمصدر لأكاذيب وهرطقات لا حصر لها. وتركت النـاس في ظلمة كاملة لا يمكن أن تتلاشـى إلا بفعل نور الإنجيل المعلن. أما أوريجانوس، فقد تعلمها وهو في أحضان المسـيحية، وتعمق في مكنوناتها أكثر كثيراً من ترتوليانوس، فكان لها كل التقدير عنده، واعتبرها اسـتعلاماً جزئياً وتمهيدياً قد لايزال يعمل لخدمة الحق.

على الرغم من أن كلاً من ترتوليانوس وأوريجانوس وجدا نفسـيهما في نـزاع مع المسـيحيين الآخرين، إلا أن سـبب هذا النـزاع كان يختلف في كل حالـة. فانفصـال ترتوليانـوس كان من عمله هـو أما انفصـال أوريجانوس فسـببه أعدائه وخصومـه. ومع أن أحداً في قرطاجة لم يـدن ترتوليانوس،، فإنه تعمد ترك الكنيسـة التـي كان يخدم فيها، وعقد العـزم على تفنيد أخطائها. أما أوريجانوس الذي حرم كنسـياً في الإسـكندرية وروما، فتحرك متوجهاً إلى الشـرق، واسـتمتع هناك بأعظم قدر من الشركة الحميمة مع كنائس تلك المنطقة، من دون أن ينتقد أحداً. ولربما نستطيع أن نرى هنا، وبما سـيلحق، كيف أن شخصية الإنسان تقرر إلى حد بعيد الخدمة التي يتولاها وآراءه ومبادئه الشخصية أيضاً.

يقـول بعضهـم أن ترتوليانوس بعد انجرافـه بعيداً عن تيـار المونتانيين، لـم يلبث أن عاد إلـى مجموعة الكنائـس الكاثوليكية التـي انتمت إليها غالبيـة مسـيحيي شـمال إفريقيا في ذلـك الوقت. وهذا الرأي مشـكوك فيـه، ولكنه قد يبدو جذاباً لأولئك الذين يوقـرون كلاً من الرجل ترتوليانوس والبنيـة الكاثوليكية. في الحقيقة، وبعد مرور قرنـين من الزمن، بقي هناك مجموعـة من المسـيحيين يعرفـون بالترتوليانيين، «أي أتبـاع ترتوليانوس» على الرغم من أن عددهم كان قليلاً. ولكن وجودهم، إن دل على شـيء، فهو

يدل على أن ترتوليانوس بقي بعيداً إلى حد ما من الكنيسة التي انتقدها بشدة[62]. ومن جهة ثانية، وبعد مرور قرن على وفاته، فحتى كبريانوس، وهو أقوى وأخلص المدافعين عن الوحدة الكاثوليكية، قوم كتابات ترتوليانوس، وقدمها على سائر الكتب الأخرى، حتى أنه كان يخاطب أمين سره قائلاً: «جئني بالأستاذ، ناولني المعلم»، كلما شاء أن يتصفح مجلداً أو كتاباً ألفه ترتوليانوس. ويبدو أن ترتوليانوس اعتبر أن لا ضرورة لإجراء أي مصالحة رسمية مع الكنيسة الكاثوليكية، لأنه لم يدن رسمياً، ولا القادة حرموه كنسياً في كل من قرطاجة وروما. ونعلم أن ترتوليانوس قد اجتذبه كل من كان يشاركه إيمانه، إذ كان مستعداً أن يجتمع للعبادة مع أي جماعة تحب المسيح وتخدمه بإخلاص، وذلك بمعزل عن الكنيسة التي تنتمي إليها.

يخبرنا المترجم العظيم جيروم (Jérôme)، أن ترتوليانوس عاش عمراً طويلاً، ولم يعرف كيف أو متى توفي. ولكن، لابد من أن يكون تاريخ وفاته بين الأعوام 220 – 240 ميلادية. وهذا يظهر أنه كان في سن الستين على الأقل حين لبى نداء ربه وغادر هذا العالم.

تحدث ترتوليانوس إلى كل من الكنيسة النامية والعالم المراقب، معلناً المفارقة الشاسعة القائمة بينهما، تلك المفارقة التي كانت واضحة جلياً لكل من له عينان تريان: «حق العقيدة المسيحية، مقابل أكاذيب الوثنية؛ نقاوة الأخلاق المسيحية مقابل إباحية الوثنية؛ أخوية الشركة المسيحية مقابل أنانية الوثنية وقسوتها»[63]. لقد محور مواضيعه الأساسية حول ثلاثة: الحق، النقاوة، والأخوية. يجب إحياء ذكره بواسطة كلماته الخاصة هذه التي يعرض فيها إقراراً للحق، حق الله الذي لا يمكن ولا يجوز إخفاؤه[64].

«لا يطلبُ الحقُّ معروفاً
أو استحساناً لقضيته

62- يذكر أغسطينوس كيف أنه تمكن أخيراً بفضل جهوده، أن يصالح الترتوليانيين في قرطاجة مع الكنيسة الكاثوليكية، وذلك في القرن الرابع (De Haerisibus 6; Schaff HOTCC Vol.II p.421)

63- Lloyd p. 28

64- Apologeticus 1; راجع الترجمة في Lloyd p. 23

فهو يعلم أنه
غريبٌ في هذه الديار
وأنه بين الغرباء، من السهل أن
يجد لنفسه أعداء.
فولادته، وداره، ورجاؤه
هي في السماوات.
ولكن شيئاً واحداً يتمنَّاه
الحقُّ بشدة،
ألاَّ تحصل إدانته
وهو غير معروف».

ترتوليانوس

الفصل الثامن

الكتابات الروحية

إن كبار المفكرين المسـيحيين في القرون الأربعـة الأولى للميلاد اهتموا بتعريف عقائد الإيمان وانهمكوا في الدفاع عنها. فقد شـغلتهم الأسـئلة التالية: هل كان المسيح إنساناً مثلنا؟ أو هل كان ملاكاً؟ أو أنه كان يختلف عنا في جملته – كأن يكون ليس بإنسان ولا بملاك؟ هل كان المسيح موجوداً منذ الأزل؟ أو هل وجد عندما حبلت به العذراء؟ هل جرب المسـيح حقاً، كما نجرب نحن، حيث كان بإمكانه أن يخطئ؟ أو كان مستحيلاً عليه أن يخطئ، وبالتالي فإنه لم يتعرض للإغراءات الحقيقية؟

بحث المسـيحيون الأوائل في إيجاد أجوبة عن هذه التساؤلات من خلال العهـد القديم، ومن مضامين ما كتبه الرسـل، واسـتناداً إلـى ما قاله الرب يسوع نفسه. وقد استنتجوا أحياناً استنتاجات شخصية مستندة إلى ما بدا لهم أنه منطقي وعقلاني، ولكنهم في النهاية، كانوا يعودون دائماً إلى ما يشير إليه العهد القديم، وإلى ما كتبه المسيحيون الأولون باعتبار أن هذه الكتابـات موحى بها من الله. وإذا ما ظهـر أي التباس، فيمكنهم معالجته بالرجوع إلى أقوال الرب يسـوع، أو إلى أقوال لبولس أو بطرس أو غيرهما من الرسل الآخرين.

بانتهاء القرن الأول للميلاد، كانت جميع كتب العهد الجديد قد أكملت، ولكن هذه الكتب، كان يتم تداولها بين الكنائس على شكل وثائق متفرقة. فيمكـن مثلاً أن تملـك إحدى الكنائس إنجيل متى، بينمـا يكون إنجيل يوحنا في حوزة كنيسـة أخرى. أما كنيسـة ثالثة فقد يكون عندها أربع رسـائل لبولـس أو خمس. ومن الممكن أن نجد في مكان آخر رسـالة بطرس الأولى أو سـفر الرؤيا. إلى هذا، فقد وضعت كتابات مسـيحية أخرى باتت مشهورة في الأوسـاط الشـعبية، الأمر الذي حتم على قادة الكنيسـة أن يقرروا أياً من هذه الكتابات هو صادر عن الرسـل أنفسـهم، أو أي منها يمكن اعتباره له سـلطة، وملهماً بوحي من الله إلى خدامـه المختارين، أو أي الكتب يعتبر من عمل إنسـان أصدره، ربما، عن حسـن نية؟ وفي بداية العام 180 ميلادي،

ظهر بين المسيحيين شبه إجماع في الرأي حول الكتب التي يمكن اعتبارها قانونية ومعترفاً بها. وفي مدينة بونتوس (Pontus) التي تقع في أقصى الشمال الشرقي من الدولة التركية الحالية، صاغ ماركيون (Marcion) في عام 140 ميلادي قائمة قصيرة بالكتب المقبولة لديه، ولكن نظرية ماركيون هذه جنحت نحو الأفكار الصوفية الخاصة بالغنوسطية، ومال إلى رفض تلك الكتب التي لا تدعم آراءه. على أن كتاباً آخرين، من الرعيل الأول، وافقوا على الكتب المقبولة ماركيون، مضيفين إليها كتباً أخرى، واعتادوا أن يستعملوها في كنائسهم. وفي الغرب، كان إنجيل يوحنا أقل شعبية من الأناجيل الأخرى التي أصدرها باقي البشيرين: متى ومرقس ولوقا، والتي تدعى الأناجيل السينوبتية، وهناك أيضاً، لم تقبل الرسالة إلى العبرانيين إلا ببطء. أما في الشرق، من الناحية الأخرى، فلم يعترف بسفر الرؤيا بادئ ذي بدء.

في مستهل القرن الثالث للميلاد، ألمح ترتوليانوس إلى كل واحد من الأناجيل الأربعة عندما كان يصف حياة المسيح. أما في أواسط القرن الثالث، فقد أصبحت جميع الأسفار التي تؤلف العهد الجديد الذي عندنا اليوم، معترفاً بأصالتها وسلطتها. على أن رسالة أثناسيوس (Athanase)، ناظر كنيسة الإسكندرية، والتي كتبت في سنة 367 م، تعتبر عموماً، أنها الأولى التي تعرف بلائحة أسفار العهد الجديد القانونية، والتي تحتوي على سبعة وعشرين سفراً نستعملها حتى يومنا هذا. وبعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ، حدد المؤتمر الذي انعقد في قرطاجة، جميع الأسفار القانونية في العهد الجديد، وهي التي أصبحت منذ ذلك الحين الكتب المعتمدة في جميع أنحاء العالم.

ومن الطبيعي، أن قبول هذه الكتب، يعني رفض غيرها من الكتب، تلك الكتب التي ندعوها اليوم «الأسفار الأبوكريفية» (Apocryphe). فإن كتابات الأبوكريفا تتحدث عن خوارق شاذة وغريبة، وواضح أنه تختلف عن الروايات المنضبطة والرزينة التي جاءت في الأناجيل وأعمال الرسل. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان لهذه الكتب شعبية واسعة بين أولئك

الذين يستمتعون بالأوهام والتخيلات، ولم يعطوا اعتباراً وتحفظاً للتعليم الذي رافق هذه الكتب والأسفار. وتزعم بعض هذه الكتب أن كاتبيها كانوا الرسل عينهم، ولكن بعد التقصي الدقيق تبين أن هذه الكتب تحتوي على تعليم يتعارض مع المستندات والوثائق التي كان، ولا شك، قد خلفها ورائهم هؤلاء الرسل. فهناك مثلاً إنجيل بطرس المزور، الذي يحتوي على تعاليم وعقائد لا يمكن أن يكون بطرس قد علمها. وهناك ما يدعى «رسالة برنابا»، التي من الممكن أن تكون قد ألفت وجمعت في القرن الثاني للميلاد[65]. أما الكتاب الأكثر شهرة ، فهو ذلك المدعو «ديداكي» (Didache)، أي «تعليم الرسل الثني عشر»، ولربما كتب نحو عام 100 للميلاد. وقد أشار أثناسيوس في القرن الرابع إلى كتابات الأبوكريفا هذه بالقول إنها «الكتب التي لا تحمل أية سلطة، ولكنها عينت من المسيحيين الأولين لتقرأ على أولئك الذين آمنوا حديثاً»[66]. إن القصة المجازية المسماة «راعي هرماس» (Le Berger d' Hermas) انتشرت بشكل واسع في إفريقيا الشمالية، وهناك رسالة أخرى بعنوان رسالة إقلمندوس (L'Epître de Clément)، وعدد من النصوص الأخرى كتلك الروايات التي تدّعي التحدث عن طفولة المسيح والرحلات التي قام بها بطرس وبولس والرسل الآخرون. لقد ادعى بعض الأشخاص أو الكنائس خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد، يجب أن يعترف بقانونية هذه الأسفار والرسائل الآنفة الذكر، وحاولوا إنزالها إلى جانب الأناجيل والرسائل التي تكون كتاب العهد الجديد اليوم، ولكن أغلب الكنائس أجمعت على رفضها. هذا لأن قراءة دقيقة فاحصة للأبوكريفا، تظهر، في كل حال، عيوباً في تعاليمها ومبادئها، وهي تفتقر إلى الضبط والتوازن الذين يميزان الكتب المعترف بها من الكنيسة، والمعتمدة منذ ذلك

65- لا ينبغي لنا أن نخلط بين رسالة برنابا وما يسمى «بإنجيل برنابا»؛ إذ لا توجد أي إشارة إلى هذا الأخير في أي وثيقة قبل نهاية القرن الخامس، حين ذكر كعمل هرطقي متأخر وغير مقبول. وهناك كتاب يرجع إلى القرن الثامن عشر يدعي أنه هو ذاك الإنجيل المفقود. لكنه مكتوب بالإيطالية، ويحتوي على اقتباسات من قرآن القرن السابع ومن «الكوميديا المقدسة» لدانتي في القرن الثالث عشر للميلاد. لذا، فلا شك في أن هذه الوثيقة الإيطالية لا ترجع إلى زمن الرسل. وأخيراً نلاحظ أنه لم يتم العثور على أي وثيقة أخرى عن هذا «الإنجيل» المزيف.

Epistolae Festales 39; Bainton p. 98 -66

الحين على أنها تشكل كلمة الله الموحى بها وذات السلطة.

لقد صانت الكنائس الأولى كتب العهد الجديد باحترام وإجلال شديدين. وكان قادتها يرجعون مراراً إلى هذه الكتب عند الوعظ والتعليم. كما أن علماء اللاهوت عندهم كانوا يستشهدون بها بشكل ثابت عند تقديم الحقائق العظمى للإيمان وتوضيحها. فترتوليانوس مثلاً، بنى فهمه للثالوث الأقدس، بشكل كامل، على شهادة كتابات هؤلاء الرسل. وقال: «كل الكتاب المقدس يبرهن بوضوح وجود الثالوث الأقدس»[67]. آمن المسيحيون الأوائل بأن هذه الوثائق هي من وحي الله تعالى، كأسفار موسى وكتب الأنبياء والأعمال الشعرية التي في العهد القديم: «تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس»[68]. وشعروا بالحاجة إلى تفتيش الكتاب المقدس، للوثوق بوعود الله المعلنة على صفحاته ولتطبيق مبادئه في حياتهم اليومية. وعن هذا أيضاً، أجاب ترتوليانوس مرة أخرى بالقول: «نحن ملزمون في إنعاش ذاكرتنا بكتاباتنا المقدسة، وذلك لنستطيع أن نرى ما إذا كان أي من أمورنا الحاضرة يحتاج إلى تحذير أو إعادة نظر. وفي كل الحالات، نحن نغذي إيماننا بهذه الأقوال المقدسة؛ إننا نبعث رجاءنا، ونؤسس ثقتنا، وفي الوقت نفسه نحن نقوي تهذيبنا وانضباطنا بالانتباه الثابت إلى الوصايا»[69].

كان المسيحيون الأوائل ملمين إلماماً تاماً، ليس فقط بالعهد الجديد، بل بالعهد القديم أيضاً. فمعظمهم لا يعرفون القراءة باللغة العبرانية الأصلية. والنسخة الواسعة الانتشار والاستعمال خلال القرون الأربعة الأولى، كانت الترجمة إلى اليونانية، والتي عرفت بالترجمة السبعينية (Septante)، ويرمز إليها أحياناً بالأحرف اللاتينية المختصرة LXX. لقد تولى سبعون أو اثنان وسبعون من جهاز العلماء اليهود في مدينة الإسكندرية العمل الترجمي من العبرانية إلى اليونانية، وذلك في حدود السنة 200 قبل الميلاد. فانفرد كل من هؤلاء المترجمين في حجرة مغلقة، كما تذكر القصة، فجاءت تراجمهم متطابقة بشكل أعجوبي رائع. والجدير ذكره أن ترتوليانوس

67- Adversus Praxean 11

68- (2 بطرس 1: 21)

69- Apologeticus 39

وأغسطينوس لم يعيرا هذه الأسطورة الشعبية اهتماماً كبيراً، ولكنهما مع ذلك كانا يقدران هذه الترجمة.

أبدى المسيحيون الأوائل احتراماً كبيراً للترجمة السبعينية، خصوصاً في ضوء الادعاءات عن أصلها المعجزي. وكانوا يعتمدون على هذه الترجمة في مباحثاتهم ومناظراتهم مع اليهود. إلا أن بعض المسائل العقائدية المستمدة من السبعينية، كانت مع الأسف تستند إلى ترجمة مغلوطة للآيات موضوع الجدل. ولم يتم التخلي عن هذه العقائد إلا بعد أن اكتملت التراجم التي أجريت فيما بعد، مثل ترجمة جيروم اللاتينية المعروفة بـ«الفلغاتة» (Vulgate).

لم يوضع علم اللاهوت للكنيسة الأولى بشكل نظامي في البداية. فمثله مثل لائحة الأسفار القانونية في العهد الجديد، وأنجز قطعة قطعة، تجاوباً مع الاحتياجات الجارية، أو استجابة لما يطرأ من تساؤلات خاصة. لقد وضعت معظم الكتابات اللاهوتية ككتب يوستينوس (Justin) وإيرينايوس (Irénée) وترتوليانوس وأوريجانوس جواباً عن تحديات أوردها النقاد، أو بعض المسيحيين الذين كانت آراؤهم وتعاليمهم غير نقية. ففي الواقع، إن أولئك المقاومين يستحقون شكرنا، لأنه لولا تهجمهم ذاك، لما حمل أصحاب تلك العقول الملهمة المعاصرة على الغوص في تفسير أدق المسائل المرتبطة بالنصوص الكتابية الموحى بها. إن هذه التساؤلات الأساسية نفسها تثار من جيل إلى جيل، والأجوبة التي قدمها لها ترتوليانوس وغيره منذ أكثر من 1600 سنة، لاتزال في أحيان كثيرة بالأهمية عينها التي كانت لها وقتئذ.

ففي إحدى المناسبات، سأل بعض الذين دأبهم الحط من قدر الإيمان: لماذا سمح الله أن يقع الإنسان في الخطيئة؟ لماذا لم يحم الله الإنسان من الإغراء، أو يعطه، على الأقل، القوة لتخطي الإغراء؟ لقد احتجوا قائلين إنه عندما سمح الله لآدم بأن يقع في الخطيئة، لابد من أن الخالق كان يفتقر إما إلى الصلاح وإما إلى المعرفة المسبقة وإما إلى القدرة. وكان قصدهم في

الواقع، أنه لو أن الله موجود حقاً، لوقعت الملامة عليه بالنسبة إلى الشر الموجود في العالم، أو ربما ألحوا بشكل مبطن إلى أن الله غير موجود على الإطلاق.

حمل ترتوليانوس بعنف على هؤلاء النقاد وذلك بأسلوبه المؤثر المعتاد. قال: «والآن، جواباً عن تساؤلاتكم أيها الكلاب الذين طردهم بولس الرسول وأخرجهم خارج الأبواب[70]، أنتم يا من تنبحون على الله، إله الحق. هذه هي الأسئلة التي ما فتئتم تقضمونها باستمرار كما تقضم الكلاب العظام: «فإذا كان الله صالحاً ويعلم الأشياء مسبقاً، وله القدرة على ردع الشر، فلماذا يسمح للناس إذاً، بأن يخدعهم إبليس، ويسقطوا من الطاعة لقوانينه تعالى لكي يموتوا ... ؟ فإذا كان الله صالحاً، فهو لن يرغب في حدوث شيء كهذا، وإذا كان يعلم الأمور مسبقاً، فإنه لن يكون غافلاً عما سيحدث؛ وإذا كان قوياً، فإن باستطاعته الحؤول دون حصوله. وفي كل حالة أو وضع يتوجب أن يتطابق مع هذه الصفات الثلاث للجلال الإلهي».[71]

وبعد أن أثار هذه التساؤلات، شرع ترتوليانوس في الإعداد للإجابة عنها. وقد اتبع في ذلك مثال المسيح، مشيراً إلى أن صلاح الله، ومعرفته الكلية، وقدرته المطلقة، ظاهرة بوضوح، من خلال أعماله في الخلق، وكذلك في إرساله الأنبياء الذين تنبئوا بدقة عما سيحدث في المستقبل. وأخيراً اقترح ترتوليانوس ألا يصار إلى البحث عن الشر في طبيعة الله، بل في طبيعة الإنسان؛ وأضاف قائلاً: «أجد أن الله خلق الإنسان مخلوقاً حراً وأعطاه إمكانية الاختيار. وهذا بالذات، يظهر لي شبه الله وصورته التي أوجدها في الإنسان إذ قد ميزه تعالى بالحرية وبإمكانية الاختيار. ثم يأتي الناموس نفسه الذي أسسه الله ليثبت واقع حال الإنسان هذا. فالناموس لا يعطى إلا لذاك الذي يمتلك القوة لاختيار الطاعة التي يطلبها الناموس ... إذاً، منح الإنسان الحرية الكاملة ليختار بين الصالح والطالح، ليكون بذلك سيد نفسه باستمرار، ملتصقاً بالخير طوعاً، ونابذاً كذلك للشر، لأن حكم الله

70- بالإشارة إلى (فيليبي 3: 2)
71- Adversus Marcionem 2:5 راجع ترجمة: Bettenson ECF pp. 111 – 112

على الإنسان (وهو على كل حال تحت هذا الحكم باستمرار)، من الضروري أن يكون عادلاً، وناجماً من اختيار الإنسان الحر. وإلا، فإذا كان الله يدفع الناس عنوة ليكونوا صالحين أو طالحين، فلن تكون هناك عدالة في إدانتهم للشر أو الخير الذي يفعلونه بالاضطرار لا بالاختيار»[72].

قال ترتوليانوس إنه كان بإمكان الله أن يلزم الإنسان بطاعته طاعة دائمة، لكن مثل هذه الطاعة تمثل العبودية أكثر من تمثيلها لحب الإنسان لربه. إن الصلاح الحقيقي هو سجية علينا أن نقبلها طوعاً، وبشكل حر. فالإنسان غير مرغم أبداً على العيش حياة القداسة أو الشر. فبإمكانه، باختياره الشخصي، أن يلتصق بالخير ويقاوم الشر، وبهذا يصبح على شبه الله نفسه. ولكن إذا كان الإنسان حراً في اختياره الخير، فهو حر أيضاً في اختيار الشر: وهذا ما يفعله أحياناً. إن سقوط الإنسان، والشر الذي في العالم، هما النتيجة الحتمية للإرادة الحرة التي منحها له الله. وحتى في هذه الحال، يبقى الأمر أفضل من إلزام الإنسان بطاعة قسرية لله، تظهر قوته تعالى، ولكنها في الوقت عينه، تجعل الإنسان عبداً. إن الله، بمنحه هذه الحرية للبشر، أظهر بذلك بصيرته وحكمته وصلاحه، ولم يتنكر لها.

لم يكن ترتوليانوس صبوراً على أولئك الذين وجدوا لذة في السخرية من حكمة الله. لقد أعلن الله عن ذاته كما هو في الحقيقة: ديان وفاد . قال ترتوليانوس: «أنت تدعوه قاضياً، ومع ذلك فإنك تسخر من قسوة القاضي الذي يتعامل مع كل قضية كما تستوجب أو تستحق تماماً. أنت تطلب إلهاً مطلق الصلاح، وبعد ذلك، عندما يظهر الله وداعته ولطفه من خلال تنازله، ليتلاءم مع قدرات الإنسان الفقيرة المحدودة، تنتقص من قدره تعالى متهماً إياه بالضعف. فلا الإله العظيم يسرك ولا الإله الوديع، لا الإله القاضي ولا الصديق»[73]. ولكن الكثير الانتقاد لا يبدي في الواقع أي رغبة في قبول شيء، فهو يفرح بالسؤال أكثر من فرحه بالحصول على الجواب الشافي، ونادراً ما يأبه لاكتشاف الحقيقة.

72- Adversus Marcionem 2:6
73- Adversus Marcionem 2:27

لم تكن وقائع حياة المسيح وموته وقيامته موضع نقاش أو جدل خلال القرنين الأول والثاني للميلاد، لأنها كانت من المسلمات بالنسبة إلى اليهود والأمم على السواء. فالاهتمام كان بالحري منصباً على طبيعة المسيح نفسه. هل كان المسيح إنساناً عادياً مسحه الله بقوة خاصة؟ أو هل كان ملاكاً وذا جسد شبه بشري؟ هل كان المسيح كائناً خاصاً، خلقه الله ولكنه ميزه عن كل الملائكة والناس؟ لقد تشعبت نظريات عديدة من تلك الأفكار التي تعرف اليوم بالبدعة الغنوسطية. كانت المذاهب الغنوسطية متأثرة جداً بالفكر اليوناني. وكان أنصارها يدعون أن لهم إدراكاً أعمق للحقائق مما لغيرهم من أبناء جيلهم، وذلك بسبب اطلاعهم، ومعرفتهم الواسعة بأسرار الفلسفة، وعلم الأساطير أو علم التنجيم. وقد فسروا الكتاب المقدس، وكل الأشياء الأخرى، في ضوء معرفتهم الخاصة هذه. كانوا يعتبرون المادة بجملتها شراً، ولم يستطيعوا أن يتصوروا ابن الله القدوس آخذاً جسداً بشرياً. فقالوا فيه أنه ينبغي أن يكون إما ملاكاً وإما روحاً.

يقبل ترتوليانوس التحدي: «لم يهبط ملاك من السماء قط ليصلب ويختبر الموت، ثم القيامة من الأموات ... لم يأت الملائكة ليموتوا، لذا لم يأتوا ليولدوا أيضاً. ولكن المسيح أرسل ليموت، لذا كان من الضروري أن يولد حتى يتمكن من أن يموت»[74]. لقد أصبح إنساناً حقيقياً من لحم ودم كما نحن.

وفي مناسبة أخرى، يرد ترتوليانوس على أولئك المعترضين، مبدداً الأفكار التي تقول إن الجسد البشري الفاسد، وبالتالي غير لائق بابن الله. «دعوني الآن أكمل قصدي إذ أبذل قصارى جهدي لإظهار كل ما منح الله الجسد عند خلقه». فعندما خلق الله آدم من طين الأرض، كان بإمكان آدم «أن يفتخر بأن هذا الطين الحقير قد وجد في يديه تعالى ... وقد سرته هذه اللمسة بما فيه

74- De Carne Christi 6

إن المعجزات التي مجدت ولادة المسيح وخدمته الشفائية وقيامته وصعوده تبين بوضوح أنه أعظم من أي واحد من الأنبياء. لذلك، ومنذ الأزمنة الأولى، نال اللقب الفريد والسامي: «ابن الله»، بوصفه الشخص الذي مثل الألوهية وأظهرها في الأرض. هذا، وإن المسيحيين في الماضي، كما في الحاضر، يعرفون أن لهذا التعبير مفهوماً رمزياً وروحياً، وليس جسدياً أو مادياً.

الكفاية»[75]. ولكن الله لم يفكر في آدم وحده عندما خلقه بجسمه هذا، وإنما فكر أيضاً في ابن الله الذي سيحصل أخيراً على الشكل نفسه والهيئة نفسها. «فلنفكر في الله وهو منشغل ومنهمك تماماً في عمل الإنسان، فيده تعمل مع مشاعره، ونشاطه، وتدبره وعلمه المسبق، وحكمته وعنايته، وفوق هذا كله تلك المحبة التي كانت ترسم الخطوط والمعالم في الكائن البشري، لأنه بينما كان الله يقولب كل جزء من الإنسان من الطين، كان المسيح في فكره تعالى، باعتباره ذاك الإنسان الذي سيكون في الزمان الآتي. لأن كلمة الله سيصير طيناً وجسداً ... بعض الأشياء لها الامتياز بأن تكون أشرف وأنبل من أصلها ... فالذهب لم يكن سوى تراب قبل أن نستخرجه من الأرض، ولكن بعد تصفيته يتحول إلى ذهب صلب جامد، ويصبح مادة مختلفة تماماً عما كانت عليه قبلاً، إذ يكون أكثر إشراقاً وروعة، ويكون أكثر قيمة مما كان عليه في مصدره الوضيع الذي انبثق منه»[76]. إن المسيح هو من طينة آدم وجبلته، بيد أن مجده هو أعظم بما لا يقاس.

إذاً، ليس من السخافة في شيء أن يكون المسيح إلهاً وإنساناً في آن، فهو يمتلك روحاً إلهياً وجسداً بشرياً. يضيف ترتوليانوس قائلاً: «فتعلم إذاً مع نيقوديموس كيف أن المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح»[77]. فالجسد لا يصبح روحاً ولا الروح جسداً، ولكن يمكن لكليهما أن يوجدا في شخص واحد. كان يسوع يتكون من جسد وروح – من جسد كإنسان، ومن روح بصفته الله. لقد دعاه الملاك «ابن الله»، وذلك بما أنه روح، مستبقياً للجسد اللقب «ابن الإنسان». وعليه فقد أيد الرسول بولس أن للمسيح طبيعتين عندما قال عنه: إنه «الوسيط بين الله والإنسان».»[78].

حار الغنوسطيون بفكرة الثالوث الأقدس، ووجدوا صعوبة في إدراك كيف يمكن للمسيح أن يكون هو الله نفسه، مع أنه يختلف عن الله. لقد علموا أن المسيح هو كائن خاص، ولكن لا يجوز في نظرهم اعتباره مساوياً لله.

75- De Resurrectione Carnis 6

76- De Resurrectione Carnis 6

77- بالإشارة إلى (يوحنا 3: 6)

78- Adversus Praxean 27; بالإشارة إلى (1 تيموثاوس 2: 5)

أعطى ترتوليانوس قدراً كبيراً من التفكير في هذا الأمر. ويبدأ باستعراض ما نعرفه بوضوح عن الله نفسه بالقول: «قبل أن توجد الأشياء كلها، كان الله وحده. كان هو نفسه الكون الخاص به، والمكان الخاص به؛ كان الله كل شيء. كان وحيداً، بمعنى أنه لم يكن هناك شيء خارجاً عنه. ومع ذلك، لم يكن الله وحده، حيث كان معه ما هو جزء منه؛ لقد كان معه ذهنه. فالله هو عاقل والذهن موجود معه منذ الأزل، ومنه انتشر إلى كل الأشياء. وهذا الذهن هو وعيه الشخصي لذاته. واليونانيون يدعونه اللوغوس (Logos)، والذي هو المصطلح الذي نستعمله للخطاب. وهذا ما يترجمه شعبنا حرفياً بالقول: «في البدء كان الخطاب عند الله».»[79]. وهنا بالطبع، يشير ترتوليانوس إلى افتتاحية إنجيل يوحنا حيث أن «الكلمة» (بمعنى الذهن والعقل والخطاب) يمثل المسيح. «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان»[80].

وأردف ترتوليانوس يقول إن هذا الكلام لا يصعب فهمه كما قد يعتقد أحدنا. «ولكي تفهم ذلك بسهولة أكبر، لاحظ أولاً نفسك (حيث أنت «صورة الله وشبهه»[81]) بأنه عندك أنت أيضاً ذهن، وذلك لكونك مخلوقاً عاقلاً ... لاحظ كيف أنه عندما تأخذ في مناقشة نفسك بصمت، وفي تشغيل ذهنك، فإن هذا الأمر نفسه يحصل فيك، حيث أن الكلام يعبر عندك عن الذهن، وذلك في كل لحظة من لحظات التفكير، وفي كل نشاط للوعي والشعور، فكل فكر تفكره يعبر عنه بحديث وكلام، وكل لحظة من لحظات الوعي تعبر عن نفسها من خلال التفكير ... وعليه، فالحديث الذي يدور في داخلك يميز بمعنى من المعاني، عن ذاتك»[82].

يفكر الله بالطريقة نفسها التي يفكر فيها الإنسان، حيث أن الإنسان صنع على صورة الله ولكن مع الفارق التالي: أفكار الله لها القدرة اللامتناهية

79- Adversus Praxean 5
80- (يوحنا 1: 1 - 3)
81- بالإشارة إلى (1 كورنثوس 11: 7)
82- Adversus Praxean 5

لتصبح حقيقة. بإمكان الإنسان أن يفكر في أمور عظيمة ولكن ليس له القدرة على أن يحقق كل ما يتصوره. الله بالمقابل، لا يحتاج إلا إلى أن يفكر في شيء، فيقدر على أن يخلق هذا الشيء كاملاً وذلك فوراً ومن العدم. والكلمة الذي كان دائماً في فكر الله ولد أو أنجب في اللحظة التي فيها أنجز الله مضمون فكره. «هذا إذاً هو الوقت الذي فيه يظهر الكلمة بمظهره ولباسه الخارجيين ... كانت هذه الولادة الحقيقية للكلمة عندما انبثق من الله»[83]. فقد لاحظ تلاميذ المسيح أن سيدهم كان الكلمة الذي خرج من الله. «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً»[84].

قال ترتوليانوس إن «الكلمة (المسيح) جعل الله أباً له حيث أصبح انبثاقه منه، الابن الأول، وهو كذلك لأنه منبثق قبل كل الأشياء؛ كذلك هو الابن الوحيد للآب بصفته منبثقاً بشكل فريد من أحشاء قلبه تعالى»[85]. والكتاب المقدس يبرهن لنا هذه الحقيقة حيث أن المسيح نفسه قال إنه جاء من عند الله، من عقله الداخلي. وقد تحدث المسيح عن المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم [86]. كذلك تحدث عن محبة الآب له قبل تأسيس العالم[87]، وعن الآب الذي أرسله إلى العالم المخلوق[88]. ولكن حتى عندما كان المسيح على هذه الأرض، كان «في الآب». وهو الذي صرح بالقول: «أنا والآب واحد». وأيضا: «لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني»[89]. لقد جاء المسيح من الآب، وكان لايزال واحداً مع الآب. وبعد قيامته عاد إلى الآب. كان دائماً وبشكل ثابت، كلمة الله، والإعلان الإلهي الظاهر للخالق الإلهي ذاته.

بهذا الأسلوب حاول ترتوليانوس أن يجيب عن أسئلة الغنوسطيين. ولكن، كانت هناك جماعات أخرى على نقيض الغنوسطيين، تثبت أن

83- Adversus Praxean 7
84- Adversus Praxean 7
85- (يوحنا 1: 14)
86- (يوحنا 17: 5)
87- (يوحنا 17: 24)
88- (يوحنا 17: 18)
89- (يوحنا 10: 30 و38 ؛ 8: 16)

المسيح والآب كانا متطابقين على نحو مطلق. وقد وجد ترتوليانوس جواباً لهؤلاء أيضاً. فيسوع نفسه قال: «أبي أعظم مني»[90]. وذلك، كما لاحظ ترتوليانوس، لأن الآب هو الجوهر الكامل (للألوهية) بينما الابن انبثق منه وهو جزء من كل ... جاء الابن من الآب، ولكنه لم يكن منفصلاً عنه. لأن الله ينتج الكلمة ... كما الجذر ينتج النبتة، والنبع النهر، والشمس الشعاع، حيث أن هذه المظاهر كانت «امتداداً» للجوهر الذي انبثقت منه. أنا لا أتردد في أن أدعو النبتة «بنت الجذر»، وكذلك النهر «ابن الينبوع»، والشعاع «ابن الشمس». حيث أن كل مصدر أصلي هو والد أو والدة، وما ينتجه هو ابنه أو ابنته. وهذه الحقيقة تصح أكثر بكثير على كلمة الله الذي حصل على اسم «ابن» كلقبه المناسب. ولكن النبتة ليست منفصلة عن الجذر، والنهر ليس منفصلاً عن الينبوع، والشعاع غير منفصل عن الشمس، وهكذا كلمة الله ليس منفصلاً عن الله. وعليه، واستناداً إلى هذه التناظرات، أعترف بأنني أتحدث عن اثنين: الله وكلمته، الآب وابنه. إن الجذر ونبتته هما اثنان، ولكنهما متحدان. النبع والنهر اثنان، ولكنهما موحدان؛ الشمس وشعاعها اثنان، ولكنهما متحدان. فإن أي شيء ينبثق من أي شيء آخر يحتاج إلى أن يكون شيئاً ثانياً، ولكنه ليس بالضروري منفصلاً عنه. وعندما يكون هناك واحد ثانٍ، فإنهما اثنان، وعندما يكون هناك ثالث يكونون ثلاثة. الروح القدس هو الثالث من الله والابن، كما الثمرة من النبتة فوق الأرض هي الثالثة من النبتة، والقناة من النهر هي الثالثة من النبع، والنقطة المضاءة بالشعاع هي الثالثة من الشمس. ولكن أحداً من هذه غير منفصل عن الأصل الذي تستمد منه صفاتها الخاصة. وعليه، فإن الثالوث ينبثق من الآب بخطوات مستمرة ومتصلة بعضها ببعضها الآخر. وهذا لا يطعن، بأي حال من الأحوال، في وحدته تعالى، ولكنه يحافظ على حقيقة كونه يعلن ذاته بطرق مختلفة»[91].

وبهذا، ختم ترتوليانوس حديثه قائلاً إن الابن والروح القدس انبثقا من الله نفسه، كانا موجودين مع الآب منذ الأزل، ولكن، في الوقت المعين أرسلا

90- (يوحنا 14: 28)
91- dversus Praxean 7

كإعلان عن الله نفسه. الكلمة هو الله، ولكن الله هو أكثر من مجرد كلمته. الروح القدس هو الله، ولكن الله أكثر من مجرد روحه. فالله يشتمل على كل هؤلاء: هو نفسه، كلمته وروحه. إن كلمة هو إعلانه عن نفسه تعالى. وروح الله هو إعلانه عن نفسه أيضاً. ولكنه يبقى هو الله نفسه، الله الواحد كما كان دائماً وكما سيبقى إلى الأبد.

ولكن ترتوليانوس اعترض على بعض الناس الذين يدعون أنه لم يكن هناك فرق أو تمييز بين الآب والابن. ويذهبون في ذلك إلى حد الجزم أن الله الآب مات على الصليب وحمل خطية الإنسان. أجابهم ترتوليانوس: «إن هذا القول هو تجديف على الله. فلنتوقف عنه. ولنكتف بالقول إن المسيح ابن الله هو الذي مات. لقد مات، لأن هذا هو ما يقوله الكتاب المقدس ... وعليه، وبما أن للمسيح طبيعتين، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية، وبما أنه متفق عليه أن الله لا يموت، إذاً الطبيعة البشرية هي وحدها المائتة. فمن الواضح أنه حين قال الرسول، إن «المسيح مات» فهو يتحدث عن الجسد والإنسان وابن الإنسان، وليس عن الروح والكلمة وابن الله»[92].

للمسيح طبيعتان، أضاف ترتوليانوس، «متحدان في شخص واحد، يسوع، الذي هو الله والإنسان ... لقد ظل كل جوهر محتفظاً بخصائصه، بحيث تمم الروح في المسيح نشاطاته الخاصة – القوى والمعجزات والأمارات – بينما جسده اختبر ما يختص بالجسد – الجوع عندما التقى المسيح بإبليس، والعطش في مقابلته المرأة السامرية، والبكاء عند موت اليعازر، والاكتئاب حتى الموت، وأخيراً موت الجسد»[93]. لقد جرب المسيح بجسده وفكره، الإغراءات نفسها التي تصيبنا[94]، فلم يكن محصناً ضد الإغراءات، كما لم يكن متأكداً من النصر الفوري عليها. ولكنه كان يستمد القوة من الروح الإلهي الموجود فيه. فلم يستسلم قط. تألم ومات بجسده البشري كابن الإنسان، ومع ذلك فقد بقي روحه الإلهي حياً. ترك روحه الجسد في

92- Adversus Praxean 29
93- Adversus Praxean 27
94- (عبرانيين 4: 15)

لحظة الوفاة[95]. ولكنه عاد إليه مرة ثانية عند قيامته من الأموات.

وهنا نرى الفرق بين الابن والآب. الآب لا يتغير وليس له جسد مادي. فهو لا يموت ولا يقوم من الأموات. الابن هو الذي عانى وتألم ومات بالجسد، كما يحدث للإنسان فقط. لقد صرخ يسوع: «إلهي إلهي لماذا تركتني»[96]. قال ترتوليانوس: «لقد كانت هذه الصرخة صرخة الجسد والنفس؛ كانت صرخة الإنسان، لا صرخة الله. وهذا ما عناه الرسول بقوله إن الآب لم يشفق على ابنه[97]. وقبل هذا، صرح أشعياء النبي قائلاً: «والرب وضع عليه إثم جميعنا»[98]. كان الله الآب هو الذي بذل الله الابن من أجلنا. وكان الله الابن وحده من انبثق من الآب، وتجسد، وحمل أوزار الخطية. «الآب يختلف ويتميز عن (إنسانية) الابن، مع أنه لا يختلف عنه بألوهيته». وقد قدم ترتوليانوس الإيضاح هنا بالقول: «إذا كان هناك جدول مياه ملوث ... فهذا لا يؤثر في مصدره أو منبعه، مع أنه ليس هناك انفصال بين المصدر والجدول»[99]. لقد أميت الابن، ولكن ليس للآب جسد بشري، لذا لا يمكن أن يموت. وهنا يكمن الفرق بين أقانيم اللاهوت.

لقد كانت مثل هذه المناظرات اللاهوتية ضرورية لحفظ الإيمان ونقله إلى الأجيال الصاعدة من دون فساد أو خطأ. ولكن لا يفترض بالجميع أن يتبعوا مثل هذه التعقيدات من الإثباتات المنطقية والتفنيد. ولحسن الحظ نقول إن التعاليم الأساسية للمسيحية كانت واضحة وعملية بشكل ممتاز. وكان أبسط المؤمنين يتمكن من قبول كلمات يسوع بمعناها الظاهري – لإطاعتها والإيمان بها، حتى وإن لم يفهمها بالكامل. فالإنسان يستطيع أن يخدم المسيح من دون أن يقرأ حجج ترتوليانوس المعقدة، أو يفهمها تماماً.

منذ البدء راح المبشرون والوعاظ ينادون بالإنجيل في مناطق نائية لم تصلها بعد هذه الرسالة، وكانوا من ثم يعلمون المهتدين، كيفية الحياة

95- (متى 27: 50)
96- (متى 27: 46)
97- بالإشارة إلى (رومية 8: 23)
98- Adversus Praxean 30; بالإشارة إلى (أشعياء 35: 6)
99- Adversus Praxean 29

كمسيحيين. عرف معظم أولئك الرحالة رسالة المسيح بشكل جيد، وفسروها بوضوح ودقة، ولكن بعضهم، مثل أبلوس في أفسس، وغيره، كانوا هم أنفسهم في حاجة إلى تعلم طريق الرب بأكثر تدقيق[100]. لقد خلفوا وراءهم مجموعات صغيرة من المؤمنين هنا وهناك ليناضلوا بأنفسهم، من دون أن يكون لديهم ولو جزء يسير من أسفار الكتاب المقدس. أنتجت بعض تلك المجموعات الجديدة أفكاراً وتعاليم غير صحيحة تماماً؛ وبعضهم الآخر أظهروا على نحو واضح، أن تعليمهم يختلف عن التعليم الأصيل. والمشكلة التي جابهت قادة الكنائس الموجودة هناك، هي كيف يمكنهم أن يميزوا بين المجموعات التي يجوز اعتبارها ككنائس حقيقية للمسيح، والمجموعات الأخرى المرفوضة. فاقترح ترتوليانوس مقياسين يمكن الحكم من خلالهما. أولاً، يسأل في الكنيسة إن كانت قد تأسست على يدي واحد من الرسل الإثني عشر، أو أحد الخدام الموافق عليهم، والذين تم تعيينهم من أحد الرسل. ثانياً، هل الكنيسة تعلم المبادئ نفسها التي علمها المسيح ورسله؟ فإذا ما طابقت المجموعة هذين المقياسين يمكن اعتبارها رسولية، ويجري قبول أعضائها كإخوة في المسيح.

وبعد ذلك يضع ترتوليانوس المبدأ العظيم: اتحاد الكنائس الناتج من أصلها الواحد. فيعيدنا إلى التلاميذ الأحد عشر الذين اختارهم يسوع: «لقد شهدوا أولاً بالإيمان بيسوع المسيح في كل أنحاء اليهودية وأسسوا كنائس هناك، ومن ثم ذهبوا إلى العالم وهم ينادون الأمم بالعقيدة نفسها المختصة بالإيمان نفسه. وبالطريقة نفسها أسسوا كنائس في كل مدينة، ومنها اقتبست كنائس أخرى برعم الإيمان وبذور العقيدة ... ولاتزال تقتبسها في كل يوم ... وهكذا فالكنائس، مهما كثرت وعظمت، هي شبيهة بتلك الكنيسة القديمة الواحدة التي أسسها الرسل، والتي انبثقت منها ... فكل الكنائس واحدة، وهي تبرهن وحدتها بسلامها المشترك. وباللقب «إخوة»، وبرباط الضيافة المتبادلة»[101].

100- (أعمال 18: 24 - 26)
101- De Praesceiptione Haereticorum 20

تحدى ترتوليانوس كنائس جديدة، كانت قد عرضت مبادئ وتعاليم غريبة، لتثبت نسبها وأصالتها. فقال: «فليعرضوا أصول كنائسهم، وليكشفوا قوائم بأسماء نظارهم المتعاقبين بشكل متواصل منذ البداية، بحيث يستطيع أول نظارهم أن يؤكد أن أحد الرسل أو أحد تابعي هؤلاء الرسل هو سلف له في الخدمة، ومصدر لسلطته»[102].

إلا أن ترتوليانوس أصر كذلك على فحص التعليم في الكنائس الجديدة، ليرى ما إذا كان يتناسب مع تعليم الكنائس التي أسسها الرسل أنفسهم. «والآن يجب الموافقة على مادة الوعظ في هذه الكنائس، أي إعلان المسيح لها، على أن يتم ذلك في نظري في ضوء شهادة الكنائس الأولى التي أسسها الرسل إذ كرزوا لها شخصياً، وبواسطة رسائلهم فيما بعد ... نحن في شركة مع الكنائس الرسولية إذ لا اختلاف في العقيدة. وهذا ما يضمن أننا نعلم الحق»[103].

وقد زادت الحال تعقيداً بسبب وجود بعض المعلمين المبتدعين الذين قدموا مستندات تدعم نظرتهم الخاصة التي ادعوا أنها من مخطوطات الرسل. فرد ترتوليانوس على هذا بالقول: «حتى وإن استنبطت هذه البدع أنساباً كهذه، فلن يفيدهم ذلك في شيء، حيث عند مقارنة تعاليمهم مع تعاليم الرسل، تظهر باختلافها وبعدم تشابهها أنها لم تصدر لا عن الرسل، ولا عن أي شخص كان له علاقة برسول ... يجب أن تخضع لهذا الفحص جميع الكنائس اللاحقة التي تؤسس يومياً، ومع أنهم قد لا يستطيعون أن يذكروا رسولاً أو شخصاً له علاقة برسول، كمؤسس لهم، إلا أنهم يستطيعون، إن اتحدوا حول الإيمان الواحد، أن يحسبوا أيضاً رسوليين، وذلك بسبب التجانس في التعليم»[104].

وحين واجه ترتوليانوس التكاثر المستمر للكنائس الجديدة، شعر بأنه من المرغوب فيه عند كل كنيسة أن تسجل أصالتها ونسبها خطوة خطوة، حتى

102- De Praesceiptione Haereticorum 32

103- De Praesceiptione Haereticorum 32

104- De Praesceiptione Haereticorum 32

تعود بهذه الأصالة أو النسب إلى أحد الرسل. ولكن المحك الأهم للتعليم الصحيح كان بوضوح، إمكانية إثبات أن عقيدتها تتناسب مع عقيدة الرسل، كما هي مدونة في الكتاب المقدس، وكما كانت تعلم الكنائس القديمة. مع ذلك، لم يعش ترتوليانوس ليرى حشد القوى المتناحرة، للمعركة الكبيرة بين «العقيدة» و«النسب والأصالة» التي وقعت بعد قرن واحد من وفاته.

الفصل التاسع

معاناة الأبرياء

منــذ الأيام الأولى للمســيحية، عــرف اللاهوتيين الإنجيل وفســروه بكل تأثيــر، ودافعوا عنه بالمنطــق والذكاء. لكن، في واقع الحــال، كان لعمل هؤلاء الدارسين المشهورين مساهمة في انتشار المسيحية فعلياً، أقل على الأرجح من البرهــان المنظور لقوتها كما برز بين معتنقيها الأكثر تواضعاً. لقد ظهر الإيمان الجديد بأنه معقول ومقبول منطقياً. كما أنه لم يكن أقل فعالية في برهــان صدقه وصحته، وذلك من خلال قدرته على تغيير حياة الناس العاديين مــن كل فئات المجتمع ومرتباته. وقد ظهرت جــدارة هذا الإيمان في ما تحلى به المســيحيون الأولون من خلق مستقيم ومحبة رائعة في مجال تعاملهم مع جيرانهم. كما أن هذا الإيمان بان جذاباً في عطفهم على المحتقرين والضعفاء مــن الناس. أما قدرته، فقد برزت قبل كل شــيء فــي مواجهتهم الاضطهاد بثبــات لا يتزعــزع. وبالتأكيــد، كان أولئك المســيحيون على اتصــال بالكائن الإلهي ذي القوة والســلطان العظيمين. لقد دقر لهذا الإيمان الجديد بشــكل واضح أن يبطل تلك الفلسفات المعيبة، والديانات التي أثبتت أنها خيبة أمل محزنة للأجيال الماضية، لكي يحل محلها.

وعلى العكس ما يمكن أن نتصور، كان نمو الكنائس يزداد ســرعة على قدر ما يعنــف الاضطهاد ضدها. وقد اعتبرت الســلطات في شــمال إفريقيا أن المسيحية تشــكل تهديداً للاســتقرار وأنها تعمل في جميع أشكالها ضد القانون، وذلك على مدى الســنوات الثلاث مئــة الأول من وجودها. وكان أتباع المســيح، في الواقع، يعتبــرون من الخارجين على القانــون، وهم معرضون في أية لحظة للمطاردة، وذلك من حكام وولاة القناصل الرومان. كانت تمر ســنين طويلة لم يكن يحصل فيها أي شــيء يعكر نمو الكنيسة الهادئ. ثم فجأة، حــين تجمح نزوة إمبراطور أو حاكم مــا، كان يصيبهم اضطهاد عنيف. وكان كل مســيحي مؤمن يعلم، أنه عاجلاً أم آجلاً، قــد يأتي ذلك الوقت الذي فيه يشهد للمسيح وذلك على حساب حياته.

كانت كنائس شمال إفريقيا قد ألفت كتابات العهد الجديد وما دونه من

أعمال الشهادة، كاستشهاد استفانوس ويعقوب. كما وصلتهم فيما بعد أخبار عن الإمبراطور المجنون نيرون (Néron)، الذي حرضه غيظه المتوحش ضد المسيحيين في روما، وعن ادعائه الكاذب بأنهم أضرموا النار في روما ما أدى إلى هدم جزء كبير من المدينة. لقد علموا بموت البشيرين بطرس وبولس اللذين من المحتمل أنهما قتلا في هذا الوقت. وكانوا يسمعون بحوادث الاستشهاد التي كانت تحدث دورياً وبين الحين والآخر، في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الرومانية، كاستشهاد إغناطيوس (Ignace)، ناظر الكنيسة في أنطاكية، والذي سيقَ إلى روما و قُتل هناك سنة 110م. واستشهاد يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) في العام 165 للميلاد في روما أيضاً. ولكن لم يكن هناك شيء تجاوز أو حتى وصل إلى المشهد المأساوي لاستشهاد بوليكاربوس (Polycarpe) في أيامه الأخيرة، وهو ناظر كنيسة سِميرنا (تركيا). وهذه الحادثة الأليمة مذكورة في رسالة طويلة كتبها المؤمنون في تلك المدينة.

كان بوليكاربوس في أيام شبابه من تلاميذ الرسول يوحنا، وصديقاً لإغناطيوس. وعندما أصبح شيخاً مسناً كانت كنائس المنطقة تنشد في كثير من الأحيان استشاراته الحكيمة و المحبة. وغالباً ما كان يُدعى لحل الخلافات التي قد تنجم من جرّاء اختلاف وجهات النظر و الآراء. عاش شيخوخة سعيدة وحافلة بالإنجازات في وسط الجماعة المسيحية التي أحبّته وكرّمته.

اهتزت الكنيسة في سِميرنا بعنفٍ عندما ألقت السلطات الوثنية، وبشكلٍ مفاجئ، القبض على عددٍ من أعضائها. وجرى إعدامهم بسبب الإيمان. وقد اجتمع كل من اليهود و الوثنيين ليستمتعوا بالمشهد. وفي خضّم هذه العاصفة الهوجاء، راح بعض المتفرّجين يطالبون بقائد الكنيسة هاتفين: «فتّشوا عن بوليكاربوس.»

وهكذا تابع مؤمنو سِميرنا بكل أمانة، شرح ما حدث بعد ذلك، فكتبوا: «عندما سمع بوليكاربوس، الرائع للغاية، بهذا الأمر لأول مرة، لم يرتعب أو

يفزع، بل رغب في أن يبقى في المدينة إلاّ أنّ غالبية المؤمنين حاولوا بإلحاح أن يقنعوه بأن يترك المكان. فانسحب إلى مزرعة صغيرة لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي كان فيها. وكان يقضي وقته هناك مع نفرٍ من رفاقه، مشغولين ليل نهار بالصلاة لأجل الجميع و للكنائس في كل أنحاء العالم، كما كانت عادته دائماً.» وبعد بضعة أيام، انتقل إلى مزرعة أخرى قريبة، رافضاً بثبات الفرار من الجوار. كان يتوقع بالكلية أن تقبض عليه السلطات الرومانية في أية لحظة، وكان ينتظرهم بهدوءٍ تام.

وفي وقتٍ متأخر من إحدى الليالي المظلمة، وصل جنود إمبراطوريون إلى المزرعة. وكان بوليكاربوس يرتاح في الغرفة العلوية. وإذ سمع أصواتاً وصخباً في الطابق السفلي، قال باطمئنان: «لتكن إرادة الله.» ثم نهض و طلب أن يُحضر الطعام والشراب المنعش للجنود. وسألهم أن يمهلوه ساعةً واحدة فقط ليصلّي. فعندما رآه الجنود، تأثروا من شيخوخته وثباته، كما دهشوا من افتعال مثل هذه الجلبة والضجة بسبب هذا الرجل الطاعن في السن. «وقف وصلّى.» أردف الصحابة المسيحيون في سِميرنا قائلين: «كان ممتلئاً من نعمة الله تعالى، بحيث لم يكفّ عن الكلام خلال ساعتي الصلاة، بينما كان الذين حوله مشدوهين متعجبين. لقد أسف الرجال الجنود، على أنهم جاءوا يطلبون هذا الرجل الجليل والعجوز المهيب.» لقد صلّى للجميع، ولإخوته ولأخواته في المسيح، ولكل من خطر بباله من الصحاب والأصدقاء، ذاكراً إياهم بأسمائهم. ومن ثمّ أجلسوه على حمار، وساروا به يقصدون المحكمة في سِميرنا.

وعندما اقتربوا من المدينة، لاقاه رئيس الشرطة هيرودس و والده صدفةً في الطريق. فأخذا بوليكاربوس في عربتهما وحاولا ثنيه عن عناده ورفضه القول: «مولاي القيصر»، ورفضه إنقاذ حياته بتقديم القرابين و التقدمات للآلهة الوثنية. ومع ذلك، فقد أصرّ الشيخ الجليل على الرفض بأدبٍ جم. وأخيراً، حين يئسوا من ثباته، وقد نفد صبرهم، دفعوه بغضبٍ إلى خارج عربتهم، وقع بوليكاربوس بقوةٍ إلى الأرض فجرحت رجله. وقد استخفّ بجرحه، وبقي سائراً في الطريق مع حرسه، حتى وصلوا أخيراً إلى الملعب،

وهو الميدان الذي تجري فيه المباريات وتُعرض فيه المشاهد. ثم تابع كاتب الرسالة يقول: «الآن، وبينما كان يدخل المدرج، جاءه صوتٌ من السماء يقول له: «تقو يا بوليكاربوس، وكن رجلاً.» لم يرَ أحدٌ المتكلم، ولكنّ ذلك الصوت سمعه الإخوة المؤمنون الذين كانوا حاضرين هناك.» وعلا صوت المحتشدين حتى أصبح من الصعب سماع ماذا كان يجري. سأل القاضي بوليكاربوس أن يقسم بقوة قيصر الإلهية، وأن يلعن المسيح. فأجاب بوليكاربوس، وكان جوابه واحداً من كنوز التاريخ المسيحي: «لقد خدمت المسيح ستةً وثمانين سنة، ولم يخذلني المسيح أبداً. فكيف تريدني الآن أن أجدّف على اسم مليكي ومخلّصي؟»

أنذره القاضي ثانيةً، فازداد بوليكاربوس صلابةً وشدّة، وقال: «إن كنت تتوهم، أنني سأقسم بقدرة قيصر الإلهية كما تقول، متظاهراً أنك لا تعرف من أنا، فاسمع جيداً: أنا مسيحي. و إذا كنت مستعداً وراضياً على أن تتلقّن التعليم المسيحي، فامنحني يوماً واحداً وأصغِ إليّ.» حينئذٍ قال الوالي: «إذاً أقنع الناس الذين هنا.» فأجاب بوليكاربوس: «لقد حسبتك مستحقاً أن أتكلم معك، فإن عقائدنا تعلّمنا أن نخضع للسلاطين وللذين هم في منصب، لأنهم مقامون من الله. أمّا هؤلاء الرعاع، فلست أجدهم يستحقون أن أقدّم دفاعي أمامهم.» هنا، أنذره القاضي ثانيةً طالباً منه أن يقرّب التقدمات للوثن، مهدداً إياه بالوحوش الكاسرة في حال استمرّ رفضه. فقال بوليكاربوس: «أرسل في طلبها، إن الارتداد من الأحسن إلى الأسوأ هو أمر مرفوض عندنا، ولكنّ التغيير من الباطل إلى الحق هو العمل النبيل.» عند ذاك هدده القاضي بأن يضرم به النيران وهو حي. «أنت تهددني بنار تشتعل لفترة قصيرة،» أجاب بوليكاربوس، «ولكنك لا تعلم شيئاً عن النار الأبدية التي أُعدّت للأشرار. والآن لماذا تتوانى، جئ بما تشاء.»

عندها نطق القاضي بالحكم على بوليكاربوس، فأعلن المنادي الذي يذيع الأحكام من منتصف المدرج قائلاً ثلاث مرات: «لقد اعترف بوليكاربوس أنه مسيحي!» فجُهّز العمود الذي يُشدّ إليه المحكوم بالموت حرقاً، و كُدّست حوله كومة من الخشب. مشى بوليكاربوس بهدوء وتؤدة إلى المكان، و وقف قبالة

العمود. وبينما اقترب منفّذو الحكم ليسمّروه على العمود حتى لا يسقط، طلب بوليكاربوس ألاّ يكلّفوا أنفسهم كل هذه المشقة بالقول: «ذاك الذي يعطيني القوة لتحمّل اللهب، هو نفسه سيمكّنني من الوقوف بثبات.» لذا فقد رُبط بحبلٍ فقط، وإذ اندلعت النيران بقوةٍ حوله، سُمع صوته وهو يقدّم الشكر للّه الذي سمح له بأن يعاني الآلام، كما عانى مخلّصه، من أجل الحق، ورفع عينه إلى السماء قائلاً: «أيها الرب القادر على كل شيء، أشكرك لأنك اعتبرتني مستحقاً، في هذا اليوم، وفي هذه الساعة، أن أشارك مع الشهداء في القيامة للحياة الأبدية.» وبعد هذا رأوا اللهيب يعلو ويتصاعد حوله، من دون أن يظهر على بوليكاربوس أنه يتأذى. عندئذٍ غمد أحد العساكر سيفاً في جنبه. وللوقت، اندفع الدم يتدفق من جنبه وكأنه جدول من الجداول، سبّب في إطفاء النار. إلاّ أن الوالي كان قد قرر أنه لا يحق للمسيحيين أن يكون لهم الكلمة الفصل، ولا أن يتسلّموا جثة قائدهم الموقّر. لذلك، أمر بإضرام النار ثانيةً. وهكذا دخل بوليكاربوس إلى فرح سيده.[105]

لقد اتّحد كل من اليهود والوثنيين والجماهير والسلطات، بقلبٍ واحد وفكرٍ واحد، لإبادة الجماعة المسيحية. إلاّ أن مثل هذا العمل كان بعيداً كل البعد عن متناول أيديهم. «لم يعلم هؤلاء،» تقول الرسالة من سِميرنا، «أننا لا نستطيع أبداً أن نتخلّى عن المسيح، الذي تألّم لتأمين الخلاص لأولئك الذين ينالون الخلاص من العالم بأسره، وأننا لا نتمكن أبداً من عبادة أي شيء آخر.» وبموت بوليكاربوس في العام 156 بعد الميلاد، توقّف اضطهاد المسيحيين في سِميرنا. لقد فشلت هذه الأساليب القمعية تماماً في إرهاب الكنيسة أو ترعيبها. والآن جاء دور بلاد الغَال (Gaule) وشمال إفريقيا.

ظهرت أولى بوادر عملية اضطهاد المسيحيين في مناطق الشواطئ الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، في أثناء حكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس (Marc Aurele) وابنه كومودوس (Commode) في الفترة بين العامين 177 و192 ميلادية. وفي هذا الوقت أيضاً، وصلت الأخبار إلى كنائس

105- ورد النص المعاصر [Martyrium Polycarpi ANF Vol.I pp.37 ff]
للحصول على مقاطع من ترجمة أحدث راجع Bettenson DOTCC pp. 9-12

إفريقيا الشمالية عن الحوادث التي تقع في بلاد الغال (فرنسا). تلك الحوادث التي سلّطت الضوء على الشعور الذي كان سائداً في الإمبراطورية الوثنية في ذلك الوقت. ففي مدينة ليون (Lyon) وفيَان (Vienne) انتشرت شائعات تدّعي حصول أشياء بغيضة في الأوساط المسيحية: زنا المحارم، قتل وحتى أكل لحوم البشر. ونتيجةً لهذه الشائعات الكاذبة، أُبعد المسيحيون عن الأماكن العامة، والحمامات والأسواق، ومُنعوا من الظهور علناً. وفي العام 177 ميلادية، عُذّب عدد من الخدام والعبيد العاملين في بيوت المسيحيين، وذلك بأسلوبٍ بشع في محاولة من المعذِّبين لتثبيت هذه التهم الكاذبة. وهكذا تمكّنوا بحدّ السيف من انتزاع شهادات واعترافات رهيبة. من هؤلاء القوم الضعفاء والحائرين في ساحة المدينة. وقد أثار الرعاع من جراء ذلك مشاعر بعضهم بعضاً إلى درجة الجنون والهوس. كان المسيحيون يُجرّون إلى الساحات العامة، حيث كانت الحشود تزداد غضباً لدى سماعها التهم الملفّقة على المسيحيين. ولكن، بالرغم من شتى ضروب التعذيب الرهيبة، لم يجد الحكّام دعماً لاتهامهم المسيحيين بالخيانة العظمى ضد الإمبراطور.

أُجبرت إحدى الجواري المدعوة بيبلياس (Biblias)، على الإدلاء بتصاريح كاذبة ضد العائلة المسيحية التي كانت تعمل لديها، ثم سيقت الجارية ثانيةً لتدلي بتصريحات إضافية ضد هذه العائلة. ولكنها في هذه المرة وقفت ضد معذبيها وعارضتهم قائلةً إنها هي أيضاً مسيحية، وإن ما أدلت به في السابق ضد هذه العائلة كان ادّعاءً لا أساس له من الصحة، وقالت، إن هذه العائلة بريئة من أية جريمة. فماتت هذه الجارية شُجاعةً ثابتة الإيمان. كذلك، فإن أحد المعاونين في مدينة ليون، وكان يدعى سانكتوس (Sanctus)، ألقي القبض عليه، وصُبّ النحاس الساخن على جسده، لكنه لم يقل إلاّ عبارة واحدة ردّدها باستمرار، وهي: «أنا مسيحي.»

وفي مدينة مجاورة، رفض أحد الشباب الأغنياء، ويُدعى سيمفورينوس (Symphorinus) أن ينحني أمام صنم الإلهة سِبلي (Cybele)، فحُكم عليه بقطع رأسه. وكانت أمه، هي الأخرى، مسيحية، ولم تُظهر أية علامة من علامات الخوف أو الفزع. وعندما كان في طريقه إلى منصّة الإعدام،

صرخت إليه قائلةً: «اثبت يا بنيّ، ولا تخف من الموت الجسدي الذي سيؤدي بك بكل تأكيد إلى الحياة. انظر إلى الرب الذي مُلكه في السماء. إنّ حياتك الأرضية لا تؤخذ منك اليوم، وإنما يحوّلها الرب إلى الحياة الأبدية المباركة في السماء.»

توفّي عدد كبير من المؤمنين في سجون ليون خلال تلك الحقبة من الزمن، وذلك من دون إجراءات قضائية أو محاكمة. أمّا أولئك الذين سَلموا وعاشوا، فقد وضعوا تقريراً لما حصل فتحدّثوا بكلمات مؤثرة عن قائد مسنّ في الكنيسة. «والآن، جاء دور بوثينوس (Pothinus) المبارك الذي كان مؤتمناً على خدمة النظارة في ليون، وكان قد تجاوز التسعين من عمره، وبات ضعيف الجسم و واهناً جداً... لقد استُدعي إلى كرسي الحكم يحرسه قضاة المدينة وكل أسافل الناس الذين كانوا يصرخون ويصفرون مستهزئين بجلبة كبيرة. وإذ سأله الحاكم من هو إله المسيحيين؟ أجابه: «إذا كنتَ أهلاً وجديراً فأنت ستعرف بنفسك.» وعندها تمّ جرّه بلا شفقة، وبدأ المتجمهرون يركلونه ويلطمونه، وأمّا الذين كانوا بعيدين عنه، ولم يتمكنوا من أن تطاله أيديهم أو أقدامهم، فقد كانوا يقذفونه بما عندهم من حاجات أو أشياء، وكان يتنفس بصعوبة حين ألقي في السجن، ولم يمرّ يومين حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

لقد عُذّبت جارية أخرى تُدعى بلاندينا (Blandine)، خلال نهار كامل، وبوحشية رهيبة أذهلت الجنود: كيف يمكن لهذه الجارية أن تبقى حيّة بعد كل هذا التعذيب الوحشي المروّع؟! من ثم جرى ربطها إلى عمود، وعُرضت للوحوش الكاسرة، وكان يُؤتى بها يومياً لترى العذاب الذي يكابده أصدقاؤها. وكانت ترفع صوتها باستمرار مصلّية من أجلهم جميعاً. ثم رُبطت أخيراً بشبكة وألقيت أمام ثور هائج استمر ينطحها حتى استشهدت في المدرج، رافضةً أن تقول كلمةً ضد المسيحيين. لم يكن مسموحاً بأن تُدفن جثث الشهداء، وإنما كانت تُحرق حتى تصبح رماداً، وأخيراً تُلقى في نهر الرون (Rhone).

إنَّ ما لدينا من قصص مكتوبة عن هؤلاء الشهداء في ليون و في فِيان،

تكشف الستار عن الروح المسيحية الرائعة التي كان المسيحيون يتحلّون بها. فلم يُظهر هؤلاء أية علامة من علامات المرارة أو الحقد على أولئك الذين كانوا يضطهدونهم، ولا ضدّ أي من أولئك الذين ادّعوا عليهم زوراً وبهتاناً، بجرائم لم يرتكبوها. لقد كتبوا: «ليس هناك شيء يخيفنا حيث يكون حب الآب السماوي، ولا شيء يؤلم، ما دام المسيح يشرق علينا بمجده.» كذلك، لم يدينوا إخوتهم وأخواتهم الضعفاء الذين لم يستطيعوا تحمّل معاناتهم، بل استسلموا إلى رغبات معذبيهم. بل أظهروا لهم على نقيض ذلك حناناً رائعاً، مصحوباً باتضاع فريد من نوعه. وماذا بعد، فإن هذه الحوادث كلها تؤكّد لشعب بلاد الغال أن المسيحيين لم يكونوا مجرمين. فلم يثبت أنهم أذنبوا بأي من الأفعال الشائنة، ولم يتمكن أحد من إخافتهم بالشكل الذي يجعلهم يتنكرون لإيمانهم الذي يثقون بأنه حق.[106]

من ثم انتقل مركز الأحداث عبر البحار، قاصداً الولاية الرومانية في إفريقيا البروقنصلية. حدث ذلك في وقت دُعي فيه مسيحيّو مدينة سكيليوم (Scillium) ليعطوا حساباً عن أنفسهم. ولقد كان هناك سبعة رجال وخمس نساء، تشهد أسماؤهم أنهم من خلفية أمازيغية وفينيقية، ومن خلفية بونية. يبرز أحدهم، ويدعى سبيراتوس (Speratus) في الوثيقة المكتوبة. ولا نعلم بالتأكيد إن كان هو السبب الذي من طريقه جاء الآخرون إلى الإيمان أم لا. إلا أنه يتبيّن بوضوح أنه كان قائد هذه المجموعة الصغيرة الشجاعة. كان في حوزتهم رسائل الرسول بولس. ويظهر جلياً أنهم قرأوها وقرأوا نصوصاً أخرى من الكتاب المقدس بشغف وحرص بالغين. وقد ألقي القبض عليهم في العام 180 ميلادية في مدينتهم (بالقرب من سبيطلة في تونس)، وسيقوا للاستجواب أمام حكام قرطاجة.

106- NAPNF Series 2 Vol. I (Eusebius Eccles. Historia V: chap. 1)
Bettenson DOTCC pp. 12 -13
Schaff HOTCC Vol. II. pp. 55 -56
أظهر مسيحيو ليون وفيان تعاطفاً واضحاً مع المونتانيين. لقد حثّوا كنائس فريجية وروما على عدم إطفاء الروح القدس باتخاذهم إجراء قاس ضدّ المونتانيين الذين كانوا حاضرين في كنائس الشرق.

تبدأ تفاصيل هذه الدراما الحيّة بوجود جمهور السكيليوميين الإثنا عشر القائمين من قبل في قاعة المحكمة، وبحضور الوالي ساتُرنينوس (Saturninus). ثم يبدأ الاستجواب الذي سُجّل بتفاصيل صحيحة كاملة. كان الوالي إنساناً لطيفاً وعازماً على أن يقوم بواجبه بالرغم من الاشمئزاز الذي يشعر به من جراء هذه الوظيفة الكريهة كمستنطق. ثم راح يدير محضر الجلسة بتحفظ متّزن، وهو رابط الجأش هادئ. ومن كلماته الأولى أظهر استعداده لأن يكون متساهلاً وليّناً باسم الإمبراطور، إذا ما أظهر المسيحيون عقلانية واعتدالاً. ومن جهته، أكّد سبيراتوس براءتهم من أية جريمة. عندئذٍ حاول الوالي أن يعيده إلى موضوع الإخلاص والولاء للإمبراطور، فأجاب سبيراتوس: «لم نقم بأي عمل شرير، ولا اشتركنا في أي عمل سيّء. لكن، عندما عوملنا بقسوة قدّمنا تشكراتنا، وذلك لأننا نحترم الإمبراطور الذي نحن له ونجلّه.» فحاول الوالي سبيلاً آخر، وقال: «نحن أيضاً متدينون، وإن ديننا مستقيم، ونحن نأخذ أقسامنا من القدرة الإلهية لسيّدنا الإمبراطور، ونصلّي من أجل سلامته. وعليكم أن تفعلوا الشيء عينه.» تمسّك سبيراتوس بكلمة نطق بها الموظف الرسمي، وهكذا خاطبه بالقول: «إذا ما أصغيت إليّ بصبر، فإنني سأشرح لك أسرار الاستقامة الحقّة.» عند ذاك انتصب الوالي من مقعده وقال: «إن كل ما تريده هو مهاجمة ديننا، وأنا لن أصغي إليك. كل ما أريده منك هو أن تقسم بالقوة الإلهية لربنا الإمبراطور.» أجاب سبيراتوس: «أنا لا أمجّد إمبراطورية هذا العالم، ولكن عوضاً عن ذلك فأنا أخدم الإله الذي لم يره أحد، ولا يمكن أن يراه بالعين المجرّدة. أنا لم أرتكب أية سرقة، وإذا ما اشتريت أيّ شيء، فإنني أدفع ما عليّ من ضريبة، لأنني أمجّد ربّي ملك الملوك وإمبراطور كل الأمم.»

عاد الوالي إلى هدوئه من جديد، واستدار بوجهه عن هذا الإنسان العنيد المستعصي إلى أصدقائه، وحاول الدخول بينهم وبين قائدهم آملاً أن يكون انقيادهم بالأمر الأسهل. فاستحثهم قائلاً: «اتركوا هذا الإيمان، ولا تشوشّوا أنفسكم بهذه الحماقات.» إلاّ أنه وجد الآخرين مملوئين عزماً وإصراراً كسيّدهم. وأخيراً، اضطرّ أن ينطق بالحكم القانوني، ولكنه منحهم فرصة،

بإيقاف التنفيذ لمدة ثلاثين يوماً عساهم يرغبون في إعادة النظر. رفضوا قبول التأجيل، مؤكّدين أنهم عازمون على أن يبقوا مسيحيين: «نحن لا نخاف أحداً.» قال كتّينوس (Cittinus) «ما دام ربنا وإلهنا موجوداً في السماء.» وأضافت دوناتا (Donata): «نحن نجلّ قيصر كقيصر، ولكننا نخاف الله وحده.» وقالت فستيا (Vestia): «أنا مسيحية.» فأضافت سيكوندا (Secunda): «وأنا كذلك، وهذا ما أريد أن أكونه دائماً.»

لم يُقل الشيء الكثير في ما بعد، وهكذا حُكم عليهم بالموت. وفي المستندات الحكومية الرسمية، تمّ شرح الجريمة التي اتّهموا بها، من دون إدانتهم إدانة متوحشة عنيفة. وقد سُجّلت وقائع الحكم بهدوء وعلى الشكل التالي: «لقد اعترف كل من سبيراتوس ونارتزالوس (Nartzalus) وكتينوس ودوناتا وفستيا وسيكوندا والآخرين بأنهم يعيشون بموجب الممارسة المسيحية. وقد مُنحوا فرصة ليعودوا إلى الديانة الرومانية، ولكنهم رفضوا هذه الفرصة بعناد. لقد حكمنا عليهم بالإعدام بحد السيف.» فعلّق سبيراتوس بالقول: «نشكر الله.» وأجاب نارتزالوس: «في هذا اليوم نكون شهداء في الجنة. الشكر لله.» عندها أعلن المنادي الحكم. فهتف المتهمون جميعاً: «المجد لله.» وهذا كل ما كان في الأمر. ووصلت القصة إلى نهايتها بهذا البيان البسيط: «وبهذا تُوّج الجميع بتاج الشهادة، وهم الآن يملكون مع الآب والابن والروح القدس من الآن إلى أبد الآبدين آمين.»[107]

اتّسمت هذه الرواية في كل سياقها، ببساطتها الصارخة، وبدقة التفاصيل التي قدّمت وصفاً حنوناً رقيقاً. لقد قال كل من المشاركين ما كان عليه أن يقول، والقصة تأخذ مساراً حتمياً، والنهاية لا مفرّ منها. ولدى ملاحظتنا لأشخاص هذه الدراما، يمكننا أن نرى بعض القوى التحتية في العمل: نزاع لا يقبل بأي حلّ أو تسوية بين نظرتين متعارضتين إلى العالم، عدم تفاهم أساسي بين مجموعتين من أصحاب الضمير المخلصين والنزهاء الذين بحكم الواجب أو الضمير، وجدوا أنفسهم يقفون أحدهما ضدّ الآخر. فقد وجد كل من خدّام المسيح وخدّام الإمبراطور أنفسهم في حالة خلاف.

107- Monceaux Tome I pp. 61 ـ 70.

ومع ذلك لم يشعر أحدهم بأي شعور عدائي تجاه الآخر.

لقد أقيم مبنى كنيسة في ما بعد، في موقع مدافن الشهداء، ومن الممكن أن تكون بقاياه هي التي وُجدت في غرب قرطاجة قرب القرية الصغيرة دوار الشط. ومعروف أن كثيرين غيرهم قد استشهدوا، خلال هذه المدة عينها، في بقاع أخرى من إفريقيا الشمالية.

بعد ثلاثين سنة أطلّ الاضطهاد برأسه البشع من جديد. وفي هذه المرة كان بإلهام إنسان أمازيغي صرف. إنه الإمبراطور سِبتيميوس سِفيروس وهو الإفريقي الوحيد الذي لبس اللباس الأرجواني الإمبراطوري. كان سفيروس مواطناً من مدينة لبتيس ماغنا (Leptis magna)، وهي بالقرب مما ندعوه الآن طرابلس الغرب. وقد حكم هذا الرجل الغريب روما لثماني عشرة سنة، من العام 193 ميلادية وحتى وفاته سنة 211 ميلادية، بعيداً عن بلده في مدينة يورك (York) الانكليزية. ويصفه الكتّاب الرومانيون «بالبربر» الذي تعلّم اللاتينية جيداً، ولكنه لم يفقد قط لهجته الإفريقية. وفي سنوات حكم سفيروس الأولى، كان يعطف على المسيحيين ويرفق بهم، لأنه كان يعتقد أن شفاءه من مرض خطر، كان بسبب مسحة من الزيت والصلوات التي قدمها له عبد مسيحي اسمه بروكولوس (Proculus). وقد سلّم تعليم أولاده وتثقيفهم إلى مربّية مسيحية، ومعلّم مسيحي أيضاً. على أي حال، تزوج سفيروس من ابنة كاهن إله الشمس، الذي كان يعبد في مدينة إميسا (Emese) في سوريا. وقد مزج بين العبادتين، العبادة المسيحية وطقوس الديانات الأخرى السرية. لم يكتفِ هو وزوجته، أن يكونا حاكمين مطلقين لإمبراطورية واسعة الأرجاء، بل اختارا أن يقدّما نفسيهما كجوبتير (Jupiter)، كبير الآلهة على كل الأرض، وكجونو (Junon)، ملكته. فبعد أن تخلّص من منافسيه على السلطة، جلس سفيروس على العرش الإمبراطوري وحكم كل العالم المعروف آنذاك. ثم انكبّ بصرامة ومن دون رحمة على إطفاء كل شرارة من شرارات الحرية التي كانت لا تزال موجودة في أراضي سلطانه. إن تأليهه لنفسه، وسلطانه المطلق، جعلاه يركب متن الغرور، فبدأ يطلب من الناس خضوعاً مطلقاً لنزواته المفرطة التي لا تطاق،

وقـد تملّكه شـكٌّ عارم في أن المسـيحيين لا يمكن الركـون إليهم في تحقيق أوامره.

وقـد غضب سـفيروس، بصـورة خاصة، بسـبب حادث وقع في الشـرق، ولكن أخباره انتشـرت في كل أنحاء العالـم، وترك أثراً عميقاً في كل مكان. فبمناسـبة رفع لقب ولديه الاثنين كاركلاّ (Caracalla) وغيتا (Geta) إلى اللقبين الإمبراطوريين أوغسـطس وقيصر، وزّع سفيروس عطايا سخية على جنود جيشـه الذين قدموا لتسلمها لابسـين أكاليل من الغار. ولكنّ واحداً من هـؤلاء الجنود بدا مختلفاً عن رفاقه، إذ كان رأسـه عارياً وإكليله في يده. وعندما سُئل عن السبب أجاب قائلاً: «أنا مسيحي.»[108]

اعتُبـرت مثل هـذه الوقاحـة تحدّياً صاعقـاً لكبرياء سـفيروس. فأصدر مرسـوماً في العام 202 يمنع فيه الناس من اعتناق أي من الديانتين اليهودية والمسيحية، وذلك تحت طائلة الموت. وقد جاوز الرسميون تعليمات الإمبراطور هذه، سـاعين، كما يفعل أمثالهم، لإعطاء رؤسـائهم انطباعـاً يبيّن مقدار كفاءتهم. فبدأوا باقتلاع هذا الدين الجديد من الجذور. وكانت بربيتوا وزملاؤها فـي قرطاجـة من بين الذين عانوا. كما كان هناك آخـرون كثيرون غيرهم في شمال إفريقيا.

ظهرت ضراوة هذا المرسوم على أشدّها بعيداً بمحاذاة الشاطئ المتوسطي لمدينة الإسكندرية، حيث جُرّد ليونيدس (Leonides)، والد العالم اللاهوتي المعروف أوريجانوس، من جميع ممتلكاته ومقتنياته، وسيق للموت مع أعضاء آخرين من الكنيسـة هناك. كان ليونيدس قد نشّـأ أولاده السـبعة، والذين كان أوريجانـوس أكبرهم سـناً، بكثير مـن الاهتمام العميـق بهم والصلاة كما علّمهم التمييز بين الصالح والطالح، حتى يتمسـكّوا بالأول ويتجنّبوا الثاني. وكان قد علّمهم أن يستظهروا جزءاً يسيراً من الكتاب المقدس يومياً. وعندمـا سـمع أوريجانوس أنّ أباه اعتُقـل، قرر، وكان حينئـذٍ يبلغ من العمر السابعة عشر، أن يذهب إلى المدرج، وإلى الموت مع والده إذا اقتضت الضرورة. ولكـنّ أمه، وقد آلمها جداً أن تفقـد كلاً من زوجها وابنها في يوم واحد، خبأت

108- Lloyd p. 38, Tertullien De Corona Militis 1

ثياب أوريجانوس، الأمر الذي ألزمه البقاء معها في البيت. وكل ما اسـتطاع أوريجانـوس أن يفعل إذ ذاك، هو الكتابة لأبيه في السـجن متوسّـلاً إليه ألا يخاف على أرملته وأيتامه، وليثق بأنّ الله قادر على أن يعيلهم ويرعاهم.

وعندمـا مـات ليونيدس، تُركت العائلـة بحالة فقر مدقـع، ومع هذا لم يخـبُ إيمان أوريجانـوس. فقد أخذته إلى بيتها أرملة مسـيحية طيّبة، تملك مالاً وأرزاقاً خاصة. وكان حبه لكلمة الله شـديداً، وحماسته على طريق الله قوية، بحيث أنّه عُيّن معلّماً وعميداً لكلية يحضرها الشـباب المسيحي في الإسـكندرية ولمّا يتجاوز عمره الثامنة عشر بعد. وقد عمل بإخلاص كرئيس لهذه المدرسـة لمدّة تقرب من الثلاثين عاماً. وكانت محاضراته شـعبية، كما كان يتمتع بموهبة خاصة لرفع حماسـة تلاميذه. ولـم يكن أوريجانوس، بأي حال من الأحوال شـخصاً نظرياً جامداً، فهو كان يسعى لإطاعة كلمة الله، والسـير بهدايتها يوماً فيوماً. وفي قراءته للعهـد الجديد، تأثّر بصورة خاصة بكلمات المسيح القائلة: «مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا.»[109] فشعر بأنه إنْ أراد أن يطيـع هذه الكلمات، يتوجب عليه ألاّ يتقاضى أجوراً عن تعليمه للمبادئ المسيحية. وفي سبيل تأمين معيشـته، باع كمية من رقوقه المنقولة بخط يده. لكنّه عيّن لنفسـه حصة صغيـرة يومية من محصول هذا البيع، والتي كانت بالجهد تسدّ احتياجاته لأجَل قصير. بالرغم من أن طعامه كان بسيطاً جداً، وكان لا يمتلك إلا معطفاً واحداً. فكان يعاني قسـوة الشـتاء وزمهريره، وينام على الأرض المجردة. وقد فعل ذلك لا لشـيء، إلاّ ليتشبّه بسيده المسيح الذي قال عن نفسه أنْ ليس له أين يسند رأسه.[110]

بعـد ذلك بوقت قصير، ألقـي القبض على عدد من تلاميـذ أوريجانوس، وأُعدموا بسـبب إيمانهم. وكان أوريجانوس حاضراً معهم خلال المحاكمة، وقد عامله الجماهير الإسـكندرانيون المضطربون بقسوة وخشـونة، إلا أنّ حياته لم تتعرض لسـوء في تلك المناسـبة. وبمرور السـنين أصبح معلماً مشهوراً فـي كنائس الإسـكندرية، وبعدها فـي كنائس قيصرية في فلسـطين. وقد

109- (متى 10: 8)
110- (لوقا 9: 58)

ســافر مراراً بعد ذلك في رحلات لخدمة المســيح. كما كتب عدداً من الكتب اللاهوتية، وقاد عدداً من اليهود والوثنيين إلى الإيمان المسيحي. ومع ذلك، فقد اعتُبرت بعض أفكاره الفلســفية وتفاســيره الرمزية للكتــاب المقدس، مثاراً للجدل إلى يومنا هذا.

لم ينسَ أوريجانوس قط تعليم الكتاب المقدس والمثل الصالح الذي أخذه عــن والده. لقد بقي ليونيدس غير معروف تقريباً، ولكن تأثيره أعطى الخلاص للكثيرين من خلال عمل ابنه الذي اقتفى آثار أبيه. الأول دُعي للموت من أجل المسيح، والآخر دُعي ليحيا له.[111]

اســتمر الاضطهاد فــي أجزاء عديدة مــن الإمبراطوريــة الرومانية، وكان قاســياً جــداً لدرجة اعتقــد معها الكثيرون أن ســفيروس هــو المقصود في الكتــاب المقدس بـ«ضد المســيح» العظيم الذي ســيقوم محــاولاً أن يبيد كنيسة المسيح قبل رجوع المسيح ونهاية العالم.[112] ويبدو أن سفيروس قد ظنّ أنه بمرســومه الظالم ذاك، قد نجح في تحطيم معنويات المســيحيين، وأن يدمّر كنيسة المسيح تماماً. وقد تمّ تجاهل المسيحيين بشكل كبير خلال بقية حكم سفيروس، وحتى خلال أيام خلفائه التاليين.

ثم عرفت الكنائس الســلام والحرية مــن النزاعات، لما يقارب النصف قرن. وهكذا ازدهــرت بهدوء. ولكنْ، هنا، كان يكمن الخطر المُهلك. فقد بدأ العديد من المسيحيين بالتراخي والاشتراك أكثر فأكثر وبمزيد من التساهل في ملذات حياة المدينة وفي تســلياتها الموهنة. وشــيئاً فشيئاً بدأ المسيحيون يفقدون ضبط النفس، وخسروا ذلك الشعور بكونهم شعباً خاصاً. كما ذهب عنهم ذلك الثبات، والإيمان السماوي الراسخ الذي قوّاهم ودعمهم خلال تلك الأزمة الرهيبة التي عاشوا خلالها بنجاح منقطع النظير لخمسين عاماً خلت.

ومــع مــرور القــرن الثالث، بدأ المســيحيون ينشــدون صداقــة جيرانهم

111- للإطلاع على حياة أوريجانوس وعمله راجع:
Schaff HOTCC Vol. pp. 785 ـ796
Foakes- Jackson pp. 273 ـ277

112- 2 (تسالونيكي 2: 3و4). (يوحنا 2: 18). (رؤيا 13: 5-8)

الوثنيين ورضاهم، وتركوا أنفســهم، وللأســف، غير مستعدين للصمود في وجه الضغوطات الكبرى التي كانت بانتظارهم.

الفصل العاشر

المدن الحارقة

فــي العام 249م بدأت غيوم العاصفة تتجمّع من جديد. فقد ضاق صدر الإمبراطــور الجديد دكيوس (Decius) وازداد قلقه باطّراد، بســبب تفسّــخ الإمبراطوريــة الرومانية، فضلاً عن تخلّفها العســكري. وقــد عزا الإمبراطور ضعف الإمبراطورية و وهنها إلى اســتياء الآلهة. كان يأمل إعادة الازدهار إلى الأراضي الخاضعة لســلطانه وسيطرته عندما أصدر مرسوماً دعا فيه جميع المواطنــين، رجالاً ونســاءً، إلى تقريب الذبائح للآلهة بشــكل علني، وتســلّم شهادة من المسؤولين المحليين تثبت أنهم فعلوا ذلك.

وعلى هذا الأســاس أُخرج المســيحيون من بيوتهم، ودُفعوا بخشونة إلى الســاحات العامــة، وأُمــروا بتقريب الذبائــح. فبعضهم، ممّــن رُوِّع بالتهديد، أذعــن لأوامــر الإمبراطور، ولاســيّما أولئــك الذين كان ولاؤهم المســيحي قد ضعف خلال أيام الســلام السابقة المضعفة. فأسرعوا إلى المعابد استجابةً للأمــر الإمبراطوري، بينما قام آخرون، من طريق التآمر مع المســؤولين، بشــراء شــهادات مــن دون أن يكونوا قد قامــوا فعلاً بتقديم القرابــين المطلوبة. إلاّ أن عــدداً كبيراً منهم رفضوا الإذعان لمثل هذا المرســوم فهلك الكثيرون منهم. وكان أوريجانوس من بين الذين ثبتوا، فسُــجن وعُذِّب في مدينة صور، وهكذا استُشــهد متأثّــراً بجراحه من جــراء التعذيب الوحشــي. وكان عمره يناهز الســبعين. ولكن يلاحظ أن المســيحيين لم يعودوا يُتّهمون بعد بالقتل وزنى المحارم والفساد، ذلك لأنّ نقاوتهم و أخلاقياتهم الشريفة، كانت معروفة لدى الجميع. منذ ذلك التاريخ، أصبح جليّاً أن الســبب وراء معاداتهم هو رفضهم للإذعــان لمتطلبات العبادة الوثنية، لا التهم بارتكاب أعمال الســوء الموجهة ضدهم.

كتــب كبريانــوس (Cyprien)، ناظــر كنيســة قرطاجة، مطــوّلاً عن الاضطهــاد الــذي تحمّلــه المســيحيون، وكان الكثيــرون بينهم ممــن عرفهم شــخصياً. وقد سُــجن عدد منهم فــي قرطاجة نفســها، بينهم النســاء والأطفــال، ومات بعضهم من جــرّاء التعذيب. وحــدث أن كان أحد هؤلاء في

روما. ويدعى كلرينوس (Celerinus) حين صدر مرسوم ديسيوس. وقد تحمّل كلرينوس الأذى والتعذيب هناك، من دون أن يتراجع. وأخيراً، استُدعي للمثول أمام الإمبراطور نفسه، حيث اعترف بإيمانه المسيحي بكل ثبات. وقد كتب عنه كبريانوس قائلاً: «لقد كان أول هؤلاء الذين واجهوا المعركة في أيامنا... لقد مشى في مقدمة الصف ليواجه الحاكم نفسه، ذلك الحاكم الذي اختلق النزاع.» احتُجز كلرينوس تسعة عشر يوماً في زنزانة السجن مثقلاً بالسلاسل الحديدية. وقد كتب كبريانوس قائلاً: «كان جسمه مصفّداً مغلولاً، أمّا روحه فكانت متحررة من الأغلال. لقد ذبل جسده من جرّاء افتقاره الطويل إلى الطعام والماء، ولكن نفسه عاشت بالإيمان وباستقامته. والله كان يغذّيه بالطعام الروحي. ففي مواجهة البلوى، كان كلرينوس أقوى منها، وفي سجنه، كان أنبل من سجّانيه، وفي تمدده على الأرض، كان مارداً يصارع معذبيه الواقفين فوقه، وفي الأصفاد، كان أقوى من أولئك الذين قيّدوه، وفي محاكمته، كانت له وقفة أشرف من تلك التي لقضاته، وعلى الرغم من أن قدميه كانتا مقيّدتين، فقد استطاع أن يسحق رأس الأفعى.»

لقد نجا كلرينوس من محنته، وعاد إلى إفريقيا الشمالية، حيث استمر يخدم كقارئ (إذ كان يتلو آيات الكتاب المقدس في الاجتماعات) في كنيسة قرطاجة. هذا، وأن نُدباته وآثار جراحه الكثيرة كانت موضوع إعجاب المؤمنين هناك، إذ أدهشهم أن يصمد إنسان من أجل الإيمان، إزاء تعذيب وحشي بهذا المقدار، غير خاضع أو مستسلم، لا للموت ولا للأكاذيب. وأشار كبريانوس إلى أنه «إذا ما رفض شخص ما أن يؤمن بما يسمع كما رفض توما (أن يؤمن بما سمع عن المسيح)، فعندئذٍ لابدّ من أن يصدّق شهادة ما يراه بأم عينيه، إذ يرى البرهان الحي على صحة ما نقول.»[113]

شاب آخر يُدعى أوريليوس (Aurelius)، واجه المحاكمة ذاتها في قرطاجة، وقد جيء به أمام قضاة المدينة للمرة الأولى، حيث عومل بخشونة، وقد صدر الحكم بإبعاده عن المقاطعة. ولم تمضِ إلاّ فترة وجيزة، حتى جيء بهذا الشاب مرة ثانية ليمثل أمام الوالي، وقد عومل ثانيةً معاملة أكثر

113- Cyprien Epitre 33 , Monceaux Tome II p. 137

وحشية وعنفاً وقسوةً. وكتب عنه كبريانوس قائلاً: «إنّ هذا الشاب ناضل في معركتين، واعترف بالمسيح مرتين، وفي المرتين خرج بمجد الاعتراف المنتصر: بعد انتصاره الأول نُفي إلى خارج البلاد. ثم دخل المعركة مجدّداً، لكي يواجه نزاعاً أعنف هذه المرة، وهكذا انتصر من جديد. لقد خرج من معركة الشهيد منتصراً. ففي كل مرة يحاول عدو الله تحريض عبيده على فعل الشر، إن جندي الله الذي هو أبداً مستعد وأبداً شجاع، يصمد في وجهه. وهكذا يحرز الانتصار. لم يكتفِ هذا الشاب المسيحي بأن يناضل مرة واحدة في حضور بعض الناس حينما حُكم عليه بالنفي. لقد استحق أن يقاتل في الساحة العامة، حيث رأى الجميع شجاعته وإقدامه. فبعد القضاة، كان عليه أن يقهر الوالي، وبعد النفي، كان يحتاج أن ينتصر على التعذيب والتنكيل.» وقد نجا أوريليوس بنفسه، كما نجا سلفه كلرينوس، وأصبح هو الآخر قارئاً في كنيسة قرطاجة.[114]

وفي الوقت نفسه تقريباً، أصبح اسم نوميديكوس (Numidicus) مشهوراً في الأوساط المسيحية، كمن رأى أمتعة وقد حرقت، ولكنه نجا «كما بنار»[115] كان نوميديكوس عضواً محبوباً جداً في كنيسة قرطاجة. وكان مصدراً عظيماً لتقوية زملائه هناك وذلك بفضل قدوته أمامهم وتشجيعه لهم. في تلك الأيام، سخط رعاع قرطاجة على المسيحيين متّهمينهم بجلب سوء الحظ. لذا، كانوا يقذفونهم بالحجارة، أو يحرقون كل من يقع في أيديهم. كان نوميديكوس وزوجته من بين أولئك الذين وقعوا في أيدي الحشود الهائجة، فأخذوهما بعيداً. رأى نوميديكوس بأم العين زوجته المسكينة وهي تحترق بجانبه بلهب النيران المستعرة. أمّا هو فكان مثخناً بالجراح والحروق البالغة، فظنوه ميتاً وبالتالي تركوه. إلاّ أن ابنته التي حضرت إلى المكان تفتش عن جثة أبيها بين الأنقاض المحترقة، وجدته، وهو لا يزال حياً، فتمكّنت من إعادة العافية إليه. وبعد شفائه التام، عاد إلى الكنيسة في قرطاجة، حيث أصبح مساعداً مسؤولاً في إدارة كنيسة قرطاجة.[116]

114- Cyprien Epitre 32 , Monceaux Tome II p. 137
115- (كورنثوس 3: 15)
116- Cyprien Epitre 34 , Monceaux Tome II p. 138

لقد نجا كل من كلرينوس و أوريليوس و نوميديكوس من الاضطهاد الذي مارسه ضدهم ديسيوس. ولكن كثيرين خرّوا صرعى. لقد تسلّم كلرينوس كتاباً من أحد أصدقائه المدعو لوكيانوس (Lucianus)، مرسلاً له أخبار زملائه في الأسر والمعاناة. علم من الرسالة، أن اثني عشر من المؤمنين في السجون، قد لقوا حتفهم بسبب الجوع والعطش، وأن اثنين آخرين ماتا في قرطاجة بسبب التنكيل، وهما بولس (Paulus) ومابالیكوس (Map-palicus)، وقد أضيف اسماهما بكل حرص إلى هذه اللائحة المتنامية من الشهداء.[117]

وفي ذلك الوقت، جُرّد العديد من المسيحيين الأكثر قوة من أملاكهم، وأُبعدوا من الأصقاع الرومانية. لقد وجدوا سبيلهم إلى القرى الداخلية، بعيداً عن المدينة، وعن متناول أيدي الرسميين الإمبراطوريين. فأسسوا هناك جذوراً، وبدأوا حياة جديدة. قد يتحسّرون على رفاهية الحضارة، ويشعرون بافتقارهم إلى المداخيل المعيشية الثابتة. ولكن، لابدّ من أنهم فرحوا كثيراً بحرّية العبادة بالشكل الذي يريدون. وواضح، فوق ذلك، أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بإيمانهم لأنفسهم، إذ سرعان ما سمع الأمازيغيون في المناطق الداخلية بالرواية التي سردها لهم أولئك اللاجئون، ما حدث لهم بالتفصيل، ولماذا أُجبروا على ترك ديارهم وأملاكهم ومقتنياتهم، والحافز الذي رسّخ فيهم مثل هذا الإيمان والفرح، الإيمان الذي كانوا على استعداد دائم ليبذلوا في سبيله كل شيء.[118]

كان الإمبراطور ديسيوس، بغير قصد منه، سبباً لكثير من الناس، ليستمعوا إلى بشارة الإنجيل للمرة الأولى، ولاسيّما في المقاطعات النائية جداً عن المدن الساحلية. لكن ديسيوس نفسه لم يعرف هذا قط. وبخذلان آلهته له، قُتل ديسيوس في معركة خاضها ضد القوطيين في العام 251 ميلادية ولم يدم حكمه أكثر من ثلاث سنوات. بعد موته، تنفّست الكنائس المسيحية الصُعداء، وبجردةٍ لحساباتها، وجدت نفسها تخرج من وطيس

117- Cyprien Epitre 8

118- (فيلبي 3: 8)

المعركة قوية وأكثر صلابة بفعل نيران المعاناة. لقد وجدت نفسها حرّة مرة جديدة من التأثيرات المضعفة لأولئك المسيحيين الاسميين الذين كانوا يعيشون في وسطها. كما ابتهجت بأبطالها الجدد، وبثباتهم الجيد. أمّا الناجون، فقد ازدادوا جميعهم عزماً على إتبّاع المسيح في السراء والضراء، في الضيق والفرج، في الموت أو الحياة، وهم مصممون أن يبقوا مخلصين له، مهما حدث.

* * * * * * * * * * * * * * *

ولكن، لماذا ثار المجتمع الوثني ضد المسيحيين بهذا الشكل؟ وأيّ أذى لحق بمواطني قرطاجة وروما على أيدي هذا الشعب المسالم؟ وكيف أساءوا إليهم؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال، يكفي أن نواجه حقيقة أن المسيحيين يختلفون عن غيرهم، فهم لم يتصرفوا كأناس اعتياديين، وهكذا كان الغموض يلفّهم في نظر بقية الناس. ولأنّ تصرفاتهم لم تكن عادية، لذا لم يكن سهلاً التنبؤ عنها، وعليه، فهم يدعون إلى الريبة والشك، سواء بالنسبة إلى الحكام والمسؤولين، أم إلى جيرانهم من المواطنين.

منذ الأيام الأولى للمسيحية، راح الناس يتناقلون شائعات غامضة عن المسيحيين: تُرى، ماذا يهيئ المسيحيون في اجتماعاتهم السرية؟ لمَ لا يسمحون، إلاّ لأولئك العارفين أسرارهم، بحضور وجبات طعامهم الخاصة؟ ولأنّ اجتماعات المسيحيين كانت تُعقد خلف الأبواب المغلقة، ولا يُسمح بالدخول إلاّ لأولئك الأعضاء المعترف بهم، نتج من ذلك شتّى أنواع الافتراءات والشكوك. فهل المسيحيون يدبّرون للقيام بثورة أو عصيان ضد الإمبراطور؟ أم أنهم يتآمرون لتهديهم معابد الآلهة؟ وماذا يفعلون في أثناء ما يسمّونه «ولائم المحبة»؟

هنا تصدّى ترتوليانوس وزملاؤه لهذه التلميحات، مؤكّدين براءة المسيحيين. إنه يصف الشركة المسيحية المقدسة والخالية من أية أذية. ويذكر كيف أنهم بعد تناولهم ولائم الطعام المشتركة، لم يكونوا يمارسون شعائر دينية فاسقة، وإنما على نقيض ذلك إذ يعبدون الله، الذي كانوا يجتمعون باسمه.

«وكان هذا الاحتفال ينتهي كما ابتدأ، بالصلاة.» ثم يسأل ترتوليانوس قائلاً: «مَن مِن الناس تضرر بسبب اجتماعاتنا؟ فنحن مجتمعين، لا نفرق في شيء عنا ونحن متفرقين أحدنا عن الآخر. إننا كمجموعة، تماماً كما نحن أفراد. نحن لا نؤذي أحداً، ولا نجلب الحزن والأسى لأحد. لأنه عندما يجتمع الفاضل مع الصالح والحنون يلتقي الطاهر فلا يجوز أن يُدعى ذلك جماعة متمرّدة، وإنما شركة جديرة بالاحترام والشرف.»[119]

على أن السبب الأهم للكراهية الشعبية الموجهة ضد المسيحيين، كان على الأرجح لكونهم لا يشاركون في التسليات العامة – في بهرجات الأيام المقدسة الوثنية – ولأنهم متخلّفون عن حضور الحفلات التي تنظمها النقابات الوثنية العمالية. إن ما حيّر، بل أغضب معاصريهم من الناس لم يكن بسبب ما فعلوه على قدر ما كان بسبب ما رفضوا فعله. وقد انبرى ترتوليانوس مرة أخرى، يدافع عن المسيحيين، محاولاً شرح الأسباب فقال: «نحن لا شأن لنا بصخابة المباريات، ولا ببذاءة المسرح، ولا بوحشية الميدان.»[120] وقد أقّر ترتوليانوس بأنّ المسيحيين لا يشترون أكاليل الورود المألوفة لتزيين المعابد الوثنية، ولكنهم لا يريدون أن يكون عند أحد انطباع بأنّ المسيحيين معادون للعالم الذي يحيط بهم. فإن المسيحيين يشاركون في نشاطات الحياة اليومية بشكل كامل – في الدكاكين وفي الأسواق، في الساحة العامة وفي كل مكان سواء أفي المدن أو في الريف. والمسيحيون كانوا يعملون في الحقول والورش نفسها، وهم يأكلون في المطاعم نفسها، وهم يلبسون الثياب نفسها، ويطبخون أنواع الأطعمة نفسها، ويستعملون الأثاث نفسه، وهم محترمون وأصدقاء للجميع. ولم يُدِر المسيحيون ظهورهم لجيرانهم قط، ولا أساءوا ولا أهانوا الأمور المثمّنة عندهم.[121]

إلاّ أنه كان في مدن الإمبراطورية الرومانية وقراها أناسٌ ذوو نفوذ استفادوا شخصيّاً من الواقع القائم. وقد بدأوا يشعرون بأنهم مهدّدون جداً بسبب

119- Apologeticus 39
120- Apologeticus 39
121- Apologeticus 42

النمو السريع للجماعات المسيحية في وسطها. ولم يستطع الكهنة الوثنيون أن يخفوا استياءهم إزاء ما يحدث من تقلّص في نفوذ آلهتهم، وتراجع في عدد الذين يحضرون لعبادتها. فقد بدأت صناديق المال في الهياكل تفرغ باطّراد. وراح صنّاع الصور وأكاليل الغار يتذمّرون مهدّدين، كما حصل قبل عدة سنوات مع ديمتريوس الصائغ وصنّاعه في أفسس عندما بدأت عظمة الإلهة أرطاميس بالانخفاض من جرّاء كرازة الرسول بولس.[122] فجميع بائعي أدوات التزيين وأصحاب الحفلات الترفيهية التي كانت رائجة آنذاك، والمضيفين – من صانعي الجوهرات، والموسيقيين والراقصين، وكل المحترفين في المسرح، واللاعبين الرياضيين والمجالدين – كل هؤلاء وغيرهم، صاروا ينظرون إلى المسيحيين نظرتهم إلى الأعداء، لأنهم لم يحضروا معارضهم ولم يشتروا بضائعهم، بل تسببوا في انسحاب زبائنهم. كما أنّ بعضاً من المونتانيين الأكثر تطرّفاً، وبّخوا أحياناً أيضاً بشكل ساخر عبدة الأوثان هؤلاء على تفاهة تجارتهم الدينية، فسبّبوا بذلك إساءة، وجرّوا على الأحكم منهم من إخوتهم المسيحيين عاراً لم يكن ضرورياً.

كان الولاء للإمبراطور من القيم التي تمسّكت بها بحزم ودافعت عنها بحماسة، ليس طبقة النخبة الحاكمة فحسب، بل غالبية المواطنين أيضاً. لذا، فقد أسيء جداً فهم المسيحيين الذين لم يكونوا يتبعون مثل هذه العادات التي اكتسبت صفة الاحترام نظراً لقدمها. وهكذا أصبحوا مكروهين كرهاً شديداً، وباتوا في نظر القوم وكأنهم يحاولون تقويض أسس الحضارة الرومانية نفسها. فالمسيحيون لا يشاركون في الديانة الوطنية، وهم لا يقرّبون التقدمات ليضمنوا بذلك السلام والازدهار للأرض، ولا يطرحون البخور في المبخرة كعلامة الولاء للإمبراطور وآلهته التي جُعلت الإمبراطورية تحت رعايتها. وهكذا بدا المسيحيون وكأنهم اختاروا البقاء خارج المجتمع، يتمتعون بنعمه، ولكنهم في الوقت ذاته، يتملّصون من مسؤولياتهم. وقد وجد أعضاء الكنيسة الذين يملكون العقارات، صعوبة في تجنّب المشاركة في عبادة الأوثان: فمالكو الأراضي والمنازل، كان يُنتظر منهم أن يساهموا إلى

122- (أعمال 19: 23-27)

حد كبير بكلفة التقدمات العامة والمشاهد المسرحية. والعائلات المسيحية الموسرة، كانت بشكل خاص عرضة لخبث الحسّاد. إضافةً إلى الجواسيس الذين كان الأباطرة المشككون والمرتابون يستخدمونهم. ففي الواقع، إن أخطر التهم التي واجهت المسيحيين، باتت مجهولة هوية أصحابها. فإذا ما جاء شخص معروف بادّعاء تافه أو كاذب، قد يجد نفسه في ورطة بالغة الخطورة، ولكن متى كانت التهمة مجهولة هوية أصحابها، فإنه يتمكن بعدها من الإفلات من العقوبة بسهولة. وبهذا الأسلوب، تمكّن أعداء الإيمان من ارتكاب أشنع الافتراءات اللا مسؤولة، وأحياناً كان اليهود في غيرتهم على مركزهم المميّز كمنتمين إلى ديانة مسموح لها، يقفون في طليعة المهاجمين: مثلاً، كان لهم دور رئيس في استشهاد بوليكاربوس.

إضافةً إلى ذلك، يخبرنا ترتوليانوس، أنه استناداً إلى خبرته، كان المسيحيون مكروهين غالباً فقط بسبب محبتهم بعضهم لبعض. لقد عارض الوثنيون الطريقة التي كان المسيحيون يعاملون فيها بعضهم بعضاً كإخوة وأخوات، مساعدين أحدهم الآخر، وداعمين أراملهم وأيتامهم والذين كانوا في ضيق وعوز. «إن ممارستنا لهذا العطف الحب وتنفيذه عملياً هو الذي، بشكل رئيس، يسمنا بالعار في نظر بعض الناس.» يقولون: «أنظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضاً.» ذلك لأنهم هم أنفسهم يكرهون بعضهم بعضاً. ويقولون أيضاً: «أنظروا كيف أن المسيحيين مستعدون ليموتوا بعضهم لأجل بعض.» ذلك لأنهم هم أنفسهم أكثر استعداداً لقتل أحدهم الآخر. إنهم يجدون خطأ فينا أيضاً لأننا نطلق على بعضنا التسمية «أخ». أشعر أني متأكد أن السبب وراء انتقادنا هو التالي: كل تسمية صداقة عندهم ليست سوى مجرّد ادّعاء مزعوم ورخيص.»[123]

لقد حرصت الجماعة المسيحية كل الحرص على تكريم الإمبراطور، وعلى إطاعة القوانين، ودفع كل ما يترتب عليهم من ضرائب. فكلمة الله تقول: «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلاّ من الله

123- Apologeticus 39

والسلاطين الكائنة هي مرتّبة من الله.»[124]

وقد أسرع ترتوليانوس بالإشارة إلى أنّ المسيحيين لم يكن لديهم أية دوافع أو أطماع سياسية، وهم ليسوا بالتالي ثوّاراً ضد الحكومة والدولة. كانوا مسالمين شرفاء، وذوي احترام ووقار. فإنّ أفضل الأباطرة وأحكم المسؤولين، أضاف ترتوليانوس، كانوا يعلمون ذلك جيداً: لقد رأوا في المسيحيين تلك المزايا الرفيعة الخالصة التي ودّوا لو يجدون مثلها في جميع الخاضعين لهم.

الأباطرة الأشرار وحدهم اضطهدوا الكنيسة، تابع ترتوليانوس، وذلك إمّا لكونهم ضعفاء أو راغبين في تملّق الوثنيين المتطرفين، وإمّا لكونهم أنانيين للغاية يدفعهم مزاجهم بدل الحكم السليم. و ترتوليانوس نفسه خاطب الرسميين الرومان راجياً منهم التساهل مع المسيحيين وواعداً بتقديم الولاء بالمقابل.

إلاّ أنه في بعض الأحيان كان يجد المسيحيون أنّ واجبهم يجعلهم في نزاع مع السلطات. فإذا أعطوا ما لقيصر لقيصر، كان عليهم أيضاً أن يعطوا ما لله لله.[125] وحتى سلطة الإمبراطور نفسها كانت خاضعة لذلك الكائن الإلهي الذي خلق كل شيء. وبعض الظروف لم تترك لهم سوى خيار أن «يطيعوا الله أكثر من الناس.»[126] فهم لا يمكنهم أن يقرّبوا التقدمات للأصنام، مثلاً، حتى ولو صدر مرسوم ملكي يطلب مثل هذا العمل، ولا كانوا يستطيعون أن يسفّهوا اسم المسيح أو يلعنوه وبعضهم رفض القَسم القانوني، معتقدين أنه من الخطأ أن يُقسم المسيحي بمثل هذا القسم. فقد علّمهم الرب: «لا تحلفوا البتة، لا بالسماء... ولا بالأرض... لا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير.»[127] ولم يستطع آخرون من المسيحيين أن يوفّقوا بين خدمة الجندية وضمائرهم المسيحية. إن مواقف رافضة كهذه، صبّت ولا شك الزيت على نيران الحقد.

124- (رومية 13: 1)
125- بالإشارة إلى (مرقس 12: 17)
126- (أعمال 5: 29)
127- (متى 5: 34-37)

كانت الطبقات العليا من الرومان، وعلى الأخص كبار الملاّكين، ينظرون بحذر إلى كل تعليم جديد قد يهدد وضعهم الراهن، ويعّرض غناهم ومراكزهم للخطر. فإن التعليم المسيحي القائل بالمساواة، لم يكن محبباً لدى الأوساط الأرستقراطية الوثنية الغنية. وهكذا حصل توتّر، خصوصاً في أيام الجفاف وندرة المؤن. شعر الوعاظ المسيحيون في أنفسهم بأنهم ملتزمون إلى حدّ قليل جداً بالموافقة على تلك الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء، وبخاصة عندما كان أصحابهم وجيرانهم يعانون الجوع والتشرّد. ثم راحوا، على غرار المسيح نفسه، يحثون أصحاب الكنوز على كنزها في السماء لا على الأرض، مستوحين ممّا يذكره العهد الجديد بشأن أشراك الغنى والبركات المعلنة للمحتاجين والمسحوقين. وقد لاقت هذه الأفكار آذاناً صاغية لدى الفقراء، ولكنها لم تلقَ شعبية عند المسؤولين الرومان. إن الرسميين المحليين، وكانوا في غالبيتهم من الطبقات الأرستقراطية، لم يتردّدوا قط في وضع موضع التنفيذ أي مرسوم إمبراطوري يعد باقتلاع هذه التعاليم من جذورها وتخريبها.

من الضروري أن نتذكر أيضاً أنه إلى جانب التشريع الصارم للمحاكم البلدية، وعداوة الرعاع التي لا يمكن التنبؤ عنها، كان المؤمنون معرّضين لمحاكمة عائلية يرأسها رب العائلة وصلاحياته تكاد تكون لا متناهية. لقد كان بإمكان الزوج الوثني مثلاً أن يدين زوجته المؤمنة ويحكم عليها بالموت. ومعروف عن آباء أنهم حرموا أولادهم من الميراث، وأنهم فرضوا كل أساليب التعذيب على عبيدهم إذا اعترفوا بالإيمان المسيحي.

كانت القوات المجنّدة ضد الكنائس متنوعة وثقيلة. ومعظم الصعوبة تكمن في أنّ السلطات الرومانية لم تكن تعترف بالدين المسيحي رسمياً، لذا لم يكن يحق للمسيحي أن يدافع عن نفسه قانوناً أو شرعاً. ويذكر ترتوليانوس في هذا الصدد كيف أن الوثنيين كانوا أحياناً يوبّخون المسيحيين وبشكل ساخر قائلين: «بموجب القانون، أنتم لستم حتى بموجودين.» ولكنه، أيّ ترتوليانوس يردّ بالقول إنّ المسيحيين موجودون حقاً، سواء أشاء الوثنيون ذلك، أم أبوا. وإذا كان الأمر كذلك، فَمَن إذاً من الاثنين يكون بخلاف الحق:

المسيحيون أم القانون؟[128]

وقد يُسأل لماذا لم تسعَ الكنيسة المسيحية للحصول على اعتراف شرعي بها، خصوصاً وأن اليهود كانوا قد حصلوا على مثل هذا الاعتراف. العقدة تكمن في كون الرومان يعتبرون أنّ الديانة هي مسألة عِرقية، لا مسألة اقتناع شخصي. فاليونانيون كان لهم آلهتهم، وكذا بالنسبة إلى الرومان. وقال كلسوس (Celse) في معرض انتقاده للمسيحيين: «أمّا اليهود، فلا يمكن أن يلاموا، لأنّ على كل إنسان أن يعيش بموجب عادات بلده، بينما المسيحيون قد تخلّوا عن شعائرهم الوطنية بسبب تعاليم المسيح.»[129] على أن المشرعين الرومان اعتبروا أن ولاء الإنسان الأول ليس لضميره ولا لآلهته، بل للدولة. والإمبراطورية ادّعت لنفسها الحق بأن تقرّر لرعاياها أيّة آلهة يجب أن يعبدوا. ولم تكلّف الدولة نفسها عناء الاهتمام بالمعتقدات الخاصة التي يؤمن بها الإنسان، ولكنها فرضت عليه، بشدّة وحزم، أن يلتزم بشكل نهائي بحضور الطقوس العامة المختصة بديانة الدولة، وأن يُظهر بشكل واضح خضوعه وامتثاله. هذا، وإن إيماناً جديداً يمنع أصحابه من عبادة الأوثان كان من الطبيعي له أن يصطدم بنظام كهذا.

لا يمكن لحكومة كليانية أن تتفهم بسهولة فكرة وجود مواطن مخلص ينتمي إلى دينٍ مستقل. إلا أن ترتوليانوس ترافع أمام الحكّام الرومان ليعاملوا المسيحيين بالعدل إذ يمنحوهم فرصة فقط للتعبير عن وجهة نظرهم. فإذا حاولت السلطات، ولو فقط أن تكتشف ما الذي يؤمن به المسيحيون، فإنها ستتوقف عن صبّ جام غضبها عليهم. وفي الواقع، أضاف يقول، لن يجد المسؤولون شيئاً يلام المسيحيون عليه. يُسمح للناس المتهمين بجرائم العنف أن يدافعوا عن أنفسهم وليس هذا فحسب، بل أن يعيّنوا محامين محترفين للدفاع عنهم. «عندهم فرصة كاملة للردّ كما أيضاً لاستجواب الشاهد أو الخصم ابتغاء دحض شهادته، ذلك لأنه، من غير المسموح أن يدان الناس من دون سماع شهاداتهم أو قبول دفاعهم. أمّا المسيحيون، فهم

128- Apologeticus 4

129-(اقتبسها Foakes_Jackson p. 45), (5: 25) Origene Contra Celsum

وحدهم غير المسموح لهم بأن يقولوا أي شيء لتبرئة ساحتهم، وللدفاع عن الحق، ولإنقاذ القاضي من الظلم. فالقاضي همّه الوحيد إرضاء الجمهور الحاقد – أي الاعتراف باسم المسيح، لا استقصاء تهمة أعمال السوء.»[130]

واستطرد ترتوليانوس قائلاً إنّ كل هذا العداء، هو نتيجة التعصّب الأعمى عن جهل. فإذا ما توقّف الناس للحظة فقط، للتبصّر والنظر في حقائق هذه القضية، فإنهم سيرون الأشياء من منظار مختلف تماماً. «فكل الذين كرهوا، بسبب عدم معرفتهم حقيقة الأشياء التي كرهوها أو حقدوا عليها، سيتوقفون عن هذه الكراهية حالما يكفّون عن جهلهم هذا... الناس يصرخون قائلين إن الدولة قد امتلأت بالمسيحيين. فالمسيحيون في القرى والأرياف وفي الجزر أيضاً، والناس من الجنسين، ومن كل الأعمار، وفي كل الأوضاع، حتى من ذوي المراكز الاجتماعية العليا ينتقلون إلى المجتمع المسيحي. يولولون ويندبون بسبب هذه الأمور، كما لو أنّ هناك نكبة أو كارثة. لكنهم على الرغم من كل هذا ليسوا على استعداد أبداً للتفتيش عن بعض الحسنات فيها التي قد تكون قد فاتتهم.»[131]

أشار ترتوليانوس باستمرار إلى استعداد المسيحيين للموت عوضاً عن أن ينكروا إيمانهم. كان ثبات الشهداء من الأسلحة الرئيسة في جعبته. لقد تأيّدت حقائق التعليم المسيحي من خلال المواقف الثابتة لأولئك الذين تبنّوها: «اسألوا أنفسكم إذاً.» قال ترتوليانوس «عمَّا إذا كانت إلوهية المسيح معتقداً حقاً أم لا. فإذا كان قبول مثل هذا الإيمان يؤدي إلى تغيير الإنسان فعلاً إلى الأحسن، يعني ذلك أنّ كل ما هو مخالف له يجب أن يرفض.» وقد أشار ترتوليانوس إلى الصمود وضبط النفس اللذين تميز بهما المسيحيون في أثناء المحاكمة. فإنهم لم يلجأوا إلى السلاح، ولا هربوا من السلطة الإمبراطورية. «كم مرة صببتم جام غضبكم على المسيحيين، أحياناً بسبب ميلكم إلى هذا وأيضاً بسبب امتثالكم للقانون. وكم مرّة أيضاً لم يُعركم رعاع الشعب المتعصّب انتباهاً، بل هاجمونا بالحجارة وبالنيران. وقد تجاوزوا القانون نفسه...

Apologeticus 2 -130
Apologeticus 1 -131

ولكن، مع كوننا متماسكين ومتحمّسين جداً لمواجهة الموت، هل لاحظتم أبداً عندنا أي انتقام على الإساءة؟»[132]

شعر معظم الولاة الرومان، أمثال بليني الأصغر (Pline le Jeune) بعدم تأكّدهم من الطريقة التي يجب أن يتبعوها هؤلاء المسيحيين الذين يمثلون أمامهم للمحاكمة. كتب بليني من منطقة بيثينية (Bithynie)، في شمال تركيا المعاصرة في العام 112ميلادي إلى الإمبراطور ترايان (Tra-jan) يسأله النصح والإرشاد. قال بليني: «إنها قاعدة عندي يا سيدي، أن أرجع إلى مقامكم في القضايا التي أشك فيها. لم أحضر في السابق محاكمة من محاكمات المسيحيين قط، لذا، لا أعرف ما هي العقوبات العادية المترتبة، أو ما هي التحريات، وإلى أيّ مدى يجري التقّيد بها. لقد ترددتُ كثيراً في ما إذا كان يجب أن آخذ أعمار المتهمين بعين الاعتبار أم لا، وما إذا كان الضعفاء يُعاملون بالطريقة نفسها التي يُعامل بها الأقوياء، أو إذا كان عليّ أن أسامح أولئك الذين يتخلون علناً عن معتقدهم المسيحي، أو ما إذا كان عليّ أن أعاقب من كان مسيحياً، حتى ولو قرّر التخّلي عن ذلك، وما إذا كان مجرد الاسم «مسيحي» كافياً ليُنزل العقاب بصاحبه، حتى ولو كان بريئاً من أية جريمة أخرى، أم الجرائم المتعلقة بهذا الاسم فقط.» والتساؤل الأخير في هذه القائمة من التساؤلات الطويلة أعلاه، كان مستمداً من الاعتقاد العام السائد بين الوثنيين، على الأقل في الأيام الأولى، أن المسيحيين كانوا يتورطون في جرائم قتل الأطفال، وأكل لحوم بشرية، وزنى المحارم. وتساءل بليني ما إذا كان اعتراف المتهم بمسيحيته يعني تلقائياً أنه مذنب بكل هذه الجرائم المذكورة آنفاً، أم لا؟

وأكثر ما يصدمنا بعنف من الوثائق عن الموضوع الذي نحن بصدده، هو أنّ الولاة والقضاة، أمثال بليني، والذين كانوا يحكمون على المسيحيين بشتّى أنواع التعذيب والتنكيل والقتل الوحشي أمام الملأ، لم يكونوا سوى مجرّد مأمورين مواظبين على القيام بواجبهم، وكانوا يحاولون على هذا الأساس تنفيذ مهمة إدارية إطاعة لتعليمات محدّدة. كان كل همّهم تأمين خضوع

Apologeticus 37 -132

الشعب بشكل مسالم للقوانين المرعية بشأن الديانة المسموح بها في الدولة. وصحيح أنه غالباً ما كانت تعوزهم الشفقة والرحمة، لكنّ عملهم كان يفرض عليهم كبت أية مشاعر شخصية قد تتولّد عندهم. كانوا بالتأكيد، يفتقرون في معظم الأحيان، إلى الرغبة الشخصية في البحث عن الحقيقة، إلا أنهم، عموماً، لم يكونوا يضمرون العداء لأولئك الذين يسبّبون لهم هذه الآلام المفزعة والرهيبة. كانوا مجرّد ممثّلين غير جذابين عن نظام سياسي متوحّش ولا إنساني، في عالم رَخُصت فيه الحياة، وباتت البلوى الدموية التي يعانيها الآخرون، الستار الخلفي للحياة اليومية، ولنقل أيضاً، الوجبة المستخدمة باستمرار على نطاق واسع للتلهيات العامة.

أوجز بليني الإجراءات التي كان يتخذها في استجواب أولئك الذين يمثلون أمامه قائلاً: «أسألهم إن كانوا مسيحيين. وفي حال أقرّوا بذلك، أكرّر سؤالي مرة ثانية وثالثة مهدّداً إياهم بإنزال عقوبة الموت بهم. فإذا أصرّوا، أحكم عليهم بالموت، لأنني لا أشك مطلقاً في أنه مهما كانت جريمتهم التي اعترفوا بها، فإن مشاكستهم وعنادهم المتصلّب، وحدهما، كافيان للعقاب لا محالة.» لقد كان بليني نموذجاً لأولئك الذين يؤمنون بأن جريمة المسيحيين الكبرى تكمن في تحدّيهم للسلطة، وفي رفضهم الانصياع لأوامر الدولة، كذلك في عدم قبولهم التخلّي عن إيمانهم المسيحي عندما يصدر إليهم الأمر بذلك بصرف النظر عمّا إذا كان الإيمان حسناً أو سيئاً.

أخبر بليني الإمبراطور عن أوراق كاتبها مجهول وصلت إلى يده، وفيه مدّون العديد من أسماء المسيحيين. وقد استُدعي هؤلاء للمثول أمامه، قال: «وكل من أنكر كونه مسيحياً، وجدت أنه يجدر بي أن أطلق سراحه، لأن هؤلاء كانوا يدعون باسم آلهتنا عندما آمرهم بذلك، وهم، بالبخور والخمر، يبجّلون تماثيلك ويوقّرونها حيث كنت أُحضر صورتك (صورة الإمبراطور) بالإضافة إلى أصنام الآلهة لهذا الغرض بعينه، وبالأخص لأنهم لعنوا المسيح، ذلك الأمر الذي يقال إنّ المسيحيين الحقيقيين لا يمكن إقناعهم بالإقدام عليه... وآخرون ذكر المخبر أسماءهم قالوا أولاً أنهم مسيحيون ثم ما لبثوا أن أنكروا ذلك، إذ صرحوا أنهم كانوا مسيحيين في الماضي، ولكنهم الآن لم يعودوا كذلك...

لقد سجد الجميع وتعبّدوا لصورتكم وتماثيل آلهتنا، ولعنوا المسيح.» ولكن، حتى بليني نفسه كان يعلم أن هؤلاء القوم لم يكونوا المسيحيين الحقيقيين، لأن سلوك هؤلاء الذين تبعوا المسيح بجديّة كانت معروفة بخلاف ذلك. وقد لاحظ بليني بالاختبار، أن لاشيء يحمل المسيحيين الحقيقيين على لعن مخلّصهم.

انتزع بليني الاعترافات انتزاعاً من بعض هؤلاء، إلاّ أن هذه الاعترافات جاءت خالية من الرذائل المروّعة التي كان يأمل أن يسمع عنها. لم تكن إساءاتهم، في الواقع، ممتعة ولا مشوّقة على الإطلاق. «لكنهم أعلنوا أن مجموع أخطائهم هو التالي: إنهم في يوم معيّن، كانوا قد اعتادوا أن يجتمعوا قبل الفجر، ويرتّلوا تراتيل إيقاعية للمسيح، باعتباره إلهاً، وأن يربطوا أنفسهم بتعهّد مقدس جليل – لا للتعهّد بالتورط في جريمة معيّنة أو أخرى، بل بالحري للامتناع عن السرقة والسلب والزنا والإخلال بالوعود، أو التنكّر لوديعة وقت المطالبة بها. وبعد ختام هذا الاحتفال اعتادوا أن يتفرقوا على أن يجتمعوا ثانية إلى مائدة الطعام، لكنه كان مجرّد طعام عادي ولا يشكّل أي أذى.»

لقد وجد بليني أن هذا البيان البسيط من الحقائق غير وافٍ، فواصل عمله مظهراً بذلك القلب القاسي عند الإداري الإمبراطوري: «لهذا وجدت أنه من الضروري، أن أتحرّى مدى صحة كل هذا، وذلك بتعذيب خادمتين كانتا تُدعيان مساعدتين. ومع ذلك لم أجد شيئاً سوى خرافات فاسدة ومتمادية في الوهم، وهكذا قمت بتأجيل جلسة الفحص والتمحيص هذه، وقررت استشارتكم.»[133]

لم تكن السلطة ترغب في قتل المسيحيين، وإنما كانت ترغب في إعادتهم إلى عبادة الآلهة الرومانية، ولم يكن في نية السياسة الإمبراطورية إخلاء الكنائس من رعاياها، بل إعادة ملء المعابد الوثنية. ولم تكن تنوي تغيير المعتقدات الدينية عند الناس، بل ضمان طاعتهم وليونتهم. كان الأباطرة يعلمون دائماً في قرارة نفوسهم، أنّ إفريقيا هي جزء غير مستقر

133- Epitre 10 (Ad Trajan), 96 (Bettenson DOTCC pp. 3-4)

من الإمبراطورية الرومانية. ففيها المئات من القبائل، وجميعهم أعداء محتملون، وهم يعيشون على مسافة قصيرة داخل البلاد، وراء حدود كان من غير الممكن الدفاع عنها عسكرياً ضد مهاجمين محدّدين. عاش الحكام في قلق مستمر، إذ كان عليهم التعامل مع أية مؤشّرات بعيدة لفوضى أو فتنة، و وأدها في مهدها في هذه المقاطعات الصعبة قبل أن تشكّل خطراً سياسياً جديّاً.

إن أية أمة هي متماسكة معاً بفضل وحدتها الدينية، وتسيطر على شعبها بواسطة كهنوتها الرسمي، لابدّ من أن تشعر بتهديد مباشر من أقلّيات قرّرت أن تخرج عن الدين الوطني. فإنْ بقيت هذه الأقلية متوارية عن الأنظار، وتمتثل من الخارج لمتطلبات حفظ الشعائر الدينية، فإنها غالباً ما تُترك في سلام. ولكن حالما تعترف هذه الأقلية جهراً أنها لم تعد تخضع لسلطة هذا البلد الدينية، فإن الدولة عندئذٍ، تفقد نسبة من سيطرتها على هذا الشعب. وما أن تصبح هذه الأقلية قوة حتى إن الجميع يعرف أنها تقدّم بديلاً عن السلطة الدينية القائمة، تبدأ تهدّد إذ تجتذب عدداً كبيراً إلى صفّها. وهكذا تتحوّل أقلية شجاعة ومتنامية إلى أغلبية ساحقة في حال لم يعمل أحد على إيقافها.

هذه كانت من جملة الأسباب الموجبة التي جعلت السلطات الرومانية تحاول يائسةً استئصال الكنائس الفتية في شمال إفريقيا. لكنّها لم تدرك إلاّ القليل أي فشل ذريع سيصيبها. فقد كُتب لكنائس إفريقيا الشمالية أن تصمد إلى ما بعد زوال أعظم إمبراطورية كانت مقتدرة عسكرياً ولم يرَ العالم لها مثيلاً.

الفصل الحادي عشر

المعذّبون المبتهجون

ألقى مسيحيو شمال إفريقيا أنفسهم في أتون المحن والبلايا، غير آبهين بشكل مذهل للعواقب. وارتفع عددهم إلى المئات، بل إلى الآلاف، أولئك الذين ثبت أنهم يعانون الأمرّين بسبب التزامهم الإيمان بالمسيح. لقد أعلنوا سرورهم وغبطتهم ليكونوا هكذا وماتوا مبتهجين فرحين جداً. رفضوا بصراحة، وبشكل قاطع، أن يقرّبوا التقدمات لآلهة روما، ولم يرتضوا لأنفسهم أن يُقسموا بقدرة الإمبراطور الإلهية. ليس من السهل على جيلنا الحالي أن يتفهّم هذه الحماسة أو يدرك مثل هذه التصرفات، لأننا لم نعتد عليها. وقد نعجب متسائلين: ما الذي يقف وراء هذا العناد الذي لا يقبل المساومة؟ ولماذا صمّم المسيحيون أن يعترفوا بإيمانهم المسيحي مجاهرة حتّى ولو أدّى بهم ذلك إلى التضحية بحياتهم؟

علينا أولاً أن نتذكر أنهم كانوا واثقين من المبدأ الذي أرسوا عليه أقدامهم. فقد آمنوا تماماً، وبشكل راسخ، بأنهم اكتشفوا الحق. كما اقتنعوا بشكل أكيد أنّ المسيح هو بالحقيقة الله المتجسّد الذي جاء من السماء ليكون «نور العالم»[134]. إنهم آمنوا بما قاله لهم سيدهم، ووثقوا بأن طريق المسيح هو الأفضل، لقد رأوا الفرق بأمّ أعينهم. كانوا يفتخرون بمسيحيتهم، كما أن إخلاصهم لم يسمح لهم بأن يتفوّهوا بالكذبة العظيمة المطلوبة منهم ولم يكن لهم أبداً أن يعبدوا الإمبراطور الروماني رباً وإلهاً. لقد شعروا بمحبة الإله الحقيقي الذي خلق كل شيء، واختبروا دفء الجماعة المسيحية ولطفها، وكان اختبارهم لهذه البركات بمثابة تذّوق مبدئي للسماء في وسط عالم قاسٍ وشرس. كان إيمانهم يمنحهم بهجة عظيمة. فهذا الإيمان حوّل حياتهم كلّها، ولم يبقَ عندهم أدنى شك بحقيقته وبصحتّه. ولا شيء كان بإمكانه أن ينتزع منهم هذا الإيمان أو يجعلهم يتنكرون له.

وأكثر من ذلك، فقد كانوا ممتلئين بشعور شخصي غامر من العرفان بالجميل والإقرار بالفضل لمخلّصهم الذي أحبهم عندما لم يكونوا يفكّرون فيه. لقد فتّش عنهم كما يفتش الراعي عن خرافه الضّالة. واعتنى بهم

134- (يوحنا 8: 12)

عندما كانوا في حالة بؤس وشقاء وانحدار. ثم أصعدهم من طين الحمأة، وثبّت على صخرةٍ أرجلهم[135]. فكيف لهم أن ينكروا ربهم وهو الذي منحهم كل شيء حسناً، وهو من أعطاهم كل هذا الفرح والحبور الذي أصبحوا الآن يتمتعون به؟ لقد وهبهم كل ما يجعل هذه الحياة جديرة بالاهتمام وذات شأن رفيع – لقد منحهم الصحة والعافية والصداقة والمحبة، واحترام الذات والمسامحة، والقبول والرجاء العظيم بالحياة الأبدية الخالدة. فكيف لهم أن يلعنوا ذاك الذي خلّصهم وأعالهم وأحبّهم إلى المنتهى؟! كما أعطى كل ما لديه من أجلهم، وهو الذي ناضل بكفاح مضنٍ تحت وطأة صليب ثقيل، وأخيراً مات معلّقاً عليه من أجلهم هم.

كذلك، لم ينقص عن ذلك مقدار تأثرهم بالشرف العظيم الذي شعروا بأن الرب أنعم به عليهم: أن يكونوا شعبه الخاص، أولئك الذين سوف يقومون من القبر لكي يملكوا معه إلى أبد الآبدين. أمّا الامتياز الأكبر والأروع، فهو من نصيب من أفرزهم الرب شخصياً ليعلنوا اسمه جهراً أمام هذا العالم المترقّب المنتظر. لقد كانوا في أشدّ الاشتياق لخدمة المسيح بأي شكل من الأشكال. فكيف إذاً يُظهرون ولاءهم وحبهم له؟ وكيف سيعظّمونه على كل صلاحه من نحوهم؟ إلاّ باحتمال الانزعاج بفرح من أجله على مدى عدّة أيام، وبشهادة مخلصة، وإعلان ثابت وطيد لإيمانهم أمام الجماهير المحتشدة للاستماع إلى حكم الموت الذي سيصدر بحقهم، ثم وميض السيف، ومن ثم الحياة الأبدية. ومن بين هذه الجماهير المحتشدة المترقّبة في السجون أو في الساحة العامة، قد يُقبل بعضهم إلى معرفة الحق في اللحظة عينها لانتقال المؤمنين من هذا العالم. ومع أن تلاميذ الرب الأولين تخلّوا عنه وهربوا، إلاّ أن هؤلاء سيقفون معه ويصمدون بشجاعة وإباء، وإذا كان بطرس قد أنكره، فهم، على الأقل، لم ولن يخجلوا من أن يكونوا أصدقاءه. فمثلهم مثل شاول الطرسوسي، إذ شعروا بأنهم مُفرزين ليحملوا اسمه أمام الحكّام والملوك.[136] إنهم سوف يعترفون الاعتراف الحسن أمام ولاة عصرهم

135- بالإشارة إلى (المزمور 40: 2)
136- (أعمال 9: 15 و16)

وحكّامهم، كما فعل المسيح أمام بيلاطس البنطي.[137]

لم تفاجئهم تحدّيات الاضطهاد. هذا لأن سيدهم دعاهم إلى هذا العمل العظيم الجبّار، وهو الذي وعد بأن يدعمهم ويقوّيهم. «فانظروا إلى نفوسكم. لأنهم سيسلّمونكم إلى مجالس وتُجلدون في مجامع وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم. وينبغي أن يُكرز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم. فمتى ساقوكم ليسلّموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا. بل مهما أُعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلّموا. لأن لستم أنتم المتكلّمين بل الروح القدس... وتكونون مبغَضين من الجميع من أجل اسمي. ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص.»[138] كان ذلك حقاً، هذا لأن هؤلاء الرجال والنساء وجدوا في ساعة المحنة الحرية الجيدة التي دفعتهم إلى التحدث عن يسوع المسيح بسرور وبفصاحة انسكبا عليهم من فوق. لقد شعروا بمنتهى السعادة لكونهم مسيحيين، وهم أكثر الناس امتيازاً في العالم بأسره. لم يكن لديهم شيء يرغبون في إخفائه، أو يخجلون منه، فسيدهم لم يرتكب أية جريمة، وكذلك الأمر بالنسبة إليهم. كانوا فخورين بحمل اسم المسيح. وقد عبّر ترتوليانوس عن هذا الشعور العارم بالولاء للمسيح: «نقول أمام جميع الناس، وحينما تُمزّق أجسادنا وتدمى من جرّاء تعذيباتكم، فإننا جميعاً نصرخ بأعلى ما أوتينا من قوة: «نحن نعبد الله من خلال المسيح». يحقّ لكم أن تعتقدوا أن المسيح ليس سوى إنسان، ولكن اعلموا إنه من خلاله، و به فقط قد شاء الله أن يُعرف ويُعبد.»[139]

تشدّد المسيحيون المضطهدون وتقوّوا في معاناتهم هذه، باقتناعهم التام المطلق بأن هناك حياة أفضل تنتظرهم. وليس المطلوب منهم إلاّ أن يعبروا عتبة الموت الضيّقة ليدخلوا بعد ذلك إلى دارهم الأبدية السرمدية، فيكونوا دائماً وأبداً في حضرة الله المبارك حيث لا دموع ولا أحزان. وإذ سيعودون للاجتماع من جديد بفرح بأحبائهم، في ذلك المكان المثالي، كانوا

137- (تيموثاوس 6: 13)
138- (مرقس 13: 9- 13)
139- Apologeticus 21

يشتاقون إلى أن يُرحّب بهم هناك، لا كعمّال بطّالين، بل كخدّام صالحين وأمناء يرضى عنهم ربّهم. إنّ إقراراً جريئاً بالإيمان بالمسيح سوف لن يضيع أجره. يقول المسيح: «فكل من يعترف بي قدّام الناس أعترف أنا أيضاً به قدّام أبي الذي في السماوات.»[140] كما أن الأقدم عهداً بين الترانيم جميعها تقول: «إن كنّا قد متنا معه فسنحيا أيضاً معه، وإن كنا نصبر معه فسنملك أيضاً معه.»[141]

كان هناك الكثيرون ممن يرغبون في أن يملكوا مع الرّب يسوع، كانوا يشتاقون بإخلاص إلى أن يُتوّجوا بتاج الشهادة. وفي يقينهم بإحراز النصر المبين على قوى الظلام، كانوا قد حلّوا أنفسهم من رباطات هذا العالم الكاذب والمخدّر. قُدّر لهذا العالم أن يزول عن قريب. وهم لم يعودوا يرغبون في أن يبقوا مستعبدين لادّعاءاته التافهة، ولا لفساده المستشري. تكلم ترتوليانوس بلسانهم جميعهم عندما قال: «نحن نرغب التعجيل في أمر حصولنا على المُلك، لا أن نطيل زمن عبوديتنا... نعم، ليأتِ ملكوتك أيها الرب سريعاً، وسريعاً جداً. وسيكون هذا تحقيقاً لأشواق المسيحيين، وإرباكاً للملائكة. هذا ما نصلّي من أجله مبتهلين.»[142]

كانوا يتوقعون باستمرار رجوع المسيح. لذلك كانوا أمام كل أزمة أو مصيبة جديدة يتذكّرون تحذير السيّد و وعده: «نعم، أنا آتي سريعاً.»[143] «اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون فيأية ساعة يأتي ربكم.»[144] سيأتي الرب كمخلّص لشعبه، وكديّان للعالم. يقول الكتاب أيضاً: «هو ذا الديّان واقف قدّام الباب»[145] «يوم الرب كلصٍّ في الليل هكذا يجيء. لأنه حيثما يقولون سلام وأمان حينئذٍ يفاجئهم هلاك بغتةً كالمخاض للحبلى فلا ينجون.»[146]

ها إن أيام العز والقوّة، قد زالت فعلاً من الإمبراطورية الرومانية. وحيث

140- (متى 10: 32)
141- 2 (تيموثاوس 2: 11و12)
142- De Oratione 5
143- (رؤيا 22: 20)
144- (متى 24: 42)
145- (يعقوب 5: 9)
146- 1 (تسالونيكي 5: 2 و3)

بدأت تتدهور وتضمحل، برزت حينذاك بوادر شؤم وتعاسة تنذر بالسوء. وكأن العالم يُسرع الخطى اقتراباً إلى نهايته: أوبئة وحروب وهزّات أرضية، وانهيار الحكومات الثابتة، وخيبة أمل بالنسبة إلى ما كانت الإمبراطورية تمثّله. لقد قال المسيح: «فإذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب فلا ترتاعوا. لأنها لابدّ أن تكون. ولكن ليس المنتهى بعد. لأنه تقوم أمّة على أمّة ومملكة على مملكة، وتكون زلازل في أماكن وتكون مجاعات واضطرابات. هذه مبتدأ الأوجاع... لأنه يكون في تلك الأيام ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة التي خلقها الله الآن ولن يكون.»[147]

كان كل شيء في انحدار، وفُقد كل أمل في معالجة حالة الإنسانية ولم يعد بإمكانها سوى التقهقر والانحدار إلى الأسوأ. وليس غير أولئك المتفائلين جداً كان بإمكانهم أن يفكّروا في غير ذلك. والمسيحي الذي كان قد أُخذ من هذا العالم، قبل حلول هذه الأيام الأخيرة المرعبة، كان بوسعه أن يُعدّ نفسه مباركاً فعلاً. قال ترتوليانوس: «يبقى المؤمن منتظراً ذلك اليوم... وهو قلقٌ يومياً على ما يرجوه كل يوم.»[148] إن رغبة الكثيرين من المؤمنين في ترك هذا العالم قبل أن يشبّ فيه الحريق الهائل الأخير، قطع في الواقع ما تبقّى لهم من صلات به. وهكذا شدّدهم لمواجهة ساعة المحنة، لحظة المغادرة والانطلاق.

كان بإمكان أتباع المسيح أن يبقوا واثقين بانتصارهم النهائي مهما كانت معاناتهم. وسبق لكلمة الله الحيّة أن تنبّأت بخصوص هياج الوثنيين المجنون على ابن الإنسان. «هؤلاء سيحاربون (المسيح) و (المسيح) يغلبهم لأنه رب الأرباب وملك الملوك.»[149] كان ترتوليانوس يتطلّع إلى اليوم الذي فيه ستنقلب ممالك العالم وستجثو كل ركبة باسم الرب يسوع.[150] لقد أسرعت مخيّلته واستبقت مجيء المسيح، يوم الدينونة العظيم وتدمير المعذِّب. فلسوف يجرف الانتصار الأخير معه ذكريات الذل والخزي، هذه التي لحقت

147- (مرقس 13: 7 و8، 19)
148- De Anima 33
149- (رؤيا 17: 14)
150- (فيلبي 2: 10)

بشعب الله، وكل ما عانوه على أيدي أولئك الظالمين الأشرار. كتب يقول: «ولكن... يا للمشهد الآتي! ظهور الرب، معترَفاً به، ممجّداً ومنتصراً. فكم سيكون عند ذاك جذل الملائكة وابتهاجهم، وكم سيشرق مجد القديسين حين يقومون ويظهرون! وبعد ذلك، سناء عهد مُلك القديسين الرائع، ومدينة أورشليم الجديدة! ولكن، هناك مشاهد أخرى إلى جانب كل ما تقدّم! إنه يوم الدينونة الأخير، اليوم الذي لم تكن تتوقعه الأمم، ذلك اليوم الذي ضحكوا عند سماعهم عنه... فعلامَ سأتعجب عندئذٍ وأندهش؟ ... سوف أرى جميع أولئك الملوك الجبابرة الذين أُعلن عنهم جهراً بأنهم قد مُجّدوا في السماء، وهم يئنون ويتأوهون جميعاً في الظلمات العميقة السحيقة، وسأرى... الحُكّام، ومضطهدي اسم الرب، وهم يذوبون في نيران هي أشدّ ضراوة وأعنف قسوة من تلك التي هاجوا وماجوا بها ضد المسيحيين المؤمنين... فلاسفة... شعراء... كتّاب المآسي... ممثلين... وسائقي المركبات. ومنذ الآن نستطيع أن نتخيّل ما سيحدث لهم.»[151] عند ذاك سنلاحظ مصير أولئك الذين بصقوا على الرب يسوع وضحكوا في وجهه، وجلدوه وصلبوه.

فإذا ما جاء الاضطهاد، فلا بدّ أن يكون وراءه الخلاص. لقد تشجّع المسيحيون بكلمات سيّدهم: «ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم تقترب.»[152] كان يوم رجوع الرب يقترب أكثر فأكثر، فما هي علامات دنّو مجيئه يا ترى؟ قال المسيح: «الشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه، ونجوم السماء تتساقط والقوّات التي في السموات تتزعزع، وحينئذٍ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد. فيرسل حينئذٍ ملائكته ويجمع مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء الأرض إلى أقصاء السماء.»[153] كان المسيحيون ينتظرون هذه العلامات بتوقّع. فهم سيكونون بين أولئك المختارين الذين جاء المسيح من أجلهم، وإذ يعلمون ذلك، لم يهابوا السيف الخاطف ولا التهديد البشري المؤقّت.

وإذ كانوا ينتظرون هذا الحدث العظيم، كانوا يجدون تعزية خصوصاً في

151- De Spectaculis 30
152- (لوقا 12: 28)
153- (مرقس 13: 24-27)

السِّفر الذي كمّل قانون العهد الجديد، سِفر الرؤيا الذي كتبه الرسول يوحنا الشيخ من منفاه في جزيرة بطمس. وتصف فقراته الأخيرة، بتفاصيل رائعة، انتصار المسيح في النهاية، إلى جانب أمجاد المدينة المقدّسة.[154] رأى يوحنا ما سوف يحدث في المستقبل، وبيّن ما رآه. لقد أُفرز الشهداء لكي يحصلوا على تكريم خاص. فهم حملوا اسم المسيح حتى نهاية المطاف، رافضين أية تسوية مع هذا العالم، ومع حكّامه المجدّفين. «ورأيت نفوس الذين قُتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة.»[155]

كان الشهداء ينتظرون حقاً إحراز مكافأة عظيمة، إذ ما وُجدوا مُخلصين حتى الموت. وأولئك الذين هلكوا في سبيل ملكوت الله، سيُرفعون فوراً إلى المجد بصفتهم «كهنة الله والمسيح»[156]، بينما إخوتهم العاديين، الذين ماتوا بسبب العجز أو المرض، كانوا لا يزالون في عالم الأموات (Hades) حيث ينتظرون نهاية العالم ويوم الدينونة قبل أن يدخلوا بيتهم الأبدي. وأمّا بقية الأموات، بحسب رؤيا يوحنا، فلن يعودوا إلى الحياة إلا بعد مضي ألف سنة.[157] ومتى تمّت الألف السنة الأولى، يُحلّ الشيطان من سجنه مرة أخرى، «ليُضل الأمم» و «ليجمعهم للحرب»[158]، قبل اندلاع الحريق النهائي الهائل وخلق «سماء جديدة وأرض جديدة»[159]

النبوة القائلة إن الشهداء سيصعدون ليحكموا مع المسيح على مدى ألف سنة، استأثرت بعقول المسيحيين في جميع أنحاء العالم آنذاك. وقد ذُكر الحكم الألفي هذا في ما كتبه بوليكاربوس في آسيا الصغرى (تركيا حالياً).

154- (رؤيا 20: 4) يعتبر بعض العلماء أن سِفر الرؤيا قد كتبه «يوحنا آخر» إلاّ أن البرهان على صحة هذا الرأي غير متوافر.
155- (رؤيا 20: 6). راجع [Schaff HOTCC Vol. II p.83]
156- (رؤيا 20: 5)
157- (رؤيا 20: 2، 7 و8)
158- 2 (بطرس 3: 7-31)
159- [Schaff HOTCC Vol. II p. 589 – 620] يبحث الأفكار المتنوعة التي كانت عند اللاهوتيين المسيحيين الأوائل بشأن علم الأمور الأخيرة.

و إيرينايوس في بلاد الغال (فرنسا حالياً)، و يوستينوس الشهيد في روما، وبين المونتانيين في فريجيا وفي إفريقيا الشمالية. وقد اعتبر معظم هؤلاء الكتّاب، إن هذه الفقرات من سِفر الرؤيا تشير إلى مملكة أرضية حقيقية سوف يتمّ تدشينها، والتي سيحكم فيها المسيح مع قديسيه على مدى ألف سنة فعلية. أمّا غيرهم، ومن جملتهم إقليمندوس و أوريجانوس في الإسكندرية، ومن ثم أغسطينوس في إفريقيا، فقد علّموا أن هذا الحكم الألفي قد بدأ فعلاً عند مجيء المسيح الأول، والذي بصعوده إلى السماء، بدأ يحكم هناك مع الشهداء.[160] ولكن، بمعزل عن أيٍّ من هذه التفاسير هو المفضّل، فإن هذه المقاطع الكتابية ولّدت عند المسيحيين تعزية عظيمة واطمئناناً ثابتاً وقوياً في ما كانوا يواجهونه من صراعات.

وهناك أيضاً سبب آخر وراء إخلاص المسيحيين العنيد لإيمانهم: لقد كانوا على علم بالنتائج الحتمية التي سوف تترتّب على البدائل. وأدركوا أنهم انخرطوا، لا في صراع الأفكار والمبادئ الأخلاقية فحسب، بل في معركة بين القوى الروحية أيضاً. كان رفضهم للأوثان، وامتناعهم عن المشاركة في أي شكل من أشكال العبادة الوثنية، ينبع من اقتناعهم بأن الأصنام ليست مجموعة من الأخشاب والأحجار الباطلة التي لا نفع منها وحسب، لكنها أيضاً مساكن تقطنها قوّات شريرة ومقتدرة جداً، تلك القوّات التي قد تتمكّن من إتلاف الصحة والخُلق وسبل العيش عند الناس، رجالاً ونساءً، وتسبّب لهم الجنون، وحتى الموت.

كانت القوة المتميّزة لهذه الأرواح معروفة جداً: فالذين يتعبّدون لها كانوا قادرين على تقديم براهين على حصول أحداث خارقة لا يمكن تفسيرها إلاّ بقوة تلك الأرواح. كان الكهنة الوثنيون ومستحضرو الأرواح يفتخرون بالأمور الخارقة للطبيعة. لكن مصدر عرافتهم وسحرهم هو شيطاني بحت. وما إن يتوسّل المتعبّد ويتضرّع إلى الروح الشريرة، حتى يجد نفسه وقد استُعبد بشكل تام للشيء الرهيب والمروّع الذي كان قد التجأ إليه طالباً عونه. لم تُخدع الجماعة المسيحية بالفكرة القائلة إنّ تقريب التقدمات

160- (غلاطية 4: 8 و9، 5: 1)

للأصنام، أو القَسم بقوة الإمبراطور الإلهية ليست إلاّ أعمالاً أدبية فارغة ومن دون معنى. لكنهم عرفوا أن تيارات شريرة شديدة الخطورة تكمن وراء هذه الديانات الكاذبة والبطّالة، وأن كل من يقترب منها يعرّض نفسه لخطر الانجراف في شقاوة لا يُعبَّر عنها. لم يكونوا يجترئون على أن يرتكبوا مجدّداً بنير عبودية.[161] لقد حذرتّهم كلمة الله بوضوح كافٍ من أن يكون لهم صلة ما أو أية علاقة بهذه القوى الشيطانية: «بل إن ما يذبحه الأمم فإنما يذبحونه للشياطين لا لله. فلست أريد أن تكونوا أنتم شركاء الشياطين. لا تقدرون أن تشربوا كأس الرب وكأس شياطين. لا تقدرون أن تشتركوا في مائدة الرب وفي مائدة شياطين.»[162]

إلاّ أن معرفة القوى الخارقة والفوق الطبيعية لم تكن مقتصرة على عبدة الأوثان وحدهم. وبالطبع فإن أسمى القوى الروحية جميعها هو الله الكلّي القدرة نفسه، وهو يمنح من في علاقة حميمة به قدرات فذّة ورائعة. وكثيراً ما كان المسيحيون في القرنين الثاني والثالث للميلاد يطردون الأرواح الشريرة باسم يسوع، وذلك على غرار نظرائهم في العهد الجديد. كما أن معجزات الشفاء لم تكن نادرة، أو غير شائعة آنذاك. والشهداء كانوا يشهدون لأحلام ورؤى إلهية المصدر وذات معانٍ روحية عميقة. كما فعل أيضاً العديد من إخوتهم العاديين. وقد أدى ذلك إلى انضمام عدد غير قليل من الناس إلى مسيرة الإيمان بالمسيح. وفي كثير من الأحوال، كانت حماسة المسيحيين وغيرتهم المذهلة قد نشأت بكل تأكيد من خبرتهم الشخصية القوية بكلّ من قوة الشيطان وقوة الله. ولم يكن عندهم أي شك في الجهة التي كانوا يرغبون في الوقوف إلى جانبها.[163]

لم ينظر المسيحيون إلى ساعة المحنة كأنها إذلالاً يجب احتماله، بل اعتبروها فرصة يجب انتهازها. فحينما كانوا يجدون أنفسهم مرغمين على أن يكونوا محطّ الأنظار في الأماكن العامة، كانوا يجدون في ذلك فرصتهم ليضيئوا هناك بمحبّة الله. إن كنّا نحن في أيامنا، نحاول أن نتحاشى، أو

161- 1 (كورنثوس 10: 20 12)
162- Frend pp. 94 – 95
163- (لوقا 6: 27- 29)

أن نتجاهل ببساطة، التحدّي الموضوع أمامنا في العظة على الجبل. فقد قبلوه هم بالمقابل، كما إنهم افتخروا به. لقد غفروا لأعدائهم وباركوهم أيضاً، وأداروا الخد الآخر، تماماً كما أوصاهم سيّدهم: «لكنّي أقول لكم أيها السامعون أحبّوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم. من ضربك على خدّك فاعرض له الآخر أيضاً، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً.»[164] لقد صلّى المسيحيون من أجل الذين كانوا يعذّبونهم، وساروا الميل الثاني الرمزي بفرح إطاعةً لربّهم.[165] كانوا يعلمون أنهم سيكافأون على إخلاصهم، فالمسيح صرّح بالقول: «طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا، لأن أجركم عظيم في السموات.»[166]

لقد اختبروا التعزية في أحزانهم وأوجاعهم، وملأ روح الله قلوبهم بالبهجة وبالسرور المتّقد الملتهب الذي أعطاهم الجرأة والثقة. كما أنهم اكتشفوا في أوقات الحاجة والعوز كيف أن الرب يسوع، العبد المتألم، يقترب أكثر من عبيده المتألمين. هذا وإنهم لم يذكروا في تبشيرهم عن قوة الله التي لا تُقاوم، على قدر ما تكلّموا عن تعزياته الدافئة، وعن محبته الثابتة وحنانه من نحو الضعيف والمنسحق. لقد كانوا على حق. هذا لأن المسيحية لا تكرز بإله بعيد، يكتفي بفرض مراسيم باردة ناشفة وإصدار أحكام صائبة، لكنها تقدّم أباً محباً يبحث عن الخطاة لكي يخلّصهم. فالإنجيل لا يتحدث عن الله الذي يُلبس الأقوياء مجداً، بل عن الله الذي يملأ قلوب المتواضعين بالفرح والسرور. «أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتّضعين، أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين.»[167]

كان تصرّف المسيحيين في قاعة المحكمة وفي الميدان مدعاة باستمرار لاندهاش الجموع المحتشدة. وحتى لو جُنِّبوا الموت، يبقى أن شهادتهم

164- بالإشارة إلى (متى 5: 14)
165- (متى 5: 10- 12)
166- (لوقا 1: 52- 53)
167- (يوحنا 19: 11)

المخلصة كانت إنجازاً مقتدراً وانتصاراً بحدّ ذاتها. كان الاعتراف العلني بالإيمان بالمسيح جزءاً من دعوة الله للكنيسة في كرازتها بالإنجيل للعالم، وفرصة يجب انتهازها بأي ثمن. كان الوثنيون يسجنون المسيحيين في الزنزانات، ويعرّضونهم للوحوش الكاسرة، ويأتون بهم مقيّدين بالسلاسل والحديد ليقفوا أمام الحكّام والولاة، وبالرغم من كل هذا، لم يكن المسيحيون يتصرفون بعدم لياقة، أو يُظهرون سخطهم على الحكام. ونادراً جداً ما كانوا يخافون أو يرتعبون. بل عوضاً عن ذلك، كانت جلسات المحاكمة هذه تتّسم بموقف الشكر الهادئ لله، وبتعبير راسخ عن الثقة به تعالى كمن يمسك بيده زمام كل شيء. لقد علموا أن القضاة، ليسوا إلاّ أدوات يحرّكها الله الأزلي بيده الحكيمة بموجب إرادته. ألم يخاطب الرب يسوع بيلاطس البنطي بالقول: «لم يكن لك عليّ سلطان البتّة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق؟»[168] كان هذا الوثوق المطلق بالله تعالى وبتحكّمه بجميع الأشياء، هو الذي ألهم المؤمنين الصبر والسلوان، ومنحهم التصرّف الجليل الوقور الذي كان مؤثراً للغاية ومثيراً للإعجاب حقاً، كما ورد في السجلات ومحاضر الدعاوى القضائية. لقد كانوا شجعاناً في وجه التهديد والوعيد، لطفاء مع أعنف معذّبيهم وأشرسهم، وقد تقبّلوا المعاناة والآلام بفرح عظيم، على اعتبار أنها الطريق الذي عيّنه لهم الرب لقيادتهم إلى المجد في ملكوته السماوي العتيد.

لقد تأثّر المشاهدون تأثراً عميقاً بكل ما تقدّم. ولدينا شواهد صحيحة ومتحقّق منها عن وثنيين أدركوا حقيقة الإنجيل، وصمّموا على إتّباع المسيح في اللحظة نفسها التي كانوا يشاهدون فيها المسيحيين، رجالاً ونساءً، يدانون ويموتون من أجل القضية المسيحية.[169] كذلك كان هناك بكل تأكيد عدد أكبر من الناس، من وثنيين ويهود، تحركت مشاعرهم في العمق بما رأوا وما سمعوا، وقد حصلوا من جرّاء ذلك على انطباعات مفعمة بالحيوية، قادتهم مع مرور الوقت إلى الإيمان عينه. كتب ترتوليانوس إلى الحكام الرومان:

168- Neill pp. 43 – 44
169- Apologeticus 50

«لا تنفعكم شراستكم شيئاً، مع أنكم تزدادون براعةً وإبداعاً في التعبير عنها. إنها لمن الأمور التي تجذب الناس إلى جماعتنا. لأنه كلّما أمعنتم في قهرنا وسحقنا، ازداد عددنا.» وبعد هذا ينطق ترتوليانوس بذلك التحدّي الرائع الممتاز الذي دخل في تراثنا المسيحي عندما قال: «إن دماء المسيحيين هي بذار. يحثّ الكثير من فلاسفتكم الناس على التحلّي بالصبر لاحتمال الآلام والموت... ومع ذلك فإن كلماتهم هذه قد استقطبت حولهم عدداً من التلاميذ أقلّ من أولئك الذين علّمهم المسيحيون بقدوة أعمالهم. هذا العناد نفسه الذي تعيّروننا به، هو الذي يُظهر لكم وجه الحق. فمن ذا الذي لا يتحرّك للبحث عن السبب الذي يقف وراء صمودنا العنيد بعد أن يراه. ومن ذا الذي لا ينضم إلى إيماننا بعد تقصّيه له. ومن ذا الذي لا يرغب في المعاناة بعد انضمامه إلينا، حتى يتسنّى له أن يربح نعمة الله كلّها؟... من أجل هذا، نحن نشكركم على حكمكم علينا في الوقت عينه الذي فيه يصدر هذا الحكم. ثمة تباين كبير بين ما لله وما للإنسان. حتى إنه عندما تُدينوننا، يقوم الله بتبريرنا.»[170]

لقد كانت دماء الشهداء بذار الكنيسة فعلاً. فأبواب السجون كانت محاطة بحشود الصحابة والأصدقاء، وجميعهم مملوؤن غيرةً لزيارة إخوتهم وأخواتهم المقيّدين بين جدرانها. كانت الاستجوابات العمومية في المحاكم الرومانية ناجحة، بشكل ليس له مثيل، في نشر رسالة الإنجيل بشمال إفريقيا. كما أن مقابر الشهداء أصبحت مواقع مفضّلة لعقد الاجتماعات المسيحية. والكنائس استقت أيضاً قوّتها وتشدّدها من القدوة الملهمة لأبطالها وبواسلها. لقد كانوا يحتفلون كل سنة بذكرى اليوم الذي فيه تألم هؤلاء الأبطال على اعتبار أن هذا اليوم هو يوم مجدهم. كان المسيحيون يشجعون الكنائس من السجون ويقدّمون لها نصائح عديدة، وكانت أقوالهم تُعتبر كأنها إلهامات أوحى بها إليهم الله ذاته. وقد رحّب كثيرٌ من الناس بما كان يحصل عليه هؤلاء المؤمنون السجناء من أحلام ورؤى، واعتبروها صادرة من عند الله. كانت روايات الشهداء المكتوبة، أكثر المؤلفات شعبية عند

170- بالإشارة إلى (تكوين: 46-57). (متى 25: 1-13)

الكنائس الأولى. لقد ازدهرت الجماعات المسيحية ونمت بقوّة، من جراء الأحزان والأوجاع عينها التي كان القصد منها تحطيم هذه الجماعات.

فما هي الخلاصة التي نستطيع أن نستنتجها من هذا التصرّف الرائع عند مواجهة الاضطهاد؟ إن القسوة والضراوة التي تعامل بهما الحكام الرومان مع الإيمان المسيحي لم تستطيعا سحقه، بل جعلتاه أكثر شعبية. لم تُمحَ الكنائس أو تُزال من الوجود لكنها نشطت وتعزّزت. فلِمَ حصل ذلك؟ علينا أولاً أن نتذكر أنه، مع حلول القرن الثالث للميلاد، كان المسيحيون قد أصبحوا يشكّلون أقلية عددها محترم في المدن في إفريقيا الشمالية، كما أنهم كانوا الأغلبية في بعض المناطق. كانت هذه المقاومة الجريئة للسلطات أسهل حينما يكثر عدد المسيحيين جداً. ولم يكن باستطاعة الحكام أن يلقوا القبض عليهم جميعاً ويبيدوهم: لم تكن السجون تكفي لاستيعاب هذه الجماهير الغفيرة، ولو فعلت الحكومة ذلك، لتوقفت نشاطات الحياة العامة في البلاد وجمدت تماماً. كان على نسبة معيّنة من الذين احتشدوا لتقديم الإكرام علناً للشهداء، أن يكابدوا عقاباً على فعلهم هذا، إلاّ أن الكنيسة، ككلّ، كانت في أمان من الإبادة. ومقابل كل مسيحي يقبع مسجوناً في داخل زنزانته، هناك مئة آخرون خارج السجن، وجميع هؤلاء متشوّقون إلى مؤازرته ومساندته في ساعة الشهادة والمجد، وأيضاً إلى تكريم ذكراه بعد ذلك.

ولا ريب في أن النمو الراسخ لجماعة المسيحيين في السنوات التي سبقت الأزمة، يشكّل المفتاح لتفسير جرأة هذه الجماعة وقدرتها على الصمود والبقاء حين نزلت بها النوائب. لقد استفادت الكنائس من السلام والحرية المتوافرين لها، إذ اشتغلت جدياً ما دام ضوء النهار مشرقاً. وقد أصبح لديها الآن، كما كان حال يوسف في مصر، مصادر فسيحة واسعة من المختزنات الروحية، تكفيها لسنوات القحط والجوع. كذلك كان عند المسيحيين، وعلى غرار العذارى الخمس الحكيمات، مقدار كافٍ من الزيت لإنارة مصابيحهم، وهذه المصابيح كانت مضيئة، ومجهّزة أفضل تجهيز وأكمله لتشع بلمعانها

في أحلك الليالي.[171]

وعليه فإن التاريخ نفسه يُظهر لنا، وحتى من وجهة النظر البشرية، كيف أن القوى العاملة لصالح الكنيسة كانت أعظم من القوى المنظمّة ضدّها. والمسيحيون كانوا يتمتّعون بتأكيد راسخ بالانتصار، وذلك بفضل اقتناعهم بصحة الإنجيل وببطلان الوثنية. بالمقابل، لم يكن عند الوثنيين أية ثقة مماثلة بديانتهم. كان الوثنيون يخجلون من سخافات ديانتهم ومن فسادها الخلقي، وأما تمسّكهم بها فهو لأنهم قد تعوّدوا عليها ولأنها كانت أساس علائقهم. إن سلاح الافتراء الذي طالما استعمله الوثنيون ضد المسيحيين في الأيام الأولى، سقط عاجزاً ضعيفاً على أرض المعركة، عندما أظهر الشهداء، وعلى مرأى من الجميع، أيّ نوع من الإيمان كان عندهم. لم تستطع الوثنية أن توحي بمثل هذه الاستقامة الخلقية أو الإقدام والصبر والعزيمة الشخصية. وأكثر من هذا، فقد كانت تعجز عن إلهام معتنقيها بالرجاء العظيم، وبتأكيد الخلاص والحياة الأبدية، الوعود التي كانت تؤازر المسيحيين وتثبّتهم إلى آخر ساعات حياتهم. لم يكن بوسع الوثنية أيضاً أن تضاهي المسيحية لجهة شركة المحبة، علامتها المميّزة، متخطّية بذلك التمييز البغيض بين الناس، على أساس الطبقة الاجتماعية والثقافة والعنصر، العوامل التي كانت تُفسد الجماعات الوثنية.

وبالطبع، لقد عمل الاضطهاد على ضمّ الجماعات المسيحية بعضها إلى بعض، وأصبحت الفروقات القديمة طيّ النسيان خلال فترات الحرمان المشتركة. وكلّما كان يُتلى أي مرسوم من المراسيم الإمبراطورية، كان يعني ذلك أن الضربة قد تسقط على أي واحد من أعضاء الكنيسة من دون أي تمييز. عند ذاك كان المؤمنون يسارعون فوراً لزيارة بعضهم بعضاً للتشجيع، والحث على الصمود. وما إن يعلموا بخبر إلقاء السلطات القبض على أيّ من أعضاء الكنيسة، حتى كانوا يقومون بحشد طاقاتهم، وللمة شملهم لأجل تنظيم زيارات دورية إلى السجن، لسدّ أيّ نوع من احتياجات زميلهم، ولمؤازرته وشدّ عزيمته في الإيمان. كانوا يفسّرون له الكتاب المقدس مادحين

171- مقتبسة (Oswald Sanders Spiritual Leadership p. 13)

إيمانه، وممجّدين مدى عظمة مهمته الإلهية. وهم يبذلون كل ما في وسعهم لمساعدته على إكمال النصر على طول أرض المعركة الممتدّة أمامه. كانوا يصلّون لأجله بحرارة، كما أن غيرتهم هذه لم تكن أقل عندما كانوا يُصلّون معه. وفي يوم المحاكمة كانوا يحتشدون بعدد كبير، مالئين قاعة المحكمة، أو في الساحة العامة، لكي يقدّموا لأخيهم دعماً معنوياً، ويصلّوا لأجله أيضاً، وللاستماع إلى آخر كلماته، ولكي يحتفظ بشجاعته وإقدامه ولا يضعف. إن أولئك الذين اختيروا للوقوف أمام الجماهير المحتشدة، كان يُنظر إليهم كجنود المسيح، وكأبطال الجماعة المسيحية. وإذ كانوا يشهدون لحق الإنجيل، كانوا في الواقع يقرّون أيضاً بمدى قوّة مجموعتهم المسيحية وإيمانها. فالشهيد كان يمثّل الكنيسة التي ينتمي إليها، وبطولة الواحد كانت تنعكس إيجاباً كشرف للجميع.

لم يكن الأبطال الحقيقيون في الكنيسة الأولى في إفريقيا الشمالية من وعّاظها العظماء، أو من صفوف علماء اللاهوت اللامعين فيها. إن الرجال والنساء الذين كانوا يُذكرون بحب عميق والذين يُتحدث دائماً عن مآثرهم بولاء مفعم بالمحبة، كانوا في الواقع فقراء بأمور هذا العالم، ولكنهم كانوا أغنياء بإيمانهم. قال صموئيل برنكل (Samue Brengle): «إن إحدى كبرى مفارقات التاريخ، هو التجاهل والاستخفاف التام بالرتب والألقاب في الأحكام النهائية التي يمرّرها الناس بعضهم على بعض. إن التقدير النهائي للرجال يُظهر بأن التاريخ لا يهتم، ولا حتى بمقدار ذرّة واحدة، بالرتب والألقاب التي يحملها المرء، ولا يأبه حتى للمناصب التي كان يتبوّأها، ولكنه يهتم فقط بنوعية أعماله وطبيعة عقله وقلبه. نحن لا نزال نتذكر حتى اليوم فيليستاس و سبيراتوس و كلرينوس بأطيب الذكريات وأحبها، بينما أسماء الأرستقراطيين المتغطرسين الذين نطقوا على هؤلاء القديسين بحكم الموت، أصبحت في طي النسيان. وقد قال المسيح بحق: «ولكن، كثيرون أوّلون يكونون آخرين والآخرون أوّلين.»[172]

172- (مرقس 10: 31)

الفصل الثاني عشر

قوة الحياة الجديدة

إن المستقبل ممتد أمامنا. وقد تصير أعمالنا وأقوالنا في يوم من الأيام موضوعاً للدراسة التاريخية. وما كان باستطاعة المؤمنين الأوائل أن يتخيّلوا أن إفريقيا وحدها ستحتوي، مع حلول العام 2000، على 250 مليون مسيحي، أو أن 15 مليون عربي في العالم يفتخرون بأنهم من أتباع المسيح. وعلى الرغم من ذلك فإن ثقتهم الكاملة بالانتصار النهائي، جعلتهم يتحمّلون الآلام بصبر، مُظهرين حِلمهم لمن يعيشون حولهم، ومؤكدين بذلك أنه لا يمكن لمقاصد الله أن تفشل وأنه تعالى اختار أن يكمّل مشيئته بواسطة شهادتهم المسالمة للحق.

لقد أحس المسيحيون بعدم حاجتهم إلى فرض دينهم أو الدفاع عنه بأسلحة بشرية – بالقوة أو بالقانون أو بالتهديد. ولهذا السبب فإن الأوطان ذات الإرث المسيحي تسمح بالحرية الدينية الكاملة لأتباع الديانات الأخرى. كما أن المسيحيين لا يقنطون البتة عندما يكونون أقلية في مكان معيّن. فهم سيكونون مواطنين مخلصين وجيراناً متعاونين ومحترمين ونزهاء ولطفاء. وسيفسّرون إيمانهم بكل سرور لمن يهمّهم الأمر. لكن سيتركون لكل فرد الحرية لأن يطلب إلى الله أن يظهر له الحق كما هو.

لقد فشلت فشلاً ذريعاً محاولات الناس الدنيويين في العصور الوسطى لتحويل الكنيسة إلى جيش صليبي، وسرعان ما يُترك هذا التحريف الواضح لمبادئ المسيح الداعية على المحبة لجميع الناس بمجرد أن أصبح بإمكان أتباعه أن يقرأوا الكتاب المقدس بحرية وبلغتهم الخاصة. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، عادت الكنائس في جميع أنحاء العالم إلى أصولها النقية والمقدسة و «ثمر البر يُزرع في السلام من الذين يفعلون السلام.»[173]

والغاية التي تلهم المسيحيين الحقيقيين في الحياة هي: أن يملأوا هذا العالم بمحبة الله. لقد انطلقوا عارضين الشفاء على ذوي الأرواح المريضة، والرجاء لليائسين، والسلام والغفران للرجال والنساء البعيدين عن الله.

173- (يعقوب 3: 18)

لقد كان المسيحيون أطباء وممرضات، لا على صعيد الجسد، بل النفس، وكان دواؤهم الشافي هو محبة الله، كما ظهرت في المسيح. كتب بولس الرسول: «ولكن كنت حريصاً أن أبشّر هكذا ليس حيث سُمّي المسيح». «الذي ننادي به منذرين كل إنسان ومعلّمين كل إنسان بكل حكمة لكي نحضر كل إنسان كاملاً في المسيح يسوع.»[174]

لقد عزم التلاميذ على أن ينفّذوا مأمورية المسيح الأخيرة لهم: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم... وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به.»[175] كان المسيحيون نور العالم، وكانوا حريصين على أن يُشرق هذا النور في كل مكان.[176]

شجّع أحدهم الآخر في هذا العمل العظيم، حيث كانوا يجتمعون لقراءة كلمة الله وللصلاة طلباً لبركته تعالى على مساعيهم. كانت الشركة المسيحية تمنحهم قوة هائلة. وفي أثناء سفر المبشّر، كان يتشجع بما يقدّمه له إخوته وأخواته في الكنيسة التي أرسلته، من دعم مُحب وصلاة من أجله. كما أنه كان متأكداً من أن ترحيباً حاراً ينتظره لدى عودته. كان واثقاً من الرسالة التي دُعي إلى المناداة بها: «لأني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن.»[177]

لقد أعطت كلمة المسيح معنىً للحياة، كما أظهرت طبيعة الإنسان الحقيقية. كذلك أعطت الإنسان العاقل فهماً لسلوك الناس، وما هي الاهتمامات التي تشغلهم. وهي، فوق هذا كله، تعرض عليهم رجاء أكيداً لمستقبل أفضل. لخّص الرسول بولس القصد من التعليم المسيحي الذي يُشبع القلب والعقل: «لكي تتعزّى قلوبهم مقترنةً في المحبة لكل غنى يقين الفهم لمعرفة سرّ الله الآب والمسيح المذخّر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم.»[178]

174- (رومية 15: 20)، (كولوسي 1: 28)
175- (متّى 28: 19 و20)
176- (متّى 5: 14)
177- (رومية 1: 16)
178- (كولوسي: 2 و3)

لقد وجد المسيحيون طريقاً جديداً للحياة، وهو أن يحبوا أقرباءهم، ويغفروا للذين يسيئون إليهم، ويحسنوا لكل الناس. كانوا في اجتماعاتهم يقتربون إلى ربّهم وبعضهم إلى بعض، فهناك كانوا يسجدون للرب في زينة مقدسة.[179] وكانوا يحصلون بذلك على القوة الروحية اللازمة لتتميم المهمة التي اؤتمنوا عليها. كانوا يجدون في هذا فرحهم وبهجتهم. كان هذا قصد الله فيهم، كما كان هذا سرّ نجاحهم.

179- (المزمور 29: 2)

التواريخ

قبل المسيح

1000 الفينيقيون يستقرون على شاطئ البحر الأبيض المتوسط عند إفريقيا الشمالية.

800 بداية إمبراطورية قرطاجة.

146 روما تهزم إمبراطورية قرطاجة. بداية الحكم الروماني في إفريقيا.

بعد المسيح

نحو 68 استشهاد الرسولين بطرس و بولس

156 استشهاد بوليكاربوس، ناظر سِميرنا

نحو 160 ولادة ترتوليانوس

165 استشهاد يوستينوس الشهيد

177 – 192 الاضطهاد في أثناء حكم ماركس أوريليوس وكومّودس

177 الاضطهاد في ليون وفيان (فرنسا)

180 الاضطهاد في سكيليوم

نحو 195 اهتداء ترتوليانوس إلى المسيحية

نحو 200 ولادة كبريانوس: إصدار الحرم الكنسي في روما بحق المونتانيين

202 – 204 الاضطهاد في أثناء حكم سِفيروس

203 استشهاد بربيتوا و فيليستاس: انضمام ترتوليانوس إلى المونتانيين

نحو 230 موت ترتوليانوس